

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
تطوان

جمعية تطاون أسمير
سلسلة تراث
8

رِياضُ الْوَرْدْ

فيما انْتَمى إِلَيْهِ هذا الْجَوْهر الفَرْد

لأبي عبد الله، محمد الطَّالب
بن أبي الفَيْض، حَمْدون ابْن الحاجّ
السُّلَميّ المِرْداسيّ الفاسِيّ

تحقيق :

الدكتور: جعفر ابن الحاجّ السُّلَمِيّ
الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية

الجزء الثاني

تطوان 1420هـ - 1999م

رياض الورد

فيما انتمى اليه هذا الجوهر الفرد

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
تطوان

جمعية تطاون أسمير
سلسلة تراث
8

رِياضُ الْوَرْدْ

فيما انْتَمى إلَيْهِ هذا الْجَوْهر الفَرْد

لأبي عبد الله، محمد الطّالب
بن أبي الفَيْض، حَمْدون ابْن الحاجّ
السُّلَميّ المِرْداسيّ الفاسَيّ

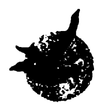
تحقيق:

الدكتور: جعفر ابن الحاج السلمي
الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية

الجزء الثاني

تطوان 1420 هـ - 1999م

رقم الإيداع القانوني: 1999-641



Imp. ALTOPRESS
Rue Abi Jarir Tabari n° 58 Tanger
Tél: (09)94.36.80 - Fax: (09)94.27.74

البابُ الخامِس

في ذِكرِ مَن كانَ فيهِم بِعُدوَةِ المغرِبِ مُتَّصِفاً بالعلمِ والصَّلاحِ والنَّجاح، مِن أعقابِ الجَدِّ القادِمِ، ذي الخُلُقِ الأحمَدِ، أبي عبدِ اللَّهِ مُحَمَّد

(34) [أبو الفضل، أحمد بن العربي ابن الحاج السُّلمي][1]

فمنهم العلامة المحقق، العارف بالله، أبو الفضل والمكارم، أحمد بن العربي بن محمد بن علي بن محمد ابن الحاج.

[مولده]

[ولد بفاس عام اثنين وأربعين وألف][2]. (1632/1042) ونشأ بها في حجر أبيه أبي حامد العربي. وقرأ القرآن وأحكم تجويده. ثم أخذ في قراءة الفنون العلمية، بهمة لاتتوجه لغير الطاعة من لدن النشأة.

[مشيخته]

فأخذ عن جمع عظيم من مشيخة المغرب والمشرق، كشيخ الإسلام أبي محمد، عبد القادر بن علي الفاسي الفهري[3]، وعليه اعتماده في علمي الظاهر والباطن، والشيخ الحافظ حمدون الأبار[4].

- والشيخ ميارة شارح التحفة.
- والقاضي ابن سودة[5].

[1]- ترجمته في: النشر: 83/3. الألتقاط: 273-274. رقم 413. الدرر: 327/2. السلوة: 1/ 153-155. الصفوة: 213-214. الشجرة: 327/1. رقم 1281. الحياة: 136-137.

[2]- عبارة مضروب عليها في ميم.

[3]- من كبار أعلام المغرب. (ت1091هـ). ترجمته في: النشر: 270/2-279. الالتقاط 217-218. رقم 325. الدرر: 267/2-269. السلوة: 309/1-314. الشجرة: 314/1-315. رقم 1226. مؤرخو الشرفاء: 186-187. الحياة: 102-105. النبوغ: 283/1-284. العناية: 37-41. معجم المطبوعات: 265-266. رقم 613.

[4]- أحمد حمدون بن محمد الأبار الفاسي. (ت1071هـ). ترجمته في: النشر: 109/2-112. الالتقاط: 148. رقم 242. السلوة: 330/3. الموسوعة: 7/1.

[5]- محمد بن أبي القاسم. (ت1076هـ). فقيه قاض. ترجمته في: الصفوة: 159-160. النشر: 2/ 150-151. الالتقاط: 166. رقم 268. السلوة: 76/3-77.

- والشيخ حمدون المزوار[6].
- والشيخ أحمد بن جلال التلمساني[7].
- والشيخ أبي الحسن، علي الزرهوني[8].
- والشيخ نور الدين، أبي الحسن، علي الشبراملسي[9] مُحَشّي «المواهب».
- والشيخ الخرشي[10] شارح المختصر.
- والشيخ أبي مهدي، سيدي عيسى الثعالبي الجزائري المكي[11].
- والشيخ ملا، إبراهيم الكوراني الشهرزوري المدني[12].
- والشيخ أبي الفرج، عبد السلام بن إبراهيم اللقاني[13].
- والشيخين الأخوين، زين العابدين[14] وعلي، الطبريين الحسنيين المدنيين.
- والشيخ إبراهيم الخياري[15].

---

[6]- حمدون بن محمد الزجني. (ت1084هـ). ترجمته في: الصفوة: 172-173. النشر: 2/205-206. الالتقاط: 195. رقم 297. السلوة: 3/77-78.

[7]- أحمد بن عبد الرحمان المرابط. (ت1079هـ). ترجمته في: النشر: 2/179-180. الالتقاط: 174. رقم 282.

[8]- فقيه لغوي. (ت1072هـ). ترجمته في: النشر: 2/121. الالتقاط: 153. رقم 247.

[9]- عالم مصري. (ت1087هـ). ترجمته في: النشر:2/219. الالتقاط: 199. رقم 301.

[10]- فقيه مصري. (ت1102هـ). ترجمته في النشر: 3/18-23. الالتقاط: 257-258. رقم 390. معجم المطبوعات:110-111. رقم 273.

[11]- عيسى بن محمد. (ت1080هـ). ترجمته في: الصفوة: 163-165. النشر:2/185-187. الالتقاط: 179-180. رقم288. الفهرس: 2/126-137. الرحلة العياشية:1/12. 207. 210.

[12]- إبراهيم بن حسن. (ت1101هـ). ترجمته في: الصفوة: 210-211. النشر:3/5-15. الالتقاط: 255-256. رقم 389.

[13]- عالم مصري، (ت 1078هـ). ترجمته في: النشر: 2/170-172. الالتقاط: 172-173. رقم 279.

[14]- زين العابدين بن محيي الدين، عبد القادر الطبري الحسني. (ت 1078هـ). ترجمته في: النشر: 2/ 170. الالتقاط: 172. رقم 278.

[15]- عالم مصري. (ت 1083هـ). ترجمته في: النشر 2/383-384. الالتقاط: 245. رقم 370.

- والشيخ ياسين[16].

- والشيخ عبد القادر الغزي.

- والشيخ عبد الله بن محمد الديري الدمياطي.

- والشيخ عاشور القَسْمَطيني[17].

وغيرهم ممن تضمنته فهرسته، التي جمعها تلميذه شيخ الجماعة، الحافظ العلامة، شارح الاكتفاء، سيدي محمد بن عبد السلام بناني[18]، وفهرسة الشيخ أبي سالم، سيدي عبد الله العياشي، لمشاركته صاحب الترجمة له في جميع إجازاته، كما استدعى الإجازة لنفسه ولأصفيائه، حين رحل إلى المشرق حاجا سنة أربع وسبعين وألف، (1663/1074)، من أكثر المشارقة وغيرهم، حتى برع في العلوم، كالعربية والأصلين، والمنطق والفقه، والحديث والتفسير والتصوف، وصار إماما في المعقول والمنقول، مقدما على علماء الحضرة الفاسية وصلحائها، كأنه البدر الطالع في أفق سمائها، واشتهرت فضائله، وانتشرت فواضله، وضرب به المثل في الورع وعلو الهمة، والتسليم للأقدار، والتوجه إلى الله الملك القهار، والاجتهاد في نشر العلم، ولزوم العبادة، والتحري عن الشبه، وإخماد البدع التي جرت بها العادة.

(تعريف محمد بن عبد السلام بناني به)

قال شارح الاكتفاء، في فهرسة شيخه هذا ما نصه[19]: «شيخنا الحافظ الجامع، والزاهد الخاشع، ألْيَن أهل زمانه عِطفا، وأشدهم لله خوفا، مقيم رسم المعارف بعد الاعوجاج، سيدنا وسندنا، أبو الفضل، أحمد بن العربي ابن الحاج.

[16]- ياسين بن محمد غريس الدين الخليلي. أديب فقيه (ت 1086هـ). ترجمته في: النشر: 2/382-383. الالتقاط: 245. رقم 369. معجم المطبوعات: 371. رقم 848.

[17]- عاشور بن عيسى. فقيه قسنطيني. (ت بعد 1074هـ) ترجمته في: الشجرة: 1/310. رقم 1204.

[18]- عالم فاسي. (ت 1163هـ). ترجمته في: النشر: 4/80-81. الالتقاط: 416-419. رقم 541. السلوة: 1/146-148. الحياة: 253-256. النبوغ: 1/290. تاريخ تطوان: 3/142.

[19]- النص في تفحة المسك: 128-129. فهرسة أحمد بن العربي ابن الحاج: لوحة: 34-35، مع بعض الاختصار.

كان ممن انفرد بعلمي المعقول والمنقول، إلى قدم راسخ في الفروع والأصول، آية لله تعالى في التبحر في العلم، والتصرف في دقائقه، واستحضار نوازله وغوامضه ورقائقه.

مجلسه كثير الفوائد، مليح الحكايات، وقضايا التواريخ، وملح الشواهد. يضرب به المثل في الزهد والعبادة، وتقف عند كلامه الفتوى في الأذكار والإرادة. مقبل على الآخرة، معرض عن الدنيا وزخرفها.

نفع الله به كل من قرأ عليه لصلاح نيته، وسلامة طويته. سيرته في الإقراء على مقتضى ما لابن عرفة من قوله:

«حقيقة الإقراء تصحيح المتن، وحلُّ المشكل، وإيضاح المقفل، وزيادة أخرى غير ذالك، ضررها بالمتعلم أقرب من نفعها».

مع دين لم تدنسه المطامع، وحسن خلق ما وقر مثله في مسمع سامع. مع إدمان على تلاوة القرآن، وحسن نغمة بقراءته، واحتساب لله تعالى، في أجر سعايته، وخشية وحياء، وإيثار ومواظبة على قيام الليل والنهار، وتبحر في القراءات وأحكامها، وبلوغ في علوم العربية مبلغا لم يدانه فيه أحد من أعلامها، مع مشاركة قوية في سائر العلوم الشرعية. لم أر من يحقق الفقه الساذج كتقريره، ولا من يحرره كتحريره.

ولي خطة القضاء أواخر عمره، على رغم منه في طاعة الله، تعالى، بطاعة أميره، بالمدينة البيضاء، فأقام الحق بها ولهج، فحمدت سيرته، وارتفع على منار العدل صيته». انتهى.

[ولايته القضاء][20]

وكانت ولايته لخطة القضاء، في الثاني والعشرين من المحرم الحرام، مفتتح عام خمسة ومئة وألف (1693/1105).

[ظهير المولى إسماعيل]

وعندنا كتاب المنصور، أبي الظفر، مولانا إسماعيل له، لما قبل خطة القضاء. ونصه:

«إلى الفقيه العلامة، البحر الفهّامة، المدرّس البركة، الحجة القاضي الأعدل، أبو البركات،

[20]- النشر: 3/65.

السيد أحمد ابن إلحاج. حفظه الله ورعاه، [ونفعنا][21] به وبمحبته. آمين.

سلام عليكم، ورحمة الله وبركاته. لا مُتعرَّف بحمد الله إلا الخير والعافية، ونعم الله الصابغة[22] الصافية. نحمده تعالى، ونشكره ونستزيده من خزائن نعمه الوافية[23].

أما بعد: فإنه ورد على أبوابنا العلية بالله، الرجل الصالح، السيد أحمد ابن ناصر، بقصد الزيارة. وحين التقينا معه، طلبنا منه بذل النصيحة، والدلالة على رجل من أهل الظاهر، وسر الباطن، نستعين به على أمر ديننا ودنيانا، وما نحن بصدده من أمور الخلافة».

قلت: قد قدمت ذكر هذا الكتاب في الباب الأول، إلى قوله هناك:

«فنحمد الله الذي جمع لنا فيك ما نحبه: شرف العلم، وعلو النسب[24]. فأسمِعْنا من دعائك الصالح في سائر خلواتك وجلواتك، وابذل لنا النصح الواجب عليك، وقد شكرنا لكم صنيعكم، كونكم امتثلتم أمرنا، وساعدتمونا على توليتكم تلك الخطة، وأطعتُم الله بطاعتنا، فبارك الله فيكم. ذالك الظن فيكم، والمعهود من صالح محبتكم، فقد كنت مهتما من عدم قبولكم لتلك الخطة، ويتغير خاطرنا عليكم. فحين وصلني قبولكم لها، وامتثال أمرنا، سجدت لله شكرا. ووالله ما حملني على توليتكم تلك الخطة، إلا إحياء شعائر الدين من بعد غربته، كما قال عليه السلام:

«بدأ الدين غريبا، وسيعود غريبا، فطوبى للغرباء».

فأنت منهم، وتقررت عندي سيرتك الجميلة، ووصفت لنا أوصافك الحميدة الجليلة، التي عزّ وجودها في هذا الزمان. فهي التي تدل على علو نسبك وحسبك، ودينك وخصوصيتك من بين أهل زمانك. نفعك الله، ونفع بك، وأسعدنا بمعرفتك، ونفعنا بمحبتك. فقد أخبرت وأن[25] أهل الذمة، أخزاهم الله، أتوك ليلة العيد، بما ظفناه عليهم من كسوة القاضي التي يخطب بها

[21]- سقطت من ميم. والتعويض من باء.

[22]- كذا بالأصل.

[23]- ما بعده في: نفحة المسك: 129-130، مع بعض الاختصار.

[24]- بعده في باء، وعقبه. ولا معنى لها.

[25]- كذا بالأصل.

خطبة العيد، فضربت بها وجوههم، وأبيت قبولها منهم، فأنهوا الأمر لشيخهم، بعد أن عزمت على عقابهم أشد العقوبة. فذكر لي وأنك[26] امتنعت من قبولها. فجزاك الله عنا خيرا. فمثلك في هذا الزمان، وجوده أعز من الكبريت الأحمر.

وأخبرنا خديمنا الناظر رضوان، وأنك[27] امتنعت من قبض ما كان يقبضه من كان من قبلك من الأوقاف، وإنما قبلت من ذالك شطره، مع ما أنهى لنا من تحرّيك في الأحكام، وتوقفك في المسائل، وردها لغيرك، مع غزارة علمك، وتضلعك بالفقه.

فالحمد لله الذي أنعم علينا بوجود أمثالك في دولتنا، نستعين بك على أمر الدين، فالله سبحانه، يعيننا على القيام بحقوقك الواجبة لك علينا. آمين.

إلى أن قال:

آمر باحترام دارك وقرابتك، ومن له أدنى انتساب إليك. فدارك جعلناها حرما وزاوية، فمن لاذ بها واحترم، فعليه أمن الله وأمننا».

[إشارة الوزير الغساني إليه][28]

ولما عرّف الفقيه العالم الضابط، أبو العباس، سيدي أحمد بن عبد الوهاب، الوزير الغساني، بالإمام العلامة، سيدي محمد بن أحمد المسناوي[29]، وعدّ جماعة من أشياخه، ومنهم صاحب الترجمة؛ قال[30]:

«كان عالما عاملا. ولي القضاء بفاس الجديد. وبعد وفاته، وجد ما كان يقبض من الأحباس موفّرا، وأوصى به أن يردّ إلى محله، ولم يتلبس بشيء منه، اقتداء بسيد العارفين بالله،

[26]- كذا بالأصل.

[27]- كذا بالأصل.

[28]- أديب كبير. (ت 1146هـ). ترجمته في: النشر: 3/364-366. الالتقاط: 360. رقم 509. السلوة: 2/299-300. الدرر: 2/360. مؤرخو الشرفاء: 215-216.

[29]- من كبار علماء الأسرة الدلائية. (ت 1136هـ). ترجمته في: النشر: 3/265-278. الالتقاط: 327-330. رقم 487. الدرر: 342-344. السلوة: 3/44-47. مؤرخو الشرفاء: 214. الحياة: 196-204. معجم المطبوعات: 325. رقم 731.

[30]- النص في نفحة المسك: 130-131.

سيدي محمد ابن عبّاد[31]. قال: حدثني شيخنا العالم، الأستاذ الحافظ المحدث، سيدي عبد الرحمان، ابن الفقيه العالم، سيدي أبي القاسم ابن القاضي[32]، أنه لما مات ابن عباد، وُجد ما كان يتحصل بيده من أحباس الإمامة والخطابة بجامع القرويين مجموعا، أوصى به أن يُرد إلى الأحباس، وقدر ذالك ثمان عشرة مئة مثقال ذهبا.» انتهى.

[تعريف مولاي إدريس المنجرة به]

وبعد أن ذكر العلامة الأستاذ الشريف، مولاي إدريس المنجرة[33]، في فهرسته[34] جملة من أشياخه قال[35]:

«ومنهم، أي من أشياخه، الشيخ الإمام البركة، الصوام القوام، المدرس النفاع، المشارك الحاج الأبرّ، أبو العباس، سيدي أحمد بن العربي ابن الحاج:

كان رحمه الله، شديد الحرص على التعليم، كثير الخوف من الله. تولى القضاء بفاس العليا، فباشره بعفة ونزاهة.

ولما توفي، رحمه الله، وُجد مرتب خراج القضاء مصرورا في تركته، مكتوبا عليه: «يُرد إلى الجامع» فردّ واشتري به ربع للحُبُس». انتهى، وسيأتي تمامه.

---

[31]- النفزي الأندلسي الصوفي: (ت 792هـ). ترجمته في: الكتيبة: 40-44. النيل: 279-281. الجذوة: 1/315-316. رقم 320. النفح: 5/341-350. السلوة: 2/133-142.

[32]- عالم أديب. (1082هـ) ترجمته في: الصفوة: 168-169. النشر: 2/194-196. الالتقاط: 188. رقم 293. السلوة: 2/223-224. الحياة: 84-85.

[33]- إدريس بن محمد. (ت 1137هـ). ترجمته في: الالتقاط: 331-332. رقم 492. السلوة: 2/ 272-273. مؤرخو الشرفاء: 226. الفهرس: 2/568-569.

[34]- نفس المعلومات في الصفوة: 213.

[35]- النص في: فهرسته: لوحة 78.

[إشارة الصغير الإفراني إليه]

وقال سيدي الصغير الإفراني[36] في صفوة ما انتشر[37]: «إنه كان يقرأ ثلاثين حزبا من باب المحروق[38] إلى فاس الجديد ذهابا، وثلاثين إيابا. وقال: إنه سأله السلطان عن لباس الحرير فقال: خلاف العلماء إنما هو في خيط التسبيح». انتهى.

[استطراد فقهي عن الحرير]

قلت: الذي نص عليه ابن الصلاح في فتاويه، وجزم به "شرح المهذب" هو الجواز، حيث لم يصحبها خيلاء، وإلا حرمت. وانظر هل علة التعظيم قياسا على تحلية المصحف، كتحلية الإجازات عند من قال به، أو كون خيط الحرير يصبر ويطول أكثر من غيره. فعلى الأول، يجوز ما جرت به العادة من الفصل بين الأثاث ونحوها بمجاديل الحرير. وعلى الثاني لا يجوز. وهذا كله في حق الرجال. وأما النساء، فهو من ناحيته لباسهم. قاله العلامة سيدي محمد الرُّهوني[39] في حاشيته[40].

[كراماته]

وذكر الشريف العالم الصوفي، سيدي حمدون بن محمد الطاهري الحسني الجوطي[41] في كتابه المسمى بـ: «تحفة الإخوان، ببعض مناقب شرفاء وزان»[42]، لما ذكر مناقب سيدي محمد

[36]- من كبار مؤرخي المغوب. (ت بعد 1150هـ). ترجمته في: الالتقاط: 438-440. رقم 569. مؤرخو الشرفاء: 89-96. الحياة: 229-236. النبوغ: 288/1. معجم المطبوعات: 20-21. رقم 33.

[37]- الصفوة: 213. بتصرف في اللفظ. والنص في: نفحة المسك: 131.

[38]- هي باب الشريعة من أبواب فاس القديمة.

[39]- محمد بن أحمد الرهوني الوزاني. فقيه مشهور. (ت 1230هـ) ترجمته في: الشجرة: 378/1. رقم 1512. الفكر السامي: 296/2-297. النبوغ: 295/1-296. الحياة: 348-351. معجم المطبوعات: 133-134. رقم 324.

[40]- النص بعده في نفحة المسك: 131-132.

[41]- من أعلام فاس: (1191هـ). ترجمته في: الموسوعة: 133/3. السلوة: 72/2-73. الدرر: 26/2. مؤرخو الشرفاء: 232. معجم المطبوعات: 211. رقم 488.

[42]- تحفة الإخوان: 70-71 (عن عبد الرحمان بن أحمد ابن الحاج).

بن عبد الله الشريف[43] قال:

«سأل رجل هذا القطب سيدي محمد، رضي الله عنه، فقال: يا سيدي: أرني القطب. فقال له: اذهب إلى فاس. وفي ثلث الليل الأخير، اذهب إلى القرويين قبل أن تفتح أبوابها، وقابل الباب التي يغسل الناس فيها أقدامهم. فأول من يدخل منها ويتوضأ منها[44]، ويصلي ركعتين فهو هو. فجاء الرجل، وصنع ما أُمِر به[45]. وجعل يرقب[46] تلك الأبواب[47]. فلما فُتحت، فأول من دخل منها، سيدي أحمد بن الحاج. فتوضأ وصلى ركعتين، فلما فرغ من الصلاة، قصده الرجل، فالتفت إليه سيدي أحمد المذكور، قبل أن يصل إليه ويكلمه، وقال[48] له: والله الذي لا إله إلا هو. إن الذي أرسلك هو القطب. أقسم على ذالك ثلاث مرات.

قال: قلت: وكل منهما صادق فيما أخبر به، فسيدي محمد، نفعنا الله به، فرّ من التعريف بنفسه أدبا من قوله: أنا. وأحال السائل على هذا العالم، ليعرفه به، لكونه عالما عاملا مدرسا. فهو قطب في مجلس علمه وتعليمه، فيصدق عليه اسم القطب لغة.

وسيدي أحمد ابن الحاج، أخبر السائل عن القطب حقيقة وعرفا. وهذه كرامة لسيدي أحمد ابن الحاج [رحمه الله][49]، وأنه من أولياء الله». انتهى.

وكان الشيخ سيدي التاودي ابن سودة[50]، رحمه الله، كثيرا ما يذكر فوق كرسيه، بأن[51]

---

[43]- محمد بن عبد الله الوزاني اليملحي. (ت 1120هـ) عالم صوفي: ترجمته في: النشر: 3/192-195. الالتقاط: 299. رقم 453. الأنيس: 147. الدرر: 2/79-80. تحفة الإخوان: 49-77.

[44]- سقطت من تحفة الإخوان.

[45]- سقطت من تحفة الإخوان.

[46]- تحفة الإخوان: 71: يراقب.

[47]- تحفة الإخوان: 71: الباب.

[48]- تحفة الإخوان: 71: فقال.

[49]- زيادة من تحفة الإخوان لم ترد بالأصل.

[50]- أبو عبد الله، محمد التاودي بن الطالب. من كبار علماء فاس: (ت 1209هـ). ترجمته في: الدرر: 2/ 294-299. السلوة: 1/112-115. النبوغ: 1/293-294. الفكر السامي: 2/294. معجم المطبوعات: 168-170. رقم 399. الشّرب: 213-214. التعريف بالتاودي ابن سودة.

[51]- ميم: وأن.

الشيخ سيدي أحمد ابن الحاج، كان يفسّر فوق هذا الكرسي قوله، تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسولَ اللَّهِ»[52]، وأن الخطاب خاص بالصحابة. وكان العارف بالله سيدي أحمد بن عبد الله مَعْن[53] حاضرا، فقال: يا شيخ. فالتفت. فرأى رسول الله (ص)، حاضرا. وآذن ذلك بأن الخطاب عام. انتهى.

نقله الشيخ أبو الفيض حمدون، رضي الله عنه[54]. وبالجملة، فقد وقع الإطباق من مشايخ عصره، على تبحره في علمي الظاهر والباطن، وأنه الإمام في ذالك على الإطلاق. ولم يتصدر، رضي الله عنه، لتأليف مخصوص كتاب ولاشرح. وإنما كانت تصدر منه أجوبة ما يُسأل عنه، بأفيد من تأليف المؤلفين، فيُبدئُ فيها ويُعيد، وهي كثيرة موجودة. أكثرها في أيدي الناس.

[نماذج من شعره]

وله أنظام علمية، وأشعار أدبية. فمن ذالك قوله محرّضا على الزيارة، في مدح مولانا إدريس الأكبر، إبن عبد الله الكامل[55].

[الطويل]

1) خليليَ ثِقْ بالواحِدِ الأحَدِ الصَّمَدْ فليْسَ سِواهُ في المُهمَّاتِ يُعتَمَدْ[56]

2) وإنْ ضِقْتَ ذَرْعًا بِالذُّنُوبِ وحَملِها وأمْسَيْتَ في هَمٍّ، وأُصْبَحْتَ في نَكَدْ

3) فَزُرْ نَجْلَ سِبْطِ المُصطفى الحسَنِ الَّذي لَهُ السُّؤْدَدُ المخصوصُ عِندَ ذَوي الرُّشَدْ

4) إمَامُ ذَوي العَلْيَاء إدريسُ مَنْ لَهُ سَنَامُ العُلَى والمكرُماتُ بِلا عَدَدْ

[52]- سورة الحجرات: 7.

[53]- أحمد بن محمد بن عبد الله معن الأندلسي الفاسي. (ت 1120هـ). ترجمته في: النشر: 3/182-191. الالتقاط: 300-301. رقم 454. الصفوة: 220-221. السلوة: 2/288-292. الدرر: 2/ 336-337.

[54]- نفحة المسك: 131-132.

[55]- مؤسس الدولة المغربية الإدريسية. (172-177هـ). ترجمته وأخباره في: الأنيس المطرب: 15-25. البيان المغرب: 1/210-211. تاريخ ابن خلدون: 4/16-17. الأعمال: 188-196. الحلة: 1/50-53. الجذوة: 1/160-162. رقم 113.

[56]- القصيدة في: الأزهار العاطرة: 45-46.

5) وليٌّ زكيٌّ هاشِـــمِيٌّ مُـــرَفَّعٌ   فلَيْسَ يَضـيعُ مَن بِجـانِبِـه اسْـتَنَدْ
6) حَـبَـاه إلاهُ الخَلْقِ مَـجْـداً ورُتْبَـةً   تَقَـاعَسَ عَنها كُلُّ مَن قَـامَ أوْ قَـعَـدْ
7) فَـيَـا ابْنَ الرَّسُولِ: زائِرُونَ بِبَـابِكُمْ   أنَاخـوا رِكـابًا، كُلُّهُمْ يَرْتَجِي المَدَدْ
8) فـأنْجِزْ قِـراهُمْ سـيِّدي مِنْ نداكُـمو   فحَاشَا يَخِيبُ مَنْ إلى جُودِكُمْ وَفَدْ
9) إجَـازَةُ وَفْـدٍ [شِـيـمَـة[57]] نَبَـوِيَّةٌ   بِهَـا أمَـرَ المُخْـتَـارُ حَـقّـا بِلا فَنَدْ
10) فَكَمْ مِن كَسيرٍ قَد جَبَرْتُمْ وَمُعْدِمٍ   كَسَوْتُمْ ثِيَابَ الكَسْيِ والعيشَةِ الرَّغَدْ
11) وكـاسِفِ بَالٍ قَـد رَدَدْتُم[58] بَحَبْرَةٍ   وذي عِلَّةٍ أعْـيَتْ فـزَالَتْ إلى الأبَدْ
12) فـيـا ابْنَ الكِرامِ عَطْفَـةً وتَكَرُّمًـا   على فِـئَـةٍ جَـاءَتْ لِتُـصْلِحَ مـا فَـسَـدْ
13) أفيضوا عليهِم[59] من عِنايَتِكَ الَّتي   تَعُـمُّـهُـمُـو، والصَّحْبَ والآلَ والوَلَدْ[60]
14) بِجَـاهِ أبيكُمْ سَـيِّـدِ الخَلْقِ أحْـمَـدٍ   عَلَيْـهِ صَـلاةٌ[61] لا تُحَـدُّ ولا تُعَـدْ

وله أيضا يتشفع به إلى الله، تعالى، أن يمنّ عليه بحجة[62]:

[الكامل]

1) يا ابْنَ الرَّسُولِ الهـاشـمِيِّ الأطْهَـرِ   يا مَلْجَـأً لِلْوالِهِ المُتَـحَـيِّـرِ
2) يا قُطْبَ دائِرَةِ السَّمَـاحَـةِ والنَّدى   والفَـضْلِ والمَجْـدِ الرَّفِـيعِ الأشْـهَـرِ
3) يا سَـيِّـدي، ذُخْـرِي وعِـزِّي عُـدَّتي   إنْ هـالَنـي أمْــرٌ فَـظيـعُ المَنـظَـرِ
4) إني أنَـخْتُ ركــائِبي بِفِـنـائِـكُمْ   فـوَجَـدْتُ بَحْـرَ الجـودِ غَـيـرَ مُكَدَّرِ
5) وقَـصَـدْتُكُمْ مُتَـوَسِّلاً مُتَـشَـفِّـعًـا   بِشَـرِيفِ جَـاهِكُمُ العَلِيِّ الأكْـبَـرِ
6) كَـيـمَـا أفـوزُ بِحَـجَّـةٍ مَـبْـرورَةٍ   قَـرَنْتُ بِهـا أخرى بِغَـيْـرِ تأخُّـرِ

[57]- بياض بالأصل. الأزهار العاطرة: 46. سمته. ولعل الصواب ما أثبتنا.
[58]- في الأصل: رددت. والتصويب من: الأزهار العاطرة: 46.
[59]- في الأصل: عليه. والتصويب من الأزهار العاطرة: 46.
[60]- الأزهار العاطرة: 46: «تسعهم والأصحاب والأهل والولد».
[61]- باء: صلاة الله. ولا يستقيم به الوزن.
[62]- القصيدة في الأزهار العاطرة: 46.

7) وعَهِدتُ، مَهْما زُرتكُمْ في لَيلَةٍ، نَيْلَ[63] النَّجَاحِ مَعَ الصَّبَاحِ الْمُسْفِرِ

8) فامْنُنْ عَلَيَّ بِمُنْيَتِي يا سَيِّداً حَازَ المَفَاخِرَ كَابِراً عن كَابِرِ

فمنَّ الله عليه بذالك، فتوجه إلى الحجاز في حادي عشر ربيع الثاني، عام ثمانية وسبعين وألف (1078/1667).

[من أخباره]

ولما أراد السفر، منعه والده أبو حامد العربي من ذالك، فتحاكما عند شيخ الإسلام، أبي محمد، سيدي عبد القادر الفاسي. وجعل أبوه يبكي ويتضرّع. فقال الشيخ، وقد رفع يديه للفاتحة: قلّب الله قلب أحدكما. فقاما عنه، فما خرجا من الزاوية حتى أطلقه والده طوعا. ثم صار يحذّره عليه أن لا يطلقه السلطان. ثم لقيه السلطان فهمّ أن يحبسه، ثم قلّب الله قلبه فأطلقه. وهذه من كرامات سيدي عبد القادر الفاسي» ذكرها ولده في تحفة الأكابر[64].

وذكر أيضا «أنه لما وادعه للحج، قال له والده بمحضره، يا سيدي: أخاف أن يبقى هنالك مجاورا. فقال له: لاتخف. فعما قريب تراه آتيا سريعا، فبشّرهما بالرجوع، فكان كذالك»[65].

قال لي «وكان دم يعتريه. فأصابه وهو ببلاد الجريد[66]. فشكا ذلك إلى بعض الصالحات هنالك، فذهب عنه. ثم أصابه قليلا بمصر، فعزم أن يداويه على طبيب وجده عند الشيخ إبراهيم المأموني. فذهب قبل التداوي. ثم أصابه بالحجاز، فرأى الشيخ، (أعني سيدي عبد القادر الفاسي)[67]، في المنام، فجعل يقص عليه شكواه وما وقع له، فأصبح وما به شيء. ولم يصبه إلى الآن. ورآها آية عظيمة»[68]. انتهى من تحفة الأكابر.

---

[63]- في الأصل: ليل. والتصويب من الأزهار العاطرة: 46.

[64]- تحفة الأكابر: 258. (ضمن مجموع). عن أبي العباس أحمد ابن الحاج نفسه، بتصرف في النقل.

[65]- تحفة الأكابر: 266-267. بنقل لفظي.

[66]- في الجنوب التونسي.

[67]- زيادة من المؤلف.

[68]- تحفة الأكابر: 267: عظمى.

[أبو سالم العياشي يبعث معه قصيدة في التوسّل]

ولما توجه للحجاز، بعث معه، سيدي أبو سالم العياشي، صاحب الرحلة، هذه الأبيات وأمره بقراءتها تجاه الروضة المشرَّفة:

[الطويل]

1) أيَا خَيْرَ خَلْقِ اللّهِ جِئْتُكَ زائِراً ... فـهَا أنذا بِالبابِ أدعو فَأخْضَعُ

2) وعَبْدُكَ عبْدُ اللّهِ نَجْلُ مُحَمَّدٍ ... أخي وخليلي في جِوَارِكَ يَطْمَعُ

3) وقد عاقَهُ ما عاقَهُ فاسْتَنابني ... لأُبلِغَكُمْ عَنهُ السَّلامَ فَتَسْمَعُ

4) وألْثِمَ عنه التُّرْبَ، تُرْبَكَ، سيِّدي ... وأدعو لَهُ الرَّحْمَانَ ربّي وأضْرَعُ

5) يَدي يدُهُ عِنْدَ الدُّعَاءِ ولِسانُهُ ... لِساني، وقَلْبي قَلبُهُ، حينَ يَخْشَعُ

6) فَيارَبِّ: وَفِّقْني وإيّاهُ واهدِنَا ... بِفَضلك، ربِّي، لِلّذي هُوَ أنْفَعُ

7) ولَسْنَا بِأهْلٍ أنْ يُجَابَ دُعاؤُنا ... ولاكِنَّنَا بِالمُصطفى نَتَشَفَّعُ

8) عَلَيهِ مِنَ الرَّحْمانِ خَيْرُ صَلاتِهِ ... وأزْكَى سلامٍ، عَرفُهُ يَتَضَوَّعُ

قال صاحب الترجمة:

فقرأتُها ولثمتُ عنه الترب، كما أمر. ولما أخبرته بذالك، فرح حتى قال: هات يدك أقبِّلْها.

[نماذج أخرى من شعره]

ومن نظم الشيخ أحمد بن العربي، رضي الله عنه، هذه الأبيات. بعثها من طرابلس لفاس، يبثّ ما به من الأشواق، ويتمنى أن يكون له بعد طول البين التلاق، ويطلب من أهل وداده أن ينوبوا عنه في طلب الدعاء من حضرة شيخه، سيدي عبد القادر الفاسي:

[المتقارب]

1) خَليلي، إنْ جِئتَ فاسًا فَجِئْ ... أحِبَّةَ قلبِي وسُكَانَهُ

2) وصِفْ حالي، وقُلْ إنَّهُ ... فتى ضَعْضَعَ الحُبُّ أركَانَهُ

3) أُكَلِّفُ قَلبِي نِسْيَانَكُمْ ... وتَمْنَعُ نَفْسِي إمْكَانَهُ

4) فَمَنْ لَمْ يَذُقْ بُعْدَ أحبابِهِ ... ولا فارَقَ الدَّهْرَ أوطانَهُ

5) فما جرَعَ الغَصَّات[69] الّتي ... تُقَوِّضُ للصَّبْرِ بُنْيانَهُ

6) فيَا ليْتَ شِعْرِي مَتى نَلْتَقِي ... بِكُمْ فَرِحَ القَلْبِ جَذْلانَهُ؟!

7) ويُضحِي أسيرُ النَّوى قَد نَفَى ... وِصَالُكُمْ عَنْهُ أحزانَهُ

8) أُهَيْلَ وِدادي: إذا كُنتُمْ ... بِمَجلسِ مَن فاقَ أقرانَهُ

9) إمامِ الأئمَّةِ وقُطبِ الوَرى ... بِما خَصَّهُ اللّهُ، سُبْحانَهُ

10) أطالَ الإلاهُ لَنا عُمْرَهُ ... مُعافى، وأعطاهُ رِضوانَهُ:

11) أتَدْعُونَ لي دَعْوَةً أرْتَجِي ... بِها فَضْلَ ربِّي وإحسانَهُ

12) وَيَجْعَلُني سالِمًا حيثُما ... أكونُ، ويَمْنَحُ غُفْرانَهُ

13) فدُمْتُمْ ودامَ اعتكافُكُمو ... على العِلْمِ تَجْنُونَ أفنانَهُ

ومن نظمه أيضا عند زيارته لأبي العباس المرسي:

[الطويل]

1) ولَئِنْ كانَ ذَنْبِي ليْسَ يُحْصَى بِالعدِّ ... وَطَبْعِي عَنِ الخيْرَاتِ في غايَةِ البُعْدِ

2) ونَفْسِي أبَتْ إلاَّ مُتابَعَةَ الهَوَى ... فإنْ دُعِيَتْ لِلْخَيْرِ تُسْرِعْ للضِّدِّ

3) وكَرَّتْ شيوخُ الهَمِّ نحْوِيَ لِلّذي ... رَأَتْ فيَّ مِنْ ضَعْفٍ، ومِنْ قِلَّةِ الجُهْدِ

4) وفاضَتْ جُفُوني، واعْتَرَتْني كَآبَةٌ ... وَشَوْقٌ إلى الأوطانِ والأهْلِ والوُلْدِ

5) فها أنا قَد لُذْتُ بِالحرَمِ الّذي ... لهُ يَلْتَجي العاصِي المُجاوِزُ لِلْحَدِّ

6) وإنْ جاءَهُ المَلْهُوفُ فازَ بِما ارتجَى ... ونالَ المُنَى مِنْ غَيْرِ خوفٍ مِنَ الطَّرْدِ

7) حِمَى الشَّيْخِ، تاجِ الأولياءِ وقُطْبِهِمْ، ... ونُورِهِمُ، غَوْثِ الورى العَلَمِ الفَرْدِ

8) إمامِ ذَوِي العِرْفانِ والمَجْدِ والتُّقَى ... وقُدْوَةِ أهْلِ النُّورِ والفَضْلِ والزُّهْدِ

9) عِمادي أبو العبَّاس ذُخْرِي وملجَايِ ... بِدُنْيا وأُخْرَى، إنْ تَخَوَّفْتُ ما يُرْدِي

10) هَنِيئًا، فُؤادي، أنْ وَصَلْتُ ضَريحَهُ ... ومرَّغْتُ في ذالك الثَّرَى صَفحَةَ الخَدِّ

---

[69]- في الأصل: الغصصات.

11) ضَرِيحٌ به سَلْ ما تَشَاءُ تُجَبْ، وإنْ قَصَدْتَ الهُدَى تولى بِهِ غايَةَ القَصْدِ
12) أيا سيِّدي المُرسيَّ: أنا في حِمَاكَ يا مَلاذي ومَوْلاَيَ: رُحْمَاك بالعَبْدِ
13) حَنَانَكَ يَا مَنْ لا يُخَيِّبُ آمِلاً على بابِهِ حَطَّ الرِّحالَ ليَسْتَجدي
14) فيا عُدَّتي: إنّي مُسيءٌ ومُذْنِبٌ وَلَكِنَّ وُدّي فيكَ مِنْ أعظَمِ الوُدِّ

وقال أيضا في الشيخ أبي يعزى[70]، نفعنا الله به، والتحريض على زيارته، والدعاء لملك وقته:

[البسيط]

1) نِلْتَ المُنَى، وبَلَغْتَ غَايَةَ الأمَلِ يا زائراً لِفَريدِ القَوْلِ والعَمَلِ
2) شَيْخِ الشُّيُوخِ أبي يَعْزَى الَّذي ظَهَرتْ بِهِ الكَرامَاتُ للأسْمَاعِ والمُقَلِ
3) ما إنْ يُرَى مِثْلُهَا كُثْراً ولا عِظَما هذي الأُسُودُ لَهُ انقادَتْ على وَجَلِ
4) فأعْمِلِ اليَعْمُلاتِ في زِيارَتِهِ بِلا تَوانٍ، ولا مَيْلٍ إلى المَلَلِ
5) وَسَلْ بِهِ كُلَّ ما تَرجُو وتَأْمُلُهُ تَنَلْهُ حَقّا، بِعَونِ اللّهِ عَنْ عَجَلِ
6) يا رَبِّ: أعْطِ الأُلى زاروهُ ما طَلَبوا واسلُكْ بنا وبِهِمْ في أحْسَنِ السُّبُلِ
7) واحْفَظْ إمَامَ الورَى قُطبَ الخلافَةِ مَنْ أربَتْ مآثِرُهُ فَخْراً على زُحَلِ
8) يقولُ واصِفُهُ قَولاً بِلا كَذِبٍ: «رأيْتُهُ فرَأَيْتُ النَّاسَ في رَجُلِ»[71]
9) أنِلْهُ، رَبِّ، المُنَى وامنَحْهُ بُغْيَتَهُ وارزُقْهُ عَونًا لدَى حَلٍّ ومُرْتَحَلِ
10) واجْعَلْهُ يَسقِي جُيُوشَ الشِّرْكِ قاطبَةً كأسَ المَنيَّةِ بَيْنَ العَلِّ والنَّهَلِ
11) واجْعَلْ لأجْنادِهِ الأيَّامَ تَخدُمُهُ وجَمْعَهُ سالِماً مِنْ جُمْلَةِ العِلَلِ
12) لا زَالَ وجْهُ الزَّمَانِ ضاحِكًا حَسَنًا يَرفُلُ مِنْ مُلْكِهِ في سُنْدُسِ الحُلَلِ
13) ودَامَ يُسنَدُ مِنْ أخْبَارِهِ أثَرٌ مُسَلسَلٌ، وصَحيحُ النَّقْلِ مِنْهُ جَلي

وقال أيضا في شيخه سيدي عبد القادر الفاسي، حسبما ذالك مذكور في تحفة

[70]- يلنور بن ميمون. من كبار أولياء المغرب. (ت 572هـ). ترجمته في: التشوف: 213-222. رقم 77. أنس الفقير: 15-17. 21. الجذوة: 2/563-564. رقم 657. الإعلام: 1/406-420. رقم 124.

[71]- الشطر مضمن.

الأكابر[72]، لولده سيدي عبد الرحمان[73]:

[الطويل]

1) لَئِنْ ضَاعَ مِنِّي العُمْرُ في غَيْرِ طائِلِ ... وطَاوَعْتُ نَفْسِي في الهوَى والأباطِلِ

2) وأسْرَفْتُ فِي لَهْوِ البِطَالَةِ عادلاً ... عَنِ الرُّشْدِ، لا أَلْوِي إلى عَذْلِ عاذِلِ

3) وتِهْتُ بِبَيْدَاءِ العَمَايَةِ حائراً ... وأمْسَيْتُ عن صُبْحِ المُنَى بمَرَاحِلِ

4) فإنِّي، بِحَمْدِ اللَّهِ، أصْبَحْتُ عِنْدَ مَنْ ... بِنَظْرَتِهِ يُرْقَى لأعْلَى المَنَازِلِ

5) إمَامِ ذَوِي العِرْفَانِ مِنْ غَيْرِ مِرْيَةٍ ... وجَامِعِ أشْتَاتِ العُلَى والفَضَائِلِ

6) ومُحْيِي سَبِيلِ الحَقِّ بَعْدَ دُرُوسِهَا ... وبَحْرِ عُلُومِ الدِّينِ مِنْ غَيْرِ سَاحِلِ

7) وشَمْسٍ بَدَتْ بِالغَرْبِ، دَامَ طُلُوعُهَا ... وبَدْرٍ، بِحَوْلِ اللَّهِ، لَيْسَ بآفِلِ

8) وشَيْخٍ يُرَبِّي السَّالِكِينَ بِحَالِهِ ... وإنْ قَالَ، لَمْ يَتْرُكْ مَقَالاً لِقَائِلِ

9) رَحِيمٍ، لَهُ بِالخَلْقِ شِدَّةُ رَأْفَةٍ ... وَخَفْضُ جَنَاحٍ لِلضِّعَافِ الأرامِلِ

10) يَمِينًا: لَئِنْ كَانَ الأخِيرَ زمانُهُ ... فَإنَّ لَهُ التَّقْدِيمَ بَيْنَ الأوائِلِ

11) هَنِيئًا وبُشْرَى، إخْوَتِي، بِوُجُودِهِ ... فلا رَيْبَ أنَّ لُقْيَاهُ أسنَى الوسائِلِ

12) أمَوْلاَيَ عَبْدَ القَادِرِ العَلَمَ الَّذِي ... على بابِهِ حُطَّتْ رِحَالُ الأفاضِلِ

13) حنَانَيْكَ شَيْخِي سيِّدِي سَنَدِي الَّذي ... إلَيْهِ استِنَادِي في اشتِدادِ النَّوَازِلِ

14) فهذا مَرِيضٌ في يَدَيْكَ عِلاجُهُ ... وتَخْلِيصُهُ مِنْ دَأْبِهِ المُتَطاوِلِ

15) كَسِيرٌ حَقِيرٌ، مالَهُ عُدَّةٌ سِوى ... ودادِكُمُو بالقَلْبِ لَيْسَ بزائِلِ

16) وكَمْ مِثْلُهُ قَدْ فَازَ بِالقُرْبِ مِنْكُمُو ... ونالَ، بِفَضْلٍ مِنْكُمُو، خَيْرَ نائِلِ

17) عُهِدْتَ مُغِيثًا مُغْنِيًا مَنْ أجَرْتَهُ ... فَجِئْتُ إلَيْكُمْ هارِبًا مِنْ غوائِلِ

[72]- تحفة الأكابر: 478-479. (عن الناظم نفسه).

[73]- مؤرخ نسابة. (ت 1096هـ) ترجمته في: الصفوة: 201-202. النشر: 2/325-329. الالتقاط: 230-232. رقم 347. الدرر: 2/269-270. السلوة: 1/314-316. الاستقصا: 7/108. مؤرخو الشرفاء: 187-188. الحياة: 114-121. الفكر السامي: 2/283. العناية: 43-44. معجم المطبوعات: 263-264. رقم 611.

18) وأَلْقَيْتُ رَحْلِي في فِناكُمْ ولَيْسَ لي سِواكُمْ وإنِّي عَنْكُمُو، غَيْرُ راحِلِ
19) أغِثْنِي، أيُّهَا الغَوْثُ، إنَّنِي أسِيرٌ لِنَفْسٍ أولِعَتْ بالرَّذائِلِ
20) فلا زِلْتَ لِلَّهْفَانِ تَشْفِي غَلِيلَهُ ولا زِلْتَ مَأْمُولاً غَيَاثًا لآمِلِ

ومن نظمه أيضا:

[الطويل]

1) أحِنُّ إلَى نَوْحِ الحَمَامِ إذَا غَنَّى وأشْتَاقُ لِلْوَادِي وأصْبُو إلى المَغْنَى
2) ويُعْجِبُنِي مَرُّ النَّسِيمِ لأنَّهُ يُحَدِّثُ عَن نَجْدٍ حَدِيثًا لَهُ مَعْنَى
3) ويُخْبِرُ عَن زُوَّارِ لَيْلَى بِأنَّهُمْ رَأوا عِنْدَ أبْيَاتِ النَّقَى وَجْهَهَا الأسْنَى
4) بِعَيْشِكَ، إنْ جِئْتَ الخِيَامَ فَقِفْ بِهَا وَقُلْ لِمَلِيحِ الخَدِّ: إنِّي بِهِ مُضْنَى
5) وعَرِّضْ بِذِكْرِي عِنْدَهُ فَلَعَلَّهُ يَرِقُّ لِمُشْتَاقٍ إلى رَبْعِهِ حَنَّا
6) متَى بِقُبَا تَقْضِي مُنْيَةَ عاشِقٍ ويُدْفَنُ في سَلْعٍ، وتُمْسِي لَهُ سُكْنَى
7) تَمَلَّكَ قَلْبِي حُبُّ مَن سَكَنَ الحِمَى فَقَلْبِي يَهْوَاهُ، وعَقْلِي بِهِ جُنَّا
8) تَكامَلَ مَعْنَاهُ، فَأصْبَحَ كامِلاً ألا يالَهُ بَدْراً حَوَى الحُسْنَ والحُسْنَى!!
9) عَلَيْكَ صَلاةُ اللهِ ما لاحَ بارِقٌ وما ناحَ طَيْرٌ في الغُصُونِ وما حَنَّا

وقال أيضا في التحذير من الدنيا:

[السريع]

1) يا خَاطِبَ الدُّنْيَا إلى نَفْسِهِ تُنَحَّ عَن خِطْبَتِهَا تَسْلَمِ
2) إن الَّتي تَخْطُبُ غَدَّارَةٌ قَرِيبَةُ العُرْسِ مِنَ المَأتَمِ

وقال أيضا:

[السريع]

1) اَلنَّاسُ لِلْمَوْتِ كَخَيْلِ الطِّرادْ والسَّابِقُ السَّابِقُ مِنْهَا الجَوَادْ
2) واللَّهُ لا يَدعُو إلى دارِهِ إلاَّ مَنِ اسْتَخْلَصَ مِنْ ذا العِبَادْ

وقال يخاطب الشريف الأستاذ، سيّدي عبد الواحد بوعنان[74]:

[الخفيف]

1) سَيِّداً فاقَ في الذَّكاءِ إيَاسا … والسَّخا حاتِمًا، وفي البَأسِ عَمْرَا

2) وسَمَا رُتْبَةً يُقَصِّرُ عنْهَا … قَلَمُ المادِحِينَ نَظْمًا ونَثْرَا

3) أنا مُنْتَظِرٌ لإنجازِ وَعْدٍ … مِنْكَ، تُهْدِي لَنَا بِفَضْلِكَ هِرَّا

4) فَلَقَدْ ضَرَّ خِلَّكَ الفارُ فابْعَثْ … ما تُزِيحُ بِهِ هُمومًا وَضَرَّا

5) تَكُنِ الفَعْلَةَ الجَمِيلَةَ مِنْكُمْ … دُمْتَ في فِعْلِكَ المَفَاخِرَ بَدْرَا

وقال أيضا[75]:

[الرجز]

1) نَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَى أبي البَشَرْ … فِيمَا حَكَاهُ الدَّيْلَمِيُّ اثنَيْ عَشَرْ

2) إدرِيسُ يعقوبُ لِكُلٍّ نَزَلا … أربَعَ مَراتٍ على مَا نُقِلا

3) وَعَشْرَةٌ عيسى. وأيُّوبَ أتَى … ثَلاثَ مراتٍ عَلى ما أُثْبِتَا

4) وَنوحُ خَمْسِينَ وأربَعِينا … على الخَلِيلِ، حَكَى يَقِينا[76]

5) وأربَعًا موسى مِنَ المِئينا … وسَيِّدُ الورى المُفَضلِينا

6) قَد جاءَهُ عِشْرِينَ ألفَ مَرَّةْ … وَخُمْسَهَا. أعظَمَ رَبِّي[77] قَدْرَهْ

7) صَلَّى وسَلَّمَ عَلَيْهِ اللَّهُ … ما حَنَّ مُشْتَاقٌ إلى مَثْوَاهُ

[استطراد صغير]

قلت: نقل القسطلاني في شرح الصحيح، عن ابن عادل، أن جبريل نزل على الخليل اثنتين وأربعين مرة. قال: والعهدة عليه. انتهى. فلو أبدل الشطر الثامن بقوله:

---

[74]- أديب فقيه فاسي. (ت 1106هـ). ترجمته في: النشر: 3/66. الالتقاط: 266-267. رقم 401. السلوة: 1/200-201. الاستقصا: 7/74.

[75]- القطعة في: حاشية المؤلف: 1/84، ما عدا البيت الأخير.

[76]- حاشية المؤلف: 1/84: ثبتا.

[77]- في الأصل: عظم الله. ولا يستقيم به الوزن، والتصويب من الحاشية: 1/84.

1- «واثْنَيْنِ لِلخَلِيلِ قُلْ يَقِينا»

لوافقه.

[في جنان حمدون الأبّار]

وذكر العلامة سيدي العربي بَرْدَلَة[78] قال: أنشدنا صاحبنا سيدي عبد الله العياشي، ونحن مجموعون بجنان شيخنا سَيِّدي حمدون الأبار، المسمى بقَصَبِيَّة:

[البسيط]

1) يا صاحِبِي فَما العُمْرُ بِأجْمَعِهِ، وإنْ تطاوَلَ، مِنْ يَوْمِ السُّرُورِ، بَدَلْ

2) فاغْتَنِمَا اليَوْمَ في بُسْتَانِ قَصْبِيَّةٍ عَشِيَّةً هِيَ لِلْمُشْتَاقِ أقصى أمَلْ

3) ما بيْنَ دَوْحٍ وأزْهَارٍ مُنَمَّقَةٍ وجَدْوَلٍ مِثْلَ دَمْعٍ في الخُدودِ هَمَلْ

4) ومَجْلِسٍ لا تَسَلْ عَنْ حُسْنِ مَنْظَرِهِ والنَّهْرُ مِنْ تَحْتِهِ، إن شِئْتَ[[79]]

قال: فقلت:

1) في فِتْيَةٍ كَبُدُورِ التِّمِّ قَد طَلَعَتْ إذَا رأى حُسْنَهُمْ بَدْرُ السَّمَاءِ أفَلْ

وقال صاحبنا سيّدي أحمد ابن الحاجّ:

[البسيط]

1) وَالوُرْقُ تَشْدو على الأزهارِ راقِصَةً كَأنَّهَا أبْصَرَتْ وَجْهَ الحَبِيبِ وَصَلْ

وقال سيّدي عبد الله:

[البسيط]

1) وَغَنَّتِ الطَّيْرُ، والأغصَانُ مُطْرِقَةٌ وَقَد كَساها أصيلُ اليَوْمِ ثَوْبَ خَجَلْ

2) والنَّهْرُ حَنَّ، كَمَا حَنَّ لِفُرْقَتِكُمْ قَلْبٌ حَلَلْتُمْ بِهِ، يا قَوْمِ، خَيْرَ مَحَلّ

---

[78]- محمد العربي بن أحمد بردلة الأندلسي الفاسي. فقيه عالم (ت 1133هـ) ترجمته في: النشر: 3/247. الالتقاط: 320-321. رقم 480. الدرر: 2/349. الاستقصا: 7/113. السلوة: 3/138-139. الشجرة: 1/332-333. رقم 1305. الفكر السامي: 2/285.

[79]- بياض في الأصل.

فقلت:

[البسيط]

1) فَيــا لَهُ زَمَنًا نِلْنَا السُّرُورَ بِهِ وَغابَ عَنَّا الأسى. لَوْ كانَ فيهِ مَهَلْ

وقال العلامة سيِّدي العربي بردلَّة، مداعبة لسيِّدي عبد الله أعيَّاش[80]:

[مجزوء الرجز]

1) لَنا خَليلٌ لا يَفي بِوَعْدِهِ، إذا وَعَدْ

2) يَرْتاحُ لِلْجَدْوَى إذا كانَ لِوَقْتِها أَمَدْ

3) ثُمَّ إذا اسْتَجَزْتَهُ عِنْدَ حُلولِها جَحَدْ

فأجابه سيدي أحمد ابن الحاجّ، بقوله:

1) اسْتَغْفِرِ اللّهَ ولا تَقُلْ مَقالاً يُنْتَقَدْ

2) فَمَنْ وَصَفْتَ لا يَفِي مِثْلَ وفائِهِ أحَدْ

فأجابه سيدي العربي بقوله:

1) بَلِ اتَّقِ اللَّهَ ولا تَشْهَدْ شَهادَةً تُرَدّ

2) وقُلْ بِما تَعْلَمُهُ فَقَوْلُكَ الحَقُّ أَسَدّ

فأجابه سيِّدي عبد الله بقوله:

1) دَعْوى بِغَيْرِ مُسْتَنَدْ وذاكَ مِنْ شَأنِ الفَنَدْ

2) فَخِلْتَنيهِ يافَتَى إذْ قِسْتَ دونَ مُسْتَنَدْ

3) هذا جَوابي والَّذي تَرَكْتُ مِن قَولي أشَدّ

4) ومَنْ بَدَا أَظْلَمُ والظُّلْمُ أَوْلَى بِالنَّكَدْ

5) فَإِن تَعُدْ عَقْرَبُكُمْ عُدْنَا لَها بِلا عَدَدْ

6) فَعِنْدَكُمْ إذايَةٌ وَعِنْدَنا نَعْلٌ وَيَدْ

7) لَوْ قادَكَ التَّوْفِيقُ كُنْتَ كَأَخِيكَ ذِي الرُّشَدْ

[80]- هو نفسه عبد الله العياشي المذكور قبل قليل.

8) جَنَحَ لِلرُّشْدِ وَمَا قَطُّ إلى هَجْوِي قَصَدْ

9) وَصَفَنِي [اللهُ][81] بِوَصْفِهِ أَكْرَمَهُ اللّهُ الأَحَدْ

10) اِسْتَغْفِرِ اللّهَ لِكَيْ يُصْلِحَ مِنْكَ مَا فَسَدْ

[عبد الله أعياش يستنجزه وعده]

ووعد أبو الفضل، أحمد بن العربي، بالزيارة لصاحبه سيدي عبد الله أعَيّاش، في يوم الثلاثاء فلم يَفِ. فبعث إليه سيدي عبد الله المذكور يوم الأحد ما نصه:

[الوافر]

1) وَعَدْتُمْ يَوْمَ الثُّلاثاء أَنْ تَزُوروا[82] فَطَالَ الأربعاءُ بِالانتِظارِ

2) ولَمْ أَرَ فِي الخَميسِ لَكُمْ رَسولاً ولَمْ يَكُ في العَروبَة مِنْ مَزَارِ

3) ولَيْتَ السَّبْتَ جادَ لَنا بِوَصْلٍ فَقَدْ يسْخو المُبَخَّلُ بالنِّزارِ

4) وَقَد بَلَغَ الجَفاءُ الحدَّ، ما لي عَلى هذا الجَفاءِ مِنِ اصْطِبارِ

5) وكَفِّرْ ذَنْبَ هَجْرِك لي بِوَصْلٍ عَديمِ اثنَيْنِ: بُعْدٍ واقتِصارِ

6) علَيْكَ سلامُ مُقْتَرِبٍ إلَيْكُمْ ومُغْتَرِفٍ ومُغْتَرِبِ الدِّيارِ

[منظومته في الإدغام]

ومن نظم أبي الفضل، أحمد بن العربي ابن الحاج، رحمه الله، هذه الأبيات، نظم فيها كلام المرادي[83] وغيره في باب الإدغام، في شرح قول ابن مالك[84] وفي:

---

[81]- كذا بالأصل. ولا يستقيم الوزن إلا بإسقاط اسم الجلالة.

[82]- لا يستقيم وزن الشطر.

[83]- الحسن بن قاسم. نحوي مصري. (ت 749هـ). ترجمته في: البغية: 1/517. رقم 1070. الغاية: 1/227-228. رقم 1038. الدرة: 1/241-242. رقم 362. الدرر الكامنة: 2/32-33. رقم 1546. طبقات الداودي: 1/142-143. رقم 137.

[84]- جمال الدين، محمد بن عبد الله الطائي الجياني. نحوي أندلسي. (ت 672هـ). ترجمته في: الوافي: 3/359-366. رقم 1439. الغاية: 2/180-181. رقم 3163. البغية: 1/130-137. رقم 224. النفح: 2/222-223.

[الرجز]

1) «جَزْمٍ وشِبْهِ الجَزْمِ تَخْييرٌ قُفي»[85]

[الرجز]

1) إِنْ جُزِمَ الفِعْلُ الَّذي قَدْ شُدِّدَا ... آخِرُهُ كَلاَ تَضُرَّ أَحَدا

2) فَاكْسِرْهُ مُطْلَقًا لِقَوْمٍ وافْتَحَا ... لآخَرِينَ، ثُمَّ إِنَّ الفُصَحَا

3) مِنْ هَؤُلاءِ حَيْثُ يَلْقَى سَاكِنًا ... يَأْتُونَ بِالكَسْرِ: كَسُرٌّ الحَازِنا

4) ثَالِثَةُ اللُّغَاتِ أَنْ يُتْبِعِ مَا ... يَلي، فَإِثْرَ ضَمَّةٍ لَهُ اضْمُمَا

5) وافْتَحْهُ بَعْدَ فَتْحَةٍ أو أَلِفِ ... وبَعْدَ كَسْرَةٍ لَهُ الكَسْرُ يَفِي

6) إلاَّ بِنَحْوِ: مُسُّهُ وفِرُّهُ ... فَالضَّمُّ عِنْدَهُمْ كَلا تُمِرُّهُ

7) ونَحْوُ: رُدُّها وحِبُّها، افْتَحَا ... لِصِلَةٍ وخِفَّةٍ قَدْ وَضَحَا

8) ونَحْوُ: غُضِّ الطَّرْفَ، عَضِّ اللَّحْما ... فَاكْسِرْهُ لِلسَّاكِنِ، وابْغِ العِلْمَا

[استطراد في شرح المنظومة][86]

وحاصل ما أشار إليه، أن العرب على ثلاثة فرق: كاسرون وفاتحون ومتبعون. فالكاسرون يكسرون مطلقا، على أصل التقاء الساكنين نحو: رُدِّ زَيداً ولم يَرُدِّ عَمْرا. قال الشاعر:

[الرجز]

1) قَالَ أبو لَيلى لِحَبْلٍ مُدِّهِ ... حَتَّى إذَا مَدَدْتَهُ فَشُدِّهِ

والفاتحون على قسمين: فصحاء وغير فصحاء، فالفصحاء ينتقلون إلى الكسر، إذا عارضهم ساكن من كلمة أخرى، فيقولون: مُدِّ الحبل، وشُدِّ الرَّحْلَ. وقياس لغتهم الفتح في الجميع. وعليه أيضا يقال: ما لم تَصْفَرِّ الشَّمس. بالكسر.

وغير الفصحاء لايزالون على أصلهم من الفتح مطلقا، فيقولون: ما لم تصفرَّ. بفتح الراء. وعليه قول جرير:

85- شرح ابن عقيل: 2/590.

86- هذا الشرح منقول من الأنيس: 171-172. المهمات: 330.

[الوافر]

1) فَـغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَـيْـرٍ[87] فــلا كَــعْـبًــا بَلَغْتَ ولا كِــلابَا

والمُتبعون يُتبعون الحرف المضعف لحركة الذي قبله، فإن كانت ضمة ضموه، نحو: لم يَرُدُّ ورَدُّوا. وإن كانت فتحة أو ألفا فتحوه، نحو: لم يعضَّ زيد، وعضَّ عمرو، أو قوله تعالى: «لا تُضارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها»[88]. وإن كانت كسرة كسروه. نحو: لم يَفِرِّ وفِرِّ يا عمرو، إلا في ثلاثة مواضع، فإنهم يُتبعون لما قبله: أحدها: إذا اتصل بالفعل ضمير مذكر غائب، فإنهم إنما يتبعون إلى الضمير الذي بعده نحو: لم يردّه وردّه ولا تردّه. وعلى هذا، يمكن أن يكون قوله تعالى: «لا يَمَسُّهُ إلاّ المُطَهَّرونَ»[89] نفيا ونهيا، ويكون في النهي على لغة المُتْبعين.

ثانيها: إذا اتصل بالفعل ضمير مؤنثة غائبة، نحو: رُدَّها ولا تَرُدَّها، فيُفتح المضعَّف اتباعا لحركة الضمير بعده، وإنما فعلوا ذلك في الموضعين لخفة الهاء، فلم يعتدوا بها، فكأن الضمة باشرت واو الصلة، والفتحة باشرت الألف.

ثالثها: إذا لقي آخر الفعل بساكن من كلمة أخرى نحو: رُدِّ القوم، ولم يَرُدِّ القوم، فيرجع المتبع ها هنا إلى الكسر، وعليه يقال: ما لم تَصْفَرِّ الشمس. انتهى.

وفي هذه المسألة حكاية اتُّفقت للراعي[90] مع شيخه ابن سمعة[91]، ذكرها العلامة المحقق سيدي محمد ابن زكري[92]، في شرحه على الفريدة[93]، والشيخ الأديب البارع سيدي محمد بن

[87]- شرح ديوانه: 75/1.

[88]- سورة البقرة: 233.

[89]- سورة الواقعة: 79.

[90]- محمد بن محمد الغرناطي. فقيه نحوي. (ت 853هـ). ترجمته في: النيل: 310. الدرة: 290/2. رقم 816. النفح: 694/2-699. البغية: 233/1. رقم 422. الضوء اللامع: 203/9-204.

[91]- أبو الحسن، علي بن محمد الغرناطي، فقيه نحوي. ترجمته في: النيل: 207.

[92]- محمد بن عبد الرحمان الفاسي. فقيه صوفي نحوي. (ت 1144هـ). ترجمته في: النشر: 338/3-339. الالتقاط: 356-357. رقم 505. الاستقصا: 83/8. السلوة: 158/1-160. النبوغ: 288/1-289. الحياة: 217-219. الموسوعة: 113/1. معجم المطبوعات: 143-144. رقم 337.

[93]- المهمات: 328-329.

الطيب[94]، صاحب الأنيس المطرب، في ترجمة البوعصامي[95]. انظرها إن شئت[96].

[منظومات وأشعار أخرى له]

ومن نظمه أيضا قوله مذيّلا لقول الإمام القصّار:

[الرجز]

1) إنْ وَلِيَ النَّفْيُ فَلِلتَّخْصِيصِ ... أوْلاَ فَقَدْ وَقَرَ على المَنصوصِ

ما نصه:

1) هذا مَقولُ الشَّيخِ عَبدِ القاهِرِ ... لا فَرقَ بينَ مُظْهَرٍ ومُضْمَرِ

2) ولا مُعَرَّفٍ ولا مُنَكَّرِ ... نَفْيًا وإثْبَاتًا بِذالكَ حَري

3) ومَذْهَبُ السَّكَّاكي في المُنَكَّرِ ... الاختِصاصُ حَيثُ لا مَنْعٌ حَري

4) و[قد][97] وُقِّرَ بِمُضْمَرٍ وما عَدا ... ذَيْنِ، فَلِلتَّقوى دائِماً بَدا

ومن نظمه أيضا، مُلغزا في القوس والنُّشَّاب:

[الخفيف]

1) ما عَجوزٌ كبيرةٌ بَلَغَتْ عُمْ ... رًا طَويلا وتَتَّقيها الرِّجالُ؟

2) قَد عَلا جِسمَها اصْفِرارٌ ولم تَشْ ... كُ سَقامًا، ولا عَراها هُزالُ

3) ولَها في البَنينَ سَهْمٌ وقَسْمٌ ... وبَنوها كِبَارُ قَدْرٍ، نِبَالُ

4) وأراهُمْ لَمْ يُشْبِهُوها، فَفي الأمِّ ... اعْوِجاجٌ، وفي البَنينَ اعْتِدالُ

هذا، وقد وجدتُ بخط صاحب الترجمة هذه المقطعات. ولم أدر أهي له أم لا. منها:

---

[94]- العلمي. أديب فاسي كبير. (ت 1135هـ). ترجمته في: النشر: 3/263-264. الالتقاط: 326-327. رقم 486. النبوغ: 1/314-315. الحياة: 177-195. الموسوعة: 2/32. معجم المطبوعات: 243. رقم 562.

[95]- أبو عبد الله محمد. أديب صوفي. ترجمته في الأنيس: 168-192.

[96]- الأنيس: 170-172.

[97]- كذا بالأصل. ويجب إسقاط «قد» ليستقيم الوزن.

[الطويل]

1) عَجِبْتُ لِضَحْكِ المرءِ، والموتُ خَلْفَهُ، ولِلْمُشْتَرِي دُنْيَاهُ بالدينِ أعْجَبُ
2) وَأعْجَبُ مِن هذَيْن مَن باعَ دينَهُ بِدُنيا سِواهُ، فَهْوَ مِنْ ذاكَ أعْجَبُ

ومنها:

[الطويل]

1) إذا كُنتَ صَبَّاراً لِوَقْعِ النَّوائبِ وسَطْوَةِ جَبَّارٍ، وجَفْوَةِ صاحِبِ
2) ودِنْتَ بِمَنْعِ النَّفْسِ عَنْ شَهَواتِها ونَيْلِ هَواها خَوْفَ سوءِ العَواقِبِ
3) فَقَدْ حُزْتَ أشْتَاتَ المكارِمِ كُلِّها وأحْرَزْتَ سَبْقَ الفَضْلِ مِنْ كُلِّ جانِبِ

ومنها:

[الطويل]

1) فَصَاحَةُ سَحْبَانٍ، وخَطُّ ابنِ مُقْلَةٍ وحِكْمَةُ لُقْمَانٍ، وزُهْدُ ابنِ أدْهَمِ
2) إذا اجتَمَعَتْ في المرءِ، والمرءُ مُفْلِسٌ فلَيْسَ يُساوي في الورى نِصْفَ دِرْهَمِ[98]

ومنها[99]:

[الرمل]

1) لِي حَبِيبٌ حُبُّهُ حَشْوُ الحَشَا[100] لَوْ يشاءُ[101] يَمشي على خدِّي مَشَى
2) روحُهُ روحي، وَروحي روحُهُ إنْ يَشَا شِئْتُ، وإنْ شِئْتُ يَشا

ومنها لغات أصبع. جمعت في هذا البيت:

[البسيط]

1) بِتَثْليثِ باءِ أصبعٍ مَعْ شَكْلِ هَمْزَتِهِ(*) مِن غير قيد مع الأُصبوعِ قد كَمُلا

98- هذا البيت غير واضح في ميم.
99- البيتان من قطعة للحلاج. شرح ديوانه: 229.
100- شرح ديوان الحلاج: 229: وسط الحشا.
101- شرح ديوان الحلاج: 229: إن يشاء.
(*)- الشطر ساقط الوزن.

ولغات الفم أربع عشرة، جمعت في هذين البيتين:

[البسيط]

1) بِتَثليثِ فـاءِ فَمٍ مَعْ نَقْصِ آخِرِهِ(*) كَذَاكَ في حالتَيْ قَصْرٍ وَتَضعيفِ

2) والفاءُ تَتْبَعُ ميمًا حينَ تُعْرِبُهُ فَهَذِهِ عَشْرَةٌ مِن غَيرِ تكليفِ

ولغات هيهات ستة وثلاثون. جمعت في هذا البيت:

[البسيط]

1) ثَلِّثْ وصَرِّفْ ولا وابْدَأْ بِهَمْزٍ وها هَيْهَاتَ هيهاتَ هايَهاتَ لَو حُسِبا

ومنها:

[الطويل]

1) أَلَمْ تَرَ أَنَّ المرْءَ طولَ حَياتِهِ مُعَنًّى بِأَمْرٍ لا يَزَالُ يُعالِجُهْ

2) وذاكَ كَدودِ القَزِّ يَنْسِجُ دائِمًا فَيَهْلَكُ غَمًّا وَسْطَ ما هُوَّ ناسِجُهْ

ومنها[102]:

[مجزوء الرمل]

1) قُلتُ قَولاً باخْتِصارِ وهْوَ صِدْقٌ لا مُحالَةْ

2) مَنْ لَهُ في الغَيْبِ شَيءٌ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَنالَهُ

ولنختم كلامه بقوله مضمنا أبياتا للشيخ القصار، يذكر سنده لصحيحي البخاري ومسلم[103]:

[الرجز]

1) يَقولُ أَحْمَدُ الكَثيرُ العَيْبِ الحَمْدُ لِلَّهِ الغَفورِ الذَّنْبِ

2) مُصَلِّيًا عَلَى النَّبِيِّ وآلِهْ وَصَحْبِهِ وجامِعي أَقْوالِهْ

3) رَوَيْتُ عن شيخي الإمامِ الأَمْجَدْ جَمالِ الإسلامِ أبي مُحَمَّدْ

[102]- البيتان في حاشية المؤلف: 153/2.

[103]- المنظومة فيها اضطراب عروضي.

4) وَسِيلَتي لِلَّهِ عبدِ القَادِرِ[104] عَنْ عَمِّهِ الوليِّ ذي المفاخِرِ[105]
5) عَنْ شَيْخِهِ ذِي العِلْمِ والفَضَائِلْ العَلَم القَصَّارِ وَهْوَ القَائِلْ:
6) «رَوَيْتُ عَنْ مُحَمَّدٍ خروفِ عَنِ الطَّويلِ القادِري المَعروفِ
7) عَنِ الحِجَازي شِهَابِ الدِّينِ عَنْ إبن أبي المَجْدِ عَنِ الحجَّارِ عَنْ
8) عَنِ الزَّبِيدي عَنْ أبي الوقْتِ عَنْ [الداوُدي عَنِ السَّرْخَسِي الفَطِنْ][106]
9) عَنِ الفَرَبْري عَنِ البُخَاري وَمُسْلِمًا لِزَكَرِيَاءَ الدَّاري
10) عَنِ الزَّرْكَشي عَنِ البَيَانِ المُسْنِدِ عَنِ العَسَاكِري عَنِ المُؤَيَّدِ
11) عَنِ الفَزاري مُسْنِدِ الوُجُودِ عَنْ عَبْدِ غَافِرٍ عَنِ الجَلودي
12) عَنِ ابنِ سُفْيانَ الوَلي عَنْ مُسْلِمِ أَبْقَاهُ رَبُّنا لِكُلِّ مُسْلِمِ»

وله من رواية سيّدي رضوان[107]:

[الرجز]

1) رَوَيْتُ عَنْ إمامِنا رِضْوانِ عَن سَيِّدي سُقَيْنٍ السُّفْيَاني[108]
2) عَنْ زَكَرِيَاءَ عَنِ ابنِ حَجَرِ عَنِ التَّنوخي عَنِ الحَجَّارِ
3) عَنِ الزبيدي...

إلخ، كذا هو بخط الشيخ أبي الفضل.

104- **عبد القادر الفاسي الفهري.**

105- **العربي بن يوسف الفاسي الفهري.**

106- **بياض في الأصل، ملأناه من النُّزهة:** 131. **والأبيات بعده في النزهة كذالك.**

107- **رضوان بن عبد الله الجنوي. فقيه محدث فاسي (ت 991هـ). ترجمته في: النشر:** 1/89. **الصفوة:** 6-8. **الدرة:** 1/274-275. **رقم** 424. **الجذوة:** 1/197. **رقم** 157. **السلوة:** 2/257-262. **الشجرة:** 1/286. **رقم** 1092. **الفهرس:** 1/434-436. **الفكر السامي:** 2/269-270.

108- **أبو زيد، عبد الرحمان بن علي سقين السفياني. فقيه محدث كبير. (ت** 956**هـ). ترجمته في: الدوحة:** 58. **رقم** 43. **فهرس المنجور:** 10-11. **السلوة:** 2/159-162. **الفهرس** 2/987-988. **الشجرة:** 1/279. **رقم** 1047. **النبوغ:** 1/264. **الفكر السامي:** 2/268.

وبقوله:

[الطويل]

1) إلاهي مَضَى لِلعُمْرِ سَبْعُونَ حِجَّةً جَنَيْتُ بهـا، لَمَّا جَنَيْتُ، الدَّواهيـا

2) وعَـبْـدُكَ قَـدْ أمْـسَى عَلِيلَ ذُنوبِهِ فَجُدْ لِي بِرُحْمَى مِنْكَ تَمْحُو الدَّواهِيا

وبقوله من قصيدة، يستغيث بالمصطفى عند عظم الخطب بفاس من الفتن:

[الطويل]

1) فَـإنّا أتينْا البَـيْتَ مِن بابِهِ فَـقَـدْ رَغِـبْنَا بِمَن نالَ المحـبَّـةَ والوَحْـيَـا

2) وحَلَّيـتَـهُ في الذِّكْرِ إذ قُلتَ مُخْبِرا: «رَؤوفٌ رحيمٌ»، حِلْيَـةٌ فـاقَتِ الحَلْيَا

[نموذج من نثره الفني]

ومن نثـره، رضي اللّه عنه، مـا كـتبـه على الشـرح المسـمى بـ «فـتح الفـتَّـاح، على مـراتع الأرواح» لشهاب الدين، أبي العباس، أحمد بن عبد الحي الحلبي[109]. ونصه:

«الحمد لله الذي اختص من أراد فخامة مقداره، وإدامة مجده وفخاره، بتوفيق لصالح القول والعمل، فسعى فيـما ينيله من رضى الله تعالى غـاية الأمل، وجدّ كلّ الجدّ في أسباب ذالك، وفَرَّح ألجذل، وملأ قلبه اللطيف، بالحب الشريف، غير مصغ لعذل من عذل.

والصـلاة والسـلام على منبع الجود، ومـعدن المحاسن والجـمال، سـيد الوجـود، وقطب دائرة الكمـال، سـيدنا ونبـينا ومـولانا مـحـمـد، إمام المرسلين على التـفـصـيل والإجـمال، وعلى آله وأصحابه الذين نصروه وصدقوه في المقال والفعال. صلاة وسلاما عدد خلق الله، بدوام الله الملك الكبير المتعال.

وبعد، فـإن الشـيخ العـلامـة، الدّرّاكـة، الفـهّـامـة، بديع الزمـان، ومـحـرز قـصـبـات السـبق في المعاني والبيـان، غُـرَّة العصر وفـخر الأوان، حـامـل لواء الفصـاحـة بين الأقـران، صـاحب المدائح

[109]– أديب شـامي وفـد على المغـرب وأقـام بفـاس. (ت 1120هـ) ترجـمـتـه في: النشـر: 3/197-201. الالتـقـاط: 302-303. رقم 456. الأنيس: 6-19. السلوة: 2/164-171. تاريخ تطوان: 3/118-119. الإعـلام 2/332-352. رقم 250. الموسـوعـة: 3/104. السلوة: 2/164-167. مـعـجـم المطبوعات: 88-89. رقم 223.

المصطفوية، التي ملأ صيتها الأغوار والنجود، واستصبت معانيها البديعة، ومبانيها الرفيعة، الركّع السّجود، شهاب الدين، أبا العباس، سيدي أحمد بن عبد الحي الحلبي، بلّغه الله تعالى أمله، وزكّى قوله وعمله، أطلعني على كتابه المسمى «فتح الفتاح، على مراتع الأرواح»، فطالعت منه جملة وافرة، فإذا هو يأخذ بمجامع القلوب، ويشوّق الأرواح السّرّية، والنّفوس الزكيّة، إلى أفضل وسيلة، وأشرف مطلوب. قد حوى من الأنوار اللدنيّة، والأسرار القدسيّة، أوفر نصيب، ورتع من رياض الحقائق والرقائق بمرتع خصيب، وضرب في فنون من العلوم الشريفة بسهم مصيب، وقيّد من فرائد الفوائد، ما نفر وشرد، وجمع من عوارف المعارف، وطرائف اللطائف، ما شذّ وانفرد، وفرّع من هضاب قواعد العقائد، ما عجز عنه الغير وقعد، وكلّ عن التوصل لمراقيه السامية ورقد. فلِلّه من مؤلّف به وجوه أسرار البلاغة مسفرة، وأبكار الأفكار ضاحكة مستبشرة، وأزهار الأنظار مونقة طيبة عطرة، «وكيمياء السعادة» وكنوزها بادية منتشرة، و«شذور الذهب» سالمة غير منكسرة، «وقلائد العقيان» لآليها غير منتشرة، وروائع البدائع في حليها متبخترة، «والجواهر الحسان» كاملة متوفرة، و«الدرر اللوامع» مكبّرة غير مصغرة، والزرابيّ مطروزة محبّرة:

[الكامل]

1) كَـالرَّوْضِ مُـؤْتَلِقٌ بِحُـمْـرَةِ نَوْرِهِ	وَبَيَـاضِ زَهْرَتِهِ وخُـضْـرَةِ عُـشْـبِـهِ
2) وكـأنّهـا، والسَّمْعُ مَـعْـقـودٌ بِهـا،	وَجْـهُ الحَـبِـيبِ بدا لِعينِ مُـحِـبِّـهِ

لا جرم أنه السحر الحلال، بيد أنه لم يَجْنِ قتل المسلم المتحرز. قد شهد شهادة قاطعة أن مؤلفه، الأوحد السابق المبرز، لا يشق له ضليعٌ غبارا، ولا يُشَكُّ أنه لا يُجارى ولا يُبارى، وإن كان الأخيرَ زمانُه، فقد قدّمه على من تقدمه قلمُه ولسانُه:

[الرمل]

1) يا أبا العبـاسِ، يا فَـخْـرَ الأدَبْ	جِئْتَ في ذا العَصْرِ مِنهُ بالعجَبْ
2) حُـزْتَ في العَلْيَـاءِ أسْنَى رُتْبَـةٍ	قَـصُـرَتْ مِنْ دُونِ أدناها الرُّتَبْ
3) يا لَمَـجْـدٍ وَعُلومٍ جَـمَّـةٍ	وبَديعٍ قَـدْ تَبَـدَّتْ مِنْ حَلَبْ!!

فهنيئا لك يا ابن عبد الحي بسداد الرأي، ورشاد السعي، وشرفا لك بذا المقصد المحمود، تنال به بعون الله تعالى، دخول دار الخلود. ومنتهى السول عليه، والحمد لله كما ينبغي لعظمته وجلاله، أولا وآخرا، وباطنا وظاهرا. والصلاة والسلام على سيدنا محمد، مُسكة التام، ولبنة التمام، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته.

قال هذا وكتبه بخط يده، العبد الفقير لمولاه، أحمد بن محمد العربي، شُهِرَ بابن الحاجّ. كان الله له في الدنيا والآخرة، ولوالديه ولجميع المسلمين، بتاريخ ثاني عشر الحجة الحرام، متم اثنين وتسعين وألف (1092-1681).

ومن نثره أيضا، ما كتب به على مطلع «الإشراق، في الأشراف القادمين من العراق»، لتلميذه العلامة الشريف مولاي عبد السلام بن الطيب القادري الحسني[110]:

[[111]]

[من أخباره]

وذكر العلامة الشريف، صاحب النوازل[112]، في بعض مقيداته، أن الشيخ أبا الفضل، أحمد بن العربي ابن الحاجّ، صلّى مع الناس يوما صلاة الاستسقاء، ورجع لداره، وقلبه محزون من أجل عدم المطر. فاتفق أن كان بيده تأليف لابن قُنْفُذ[113] في أخبار الشيخ أبي مدين، ففتحه، فأول ما وقعت عليه عينه، قول الشاعر:

---

[110]- علامة مؤرخ. (ت 1110هـ). ترجمته في: النشر 3/86-115. الالتقاط: 275-280. رقم 418. السلوة: 3/348-350. الدرر: 192-193. الشجرة: 1/328. رقم 1283. مؤرخو الشرفاء: 195-197. الحياة: 142-146.

[111]- بياض في الأصل، قدره صفحة ونصف.

[112]- هو تلميذه أبو الحسن، علي بن عيسى العلمي. فقيه نوازلي من أهل شفشاون. ترجمته في: الدرر: 106. الشجرة: 1/336. رقم 1323. معجم المطبوعات: 242-243. رقم 560.

[113]- أبو العباس، أحمد بن حسن القسنطيني المعروف بابن الخطيب وابن قنفذ. فقيه صوفي مؤرخ. (ت 810 هـ) ترجمته في: الدرة: 1/121-123. رقم 150. الجذوة: 1/154-155. رقم 103. النيل 75-76. الشجرة: 1/250. رقم 903. تعريف الخلف: 1/32-37. النشر: 1/12. الإعلام: 2/224-226. رقم 195.

[الكامل]

1) سَيَكونُ ما هو كائنٌ في وقتِهِ ... وأخو الجَهالةِ مُتْعَبٌ مَحزونُ[114]

2) فلعلَّ ما تَخْشَاهُ لَيْسَ بِكائِنٍ ... ولَعَلَّ ما تَرجوهُ سَوفَ يَكونُ

فشرح الله صدره للتسليم لقضائه.

[تعريف أبي عبد الله محمد ابن زاكور به]

وبعد أن ذكر العلامة الأديب اللغوي، أبو عبد الله، سيدي محمد بن قاسم ابن زاكور، صاحب «النفحات»، في تأليف له جملة من أشياخه، قال ما نصه[115]:

«وأما شيخنا ذو النور الوهّاج، الّذي فاض فيض معارفه وهاج، أبو البركات، سيدي أحمد ابن الحاجّ، لازالت أنواره تُسرج كلّ داج، فهو الّذي أخرجني من الظلمات إلى النّور، وأتحفني بملابس السنا عن حناديس الديجور، وأولاني مقاليد الفنون، وأخبأني أماليد روضه الهتون، وطوّقني قلائد شعره الذي يبرأ المغمور بذكره. وهو ما راجعني بها عن قطعة:

[الطويل]

1) أفائِقَ أرْبَابِ البلاغَةِ في الشِّعْرِ[116] ... [وسَابِقَ فُرْسانِ الفَصَاحَةِ في العَصْرِ]

2) وَمُمْتَطِيًا مِنْ ذَرْوَةِ المَجْدِ رُتْبَةً ... سَمَتْ بِكَ في أُفُقِ المكارِمِ والفَخْرِ

3) فتاهَتْ وباهَتْ، وازْدَهَتْ بِجَمالِها ... وحَيَّتْ بِمِعْطارِ الشَّذَى أرَجَ النَّشْرِ

4) صَبَوْتُ لَها مِنْ بَعْدِ أن شابَ مَفْرِقِي ... وقَدْ زِدْتُ فَوْقَ الأربعِينَ على عَشْرِ

5) ولا بِدْعَ أنَّ الحُسْنَ يأْخُذُ مُهْجَتِي ... وأنَّ الهَوَى العُذْرِيَّ مَلَّكْتُهُ أُمْرِي

6) وَصارَ لِقَلبي لومُها وَعِتابُها ... أَلَذَّ مِنَ الماءِ القَراحِ لِذي حَرٍّ

7) وأقْرَرْتُ أنّي قَدْ بَخَسْتُ حُقُوقَها ... لِتَرضى، وإن كُنتُ البَريءَ بِلا نُكْرِ

8) فَما سمِعَتْ أُذْنايَ عذبَ البُحور تَسْـ ... تَقي، وهْيَ ذاتُ الفَيْضِ، مِن ثَمدٍ مُرٍّ

[114]- البيتان في: أنس الفقير: 67. تحفة الإخوان: 67 (عن فهرسة ابن عتاب). والبيت الأول في: الإيقاظ: 423 (ضمن قطعة).

[115]- النص الآتي من نشر أزاهر البستان: 90-95.

[116]- هنا بياض في الأصل، مقداره نحو نصف صفحة. وقد ملأنا الفراغ من نشر أزاهر البستان: 90-91.

9) عليك أخي منّي أزكى تحـــيَّـــةٍ تكونُ كَعُشْرِ العُشْرِ من واجب الشُّكْرِ

10) ودُمْ في سـرورٍ رافِـلاً ثَوْبَ رِفْـعَـةٍ ودَهْرُكَ طَلْقُ الوَجْـهِ، يَلْقَـاكَ بالبِـشْـرِ

فَبِحُلاه طرَّزت أشعاري، وإليه زففتُ أبكاري، من بنات أفكاري، فمن ذالك ما مدحته به، وأنشد بين يديه، يوم ختمنا مختصر خليل عليه، وذالك في يوم الأحد، عقب صفر، سنة ثلاث وتسعين وألف (1093/1682)، وهو:

[رائيته في مدحه][117]

[الطويل]

1) لِيَ اللّهُ، قَلبي كَمْ يَذُوبُ مِنَ الذِّكْرى وكَمْ كَبِدي تُفْرى، وكَم عَبْرَتي تُذْرَى!

2) حَنيني لِمَنْ قَـدْ شَطَّ عَنّي مَـزارُهُمْ أتاحَ لِيَ الأشْجانَ[118] مِنْ حَيْثُ لا يُدرَى

3) فيـا دارَنا الغرّاَ على الرَّبْوةِ الخَضْرا لدَى الصَّدَفَيْنِ المُشْرِفَيْنِ عَلَى الحَمْرَا

4) سَقَـاكِ رَذاذُ الغَـيْثِ مِنْ بَعْـدِ وَبْلِهِ وَزادكِ إِلْمَامُ الصَّـبا، بَهْجَةً أُخرى

5) وحَـيَّـتْكِ أَنْفَـاسُ الأزاهِرِ مَـوْهِنًا وبَثَّتْ لَكِ الأرواحُ مِنْ طِيبِها نَشْرا[119]

6) ذكَـرْتُ بِمَـغْناكِ الكَرِيمِ مَـعَـاهِداً مُنضَّرَةً، أذكَتْ لَظَى كَبِدي الحَرّاَ[120]

7) ليـالِيَ خِدْنِي كُلُّ يَمْـؤُودٍ أغْـيَـدٍ تَجلَّى عَلَى أطواقِـهِ وجـهُـهُ بَدْرَا

8) يَبِـيتُ يُعَـاطِيني سُـلافَ رَحِـيـقِـهِ فَـأَكْـرِمْ بِهِ بَدْراً، وأَعْظِمْ به خَمْـرَا!!

9) إذِ الدَّهْرُ دَهْرٌ، والزَّمَـانُ مُـسَـاعِـدٌ ونَورُ الصِّبَـا غَضٌّ، سقاهُ الحَيا نُورا

10) وَلِلّهِ لَيْلٌ فـي رُباكَ سَـهِـرْتُهُ عَلى ضِفَّتَيْ نَهْرٍ، بِشَنِّيلَ قَدْ أزْرَى

11) كَساهُ ضِيـاءُ البَدْرِ لأْمَـةَ فِضَّةٍ وفتّ[121] ذُبَالَ الشَّـمْعِ في مَتْنِه تِبْرَا

117- القصيدة في: المنتخب: 42-44. نشر أزاهر البستان: 92-95.

118- في الأصل: أتاني لي الأشجان. وفي المنتخب: 42. أتاح لي الأحزان. والتصويب من: نشر أزاهر البستان: 92.

119- المنتخب: 42: ونثت لك الأرواح من طيها.

120- بياض في الأصل، ملأناه من: نشر أزاهر البستان: 92. المنتخب: 42.

121- في الأصل: وفتت، ولا يستقيم به الوزن. والتصويب من المنتخب: 42.

12) فَشَبَّهْ بِهِ نَهْرَ المَجَرَّةِ حَلَّهُ عُطارِدُ والجوزاءُ والقُطْبُ والشِّعْرَى

13) أدَرْنا عَلَيهِ الرَّاحَ، راحَ مَسَرَّةٍ وقَدْ مَدَّ جَيْشُ اللَّيْلِ ألْوِيَةً سَمْرَا

14) وأرْخَى على ضَوءِ النَّهارِ سُتُورَهُ وباتَتْ نُجومُ الأُفْقِ تَزْجُرُهُ زَجْرَا

15) إلى أنْ بدَا الإصْبَاحُ يَضْرِبُ في الدُّجَى بِنَصْلِ حُسَامِ الفَجْرِ صاحَبَ بِهِ ذُعْرَا[122]

16) وَمَدَّتْ على آثارِهِ، وهْوَ هارِبٌ وقد أفْرَتْ أفْراسُها خَلْفَهُ أفْرا[123]

17) كَأنَّ الدَّرارِيَ الشُّهْبَ في كَبِدِ السَّما قَواريرُ بِلُّورٍ على لُجَّةٍ خَضْرَا

18) كَأنَّ سُهَيْلاً إذْ تألَّقَ مُفْرَداً صَرِيعُ هَوى، قَدْ نالَ مِنْ حُبِّهِ هَجْرَا

19) يُرِيدُ الثُّرَيَّا، والبِعادُ يَعوقُهُ وهَيْهَاتَ: أمَّا الصَّبْرُ عَنها فَلا صَبْرا[124]

20) وقد رَقَّتِ الشِّعْرَى العَبُورُ لِحالِهِ وَحَنَّتْ له كَيْمَا تَشُدُّ لَهُ [أزْرَا][125]

21) وقد عَبَرتْ نَهْرَ المَجَرَّةِ نَحْوَهُ ولَمْ تَسْتَطِعْ عَبْراً شَقيقَتُها الأُخْرى

22) لِذلِكَ ما تَوَلَّى أنينًا[126] وزَفْرَةً[127] وتُرْسِلُ مِن أجفانِها عَبْرَةً عَبْرَى

23) تُرِيدُ أخاها، إذْ أضَرَّ بِهِ النَّوى وَقَد عاقَها العَيُّوقُ عَنْ قَصدِها قَسْرا[128]

24) كَأنَّ ضِياءَ البَدْرِ، والشُّهْبُ حَوْلَهُ، سَنَا شَيْخِنا ابنِ الحاجِ في حَلْقَةِ الإقْرا

25) يَكادُ يَرِيبُ الجاهِلِينَ شُعاعُهُ إذَا لَمَحُوا أنْوارَهُ في الدُّجَى تَتْرا

26) يَقولون جَهْلاً إذْ أضاءَ مَعالِما أبَدْرٌ بَدا، أم بارِقٌ قَد سَرى مَسْرَى؟!

27) بَلى إنَّه نورُ الهُدى لاحَ في الدُّجى دُجى الوَهْمِ فانْزاحَتْ دَياجيرُهُ تُفْرى

28) فَياوَهْمُ، ما أدْجَاكَ في أعْيُنِ الورَى ويا نُورُ، ما أجْلَى سُطُوعَكَ إذ أورى!!

---

[122]- لم يرد البيتان في المنتخب، ولا في نشر أزاهر البستان.

[123]- لم يرد البيتان في المنتخب، ولا في نشر أزاهر البستان.

[124]- بياض بميم ملأناه من باء.

[125]- ما بعده لم يرد في نشر أزاهر البستان.

[126]- في الأصل: إليها. والتصويب من المنتخب: 43.

[127]- بياض في الأصل، ملأناه من المنتخب: 43.

[128]- في الأصل: نسرا. والتصويب من المنتخب. وما بعده وارد في نشر أزاهر البستان.

29) تجلّتْ به حُورُ[129] العلومِ عَرائسًا فَشاهَدَها مَنْ كَانَ لا يُبْصِرُ البَدْرا

30) إمامٌ حَباهُ اللّهُ عِلمًا[130] وسُؤْدَداً وَخَولّهُ عِلْمًا، وأَعْظِمْ بِهِ فَخْرا!!

31) إذا استُصْعِبَتْ غُرُّ المعاني لِمَعْشَرٍ وَقَدْ وَجَموا، قالَتْ طلاقَتُهُ: بُشْرَى

32) ورَوَّضَها حتَّى تَذَلَّلَ صَعْبُها وَخاطَبَها سِراً، فَدانتْ لهُ جَهْرَا

33) هُمامٌ تَرَدَّى بالصِّيانَةِ والتّقَى لَهُ خُلُقٌ زَفَّتْ لَهُ الحَمْدَ والشُّكْرا

34) صَبُورٌ على هَجْرِ الألى ساءَ طَبْعُهُمْ صَفُوحٌ على ذي هَفْوَةٍ أوْجَبَتْ نَغْرا

35) مُصيخٌ لِمَنْ أَبْدَى إلَيهِ مَعاذِراً حَليمٌ على الجُهَّالِ يُبْدي لَهُمْ بِشْرَا

36) تَأبَّى عَنِ الأقْذارِ، لا مُهْتَمٌّ لِما حَوى هِمَمًا ما نالَ أيْسَرَها كِسْرى[131]

37) فلَوْ بُلَغاءُ العَصْرِ عَدُّوا خِصَالَهُ[132] لَما بلغوا مِنْها، ولَوْ كَثُروا، عُشْرا

38) فَأنّى لِمَغْمورِ الحَشَا، وهْوَ واحدٌ يُحيطُ بِها نَظْمًا، وَيودِعُها شعرا؟!!

39) وَهَبْنِي امرأَ القَيْسِ بْنَ حُجْرٍ وخالَهُ، أأَقْدرُ أنْ أُحْصِي الكواكِبَ والقَطْرَا[133]؟

40) بِعَيْشِكَ أنْصِتْ لِي فقَدْ بَرّحَ الجوى بِقَلبي، وأذْكَى الوَجْدُ في كَبِدي جَمْرَا

41) أعِنْدَكَ أنّي قَدْ بُليتُ بِمَعْشَرٍ يُؤْذونَني جَهْراً، ويُؤْذونَني سِراً؟

42) عَلى أنّني لادرٌّ لِلّهِ دَرُّهُمْ، أَبَحْتُهُمْ مِنّي الأضالِعَ والصَّدْرا

43) يَوَدُّونَ إخْفائِي، وهَيْهاتَ إنّما أنا الكوكَبُ الوَهَّاجُ في اللَّيْلَةِ الغَرَا

44) فَلَوْلا سماءُ الحِلْمِ تَهْدي[134] نُجومُها لأوْلَيتُهُمْ مِنْ مِقولي البَطْشَةَ الكُبرى

45) وجنَّدْتُ مِنْ فِكْرِي إلَيْهِمْ كَتائِبًا تَؤُزُّهُمُ أزاً، وتَنْظُرُهُمْ شَزْرا

46) وتُصْميهِمُ، حَيْثُ استَقَلُّوا، سِهامَها فَلا يَجِدونَ، الدَّهْرَ، في حَرْبِها نَصْرا

---

[129]- نشر أزاهر البستان: 94: غيد.

[130]- المنتخب: 43: حلما.

[131]- في الأصل: كبرا. والتصويب من نشر أزاهر البستان: 94.

[132]- نشر أزاهر البستان: 94: راموا خصالها.

[133]- لم يرد هذا البيت في المنتخب. وما بعده ساقط من نشر أزاهر البستان.

[134]- المنتخب: 44: تهوي.

47) ولَكِنْ نَهَـتْنِي[135] هِمَّـةٌ أدَبِيَّـةٌ سَـمَتْ لِلْعُلَى لا ترْتَضِي أبَداً غَـدْرَا

48) فَلا زِلْتَ تَرْقَى في سَمَاءِ مَعارِفٍ وَنورك يَبدُو في غَـياهِبِـها فَـجْـرَا

49) وَمِنِّي سَـلامُ اللَّهِ مَـا لاحَ بارِقٌ عَلَيْكَ، أبا العبَّاسِ، حَمَّلْتُـهُ عِطْرا

50) وَأهْدِي صَلاةَ اللّهِ ما هبَّتِ الصَّبا إلى خـاتَمَةِ الأرسـالِ أعْلَقِـهِمْ خَطْرَا

51) مُـحَـمَّـدٍ أزكَى العـالَمِين وآلِهِ وأصحابِهِ مَنْ أشْبَهُوا أنْجُمًا زُهْرا

52) صَلاةً يَضوعُ الكَونُ مِنْ نَفَحاتِها تُباري شَذَا العِطرَيْنِ دارينَ والشَّحْرا

53) يُظَلِّلُنِي يَوْمَ القِـيَـامَـةِ ظِلُّهَـا وتُلبِسُنِي مِنْ نَسْجِهَا حُلَلاً خَضْرَا[136]

54) وَهاكَ عَروسًا مِنْ بُنَيَّاتِ خاطِري تُطاوِلُ خَوْداً، أُلْبِسَتْ حُلَلاً حَـمْـرَا

55) شَـرِيفَـةَ قَدْرٍ، لَمْ أجِدْ كُفُؤاً لَها سِواكَ، أبا العَبّاسِ، فَاهنأْ بِها بِكْرا

56) رَشوفًا أنوفًا، عَذْبَةَ القَولِ، غادَةً مُعَطَّرَةً، أرجو القَبولَ لَها مَـهْـرا

57) فَـلا تَنْتَـقِـدْها بِالملامِ فَـإنَّنِي أُحَـمِّلُهـا بَيْـتًـا يَكونُ لَها عُـذرا

58) «فإنَّ الَّذي يُهدي إلى مِصْقَعٍ شِعْراً نَظيرُ الذي يُهدي إلى طَيْبَةٍ تَمْرا»[137]

[نونيته في مدحه][138]

ومن ذالك حين ختمنا عليه «الشَّمائل النبوية»، ووافق ذلك يوم المولد النبوي الشريف:

[البسيط]

1) نورُ الهُـدى في ظَلامِ البَيْـنِ هادِينا فَـمـا لَنا ولِتَـزويدِ الهَـوائينا؟!

2) يُحـاوِلُ العَـذْلُ يُسلينا أحِـبَّـتنا لا كـانَ شيءٌ عَنِ الأحبـابِ يُسَلِّينا

3) ناشَـدتُكَ اللّهَ دَعْنَا وصَـبـابَتَنا يا مَنْ غَـدا بِنِبـالِ اللَّوْمِ يُصْـمِـينا

4) إنَّا أخَـذنا عُـهـوداً مِنْ أحِـبَّـتِنا أنْ لا نَـزالَ لأهْلِ اللَّوْمِ قـالِـيـنا

5) أنا أرَقُّ عِـبـادِ اللَّهِ أفْـئِـدَةً فَـلا تَلُمْنا، فَـإنَّ اللَّوْمَ أرْدانا

[135]- المنتخب: 44: أبت لي.

[136]- لم يرد البيت في المنتخب، وبه انتهى ما سقط من نشر أزاهر البستان.

[137]- انتهى ما نقله المؤلف من نشر أزاهر البستان.

[138]- لم ترد القصيدة في المنتخب.

6) ولا تُعاقِبْ على فَرْطِ الضَّنى دَنِفًا | إنَّ الضَّنَى خيرُ أوصافِ المُحِبّينا
7) إنَّا، مَعاشِرَ أهلِ الحُبِّ، أنفُسُنا | تَشْجَى طويلاً بما سُرَّتْ بِهِ حينا
8) نَفسي الفِداءُ، وما يُجدي الفِداءُ، لِمَنْ | شَيَّبَني حُبُّهُمْ في إثْرِ عِشْرينا
9) أهِلَّةٌ، لَوْ رأتْ عَيْناكَ بَهْجَتَهُمْ، | لَصِرْتَ مِنْ وَلَهٍ تَحْكي المَجانينا
10) بالغَتَّ في عَذْلِنا، لَوْ كانَ يَنْفَعُنا | لَكِنَّهُ بالضَّنَى والوَجْدِ يُغْرِينا
11) لا يَنْفَعُ الدَّنِفَ المَفْؤُودَ شَيْءٌ سِوى | شَمائِلِ المُصطفى، وشَمْسِ النَّبيِّينا
12) مُحَمَّدٍ خَيْرِ خَلْقِ اللهِ قاطِبَةً | فَهُنَّ نِعَمٌ مِنَ الأشْجانِ تُبْرِينا
13) جَزَى الإلاهُ أبا عيسى بِأفْضَلِ ما | جزَى الَّذي شادَ تَصْنيفًا وتَدْوِينا
14) أتْحَفَنا بِكِتابٍ قَدْ حَوَى دُرَرًا | جَليلَةً عَنْ نَفيسِ الدُّرِّ تُغْنينا
15) هِيَ «شَمائِلُ» خَيْرِ الرُّسْلِ مَنْ نَطَقَتْ | لَهُ الجَماداتُ إفْصاحًا وتَبْيينا
16) وحَنَّ مِنْ بَيْنِهِ الجِذْعُ وكَلَّمَهُ | ضَبُّ الفَلاةِ بِما غاظَ المُعادينا
17) وفاضَ مِنْ يَدِهِ الماءُ الزُّلالُ وقَدْ | شَكا البَعيرُ إلَيْهِ الكَدَّ تَلْقينا
18) والذِّيبُ أفْصَحَ عَنْ أنْباءِ بَعْثَتِهِ | في قِصَّةٍ تَبْهَرُ الألْبابَ تَعْيينا
19) كَمْ مِنْ فَضائِلَ لا يُحصى تَعَدُّدُها | بَدَتْ لِكَهْفِ الورَى، غَوْثِ المُنادينا
20) صَلَّى عليْهِ إلاهُ العرْشِ ما طَفَقَتْ | وُرْقُ الحَمائِمِ في دَوْحٍ تُناغينا
21) وآلِهِ وَجَميعِ الصَّحْبِ ما قَطَفَتْ | يَدُ الصَّبابَةِ ألْبابَ المُحِبِّينا
22) يارَبِّ بِالمُصْطَفَى الهادي وَشيعَتِهِ | اغْفِرْ لَنا وتَجاوَزْ عَن مَساوينا
23) وَوالِدِنا وأهْلِينا وَشيعَتِنا | إنَّا مَدَدْنا أكُفَّ الذُّلِّ داعينا
24) مُسْتَشْفِعينَ بِجاهِ الخَلْقِ قاطِبَةً | مُنْتَجِعينَ حَيا جَدْواكَ راجينا
25) شَفِّعْ رَسولَكَ فينا يَوْمَ مَحْشَرِنا | عَساهُ مِنْ سُنْدُسِ الفِرْدَوْسِ يَكْسينا
26) وامْدُدْ مَدَى شَيخِنا هذا الهُمامِ الَّذي | أمْسى شَمائِلَ خَيْرِ الرُّسْلِ يُقْرِينا
27) بَدْرُ العُلومِ، وَمِصْبَاحُ الزَّمانِ، أبُو | العبَّاسِ مَن حازَ إبداعًا وتَحسينا
28) شَمْسُ العُلى، أحْمَدُ ابنُ الحاجِ، دَيْدَنُهُ | دَرْسُ العُلومِ، وتَبْكيتُ المُناوينا

29) وَاكْلأهُ مِنْ كُلِّ ما تُخشى عَواقِبُهُ ... ويَرْحَمُ اللّهُ عَبْداً قالَ آمينا

[ميميته في مدحه][139]

[مجزوء الكامل]

1) ثَغْرُ السِّيادَةِ قَدْ تَبَسَّمْ ... عَنْ هَدْيِ قُدْوَتِنا المُعَظَّمْ
2) وبِحَمْدِهِ عَنْ قَصْدِهِ ... طَيْرُ السَّعادَةِ قَدْ تَرَنَّمْ
3) شَمْسُ المفاخِرِ في الأوا ... خِرِ، فيهِ سائِرُ مَنْ تَقَدَّمْ
4) فالحِلْمُ حَشْوُ بُرودِهِ ... والحِلْمُ رائِدُهُ المُقَدَّمْ
5) والدِّينُ والتَّوفيقُ مِنْ ... لَفْظِ الثَّناءِ عَلَيْهِ يُعْلَمْ
6) إذْ مَدْحُ أَعْلامِ الهُدَى ... لِرُقِيٍّ دينِ اللَّهِ سُلَّمْ
7) مَقْفُوُّ أحْمَدَ والهُدى ... خِلأنِ، ذاكَ بِذاكَ مُغْرَمْ
8) أبْنِيَةُ الوَرَعِ الَّتي ... طافَ الرَّشادُ بِها وأحْرَمْ
9) إنَّ السِّيادَةَ أحْرُفٌ ... بِعُلاكَ، يا مَوْلايَ، تُعْجَمْ
10) وَلَدَيْكَ مَدْلُولُ الحَقا ... ئِقِ والدَّقائِقِ[140] حَسْبَ يُفْهَمْ
11) وَسَناكُمْ يَهْدِي إلى ... دُرَرِ المفاخِرِ كَيْفَ تُنْظَمْ
12) فَاسْلَمْ لِتَنْويرِ الزَّما ... نِ، أشْمَسَ بَهْجَتِهِ، لِنَسْلَمْ

[لامية محمد بن عبد السلام بناني في مدحه]

وقال تلميذه شيخ الجماعة، العلامة البركة الصالح، شارح الاكتفاء، سيدي محمد بن عبد السلام بناني، عند ختمه «الرسالة» عليه، أوائل عام أربعة ومئة وألف: (1104/ 1692):

[الخفيف]

1) «ذي المَعالي فَلْيَعْلُونْ مَنْ تَعالى ... هاكَذا هاكَذا وإلاَّ فَلا لا»[141]

---

[139]- القصيدة في: المنتخب: 59-60.

[140]- المنتخب: 59: الرقائق. وهو أفضل.

[141]- البيت مقتبس.

2) شَـــرَفٌ دائِمٌ وعِــزٌ ومَــجْــدٌ وسناءٌ وبَـهْـجَـةٌ تَتَـلالا

3) وَسُـعُـودٌ لِطالِعٍ أُفْقَ العَلْـ يَاءِ مُـزْدَهِيًـا سَنًا وَجَـمـالا

4) سـاطِعٌ نـاصِعٌ زَهِيٌّ بَـهِيٌّ مُـخْـجِلٌ مَنْ بَغَى الكَمـالَ فَنالا

5) لَـنْ يُـوازَى ولَـنْ يُـطاوَلَ قَـدْرًا وعُـلاهُ يُقَلْقِلُ الأَجْـبـالا

6) لا، ولَنْ يُمْتَطى سَنامًا سِوى أَنَّ (م) العُلى سـاوَرَتْ سَناهُ كَـمـالا

7) قُلْ لِمَنْ رامَ شَـأْوَهُ: أَقْـصِـرَنْ عَنْـ كَ الوَنَى، فَـقَـدِ انْتَجَـعْتَ مُـحـالا

8) إِذْ تَيَـمَّـمْتَ مَـتْنَ طَوْدِ العُلى إِمْـ سـاكَ نَجْمٍ مُطَأْطِئٍ شَـمْـلالا

9) وَجَـشَّـمْتَ الرِّهانَ مُـمْـتَطِيًـا ذا تَ خِـداعٍ مُـجـارِيًا فَـجِـبـالا

10) هَيْكَلاً ناهِداً، سَليمَ الشَّظا، عَـدْ لَ الشَّـوى، شَنِجَ النَّسـا، جَـوَّالا

11) أَلِشُهْبِ العُلى، ذَواتِ الهُدَى، مِنْ مُـرْتَقى فَـتَـقْـضِيَ الآمـالا؟

12) أَمْ لِبَـدْرِ الدُّجَى عِنانٌ إِلى الأَرْ ضِ سِـوَى قَـدْحِ زَنْدِهِ فَـيُـوالى؟

13) أَمْ لِشَـمْسِ البَـهَـا مَـعـاهِدُ إِلْفٍ أَمْ غَـريبٌ رأى إِلَيْـهـا مِـثـالا؟

14) أَمْ لِمُـفْـرَدٍ لا نَظيـرَ لَهُ تَثْـ نِيَـةٌ، لا ولا بِجَـمْـعٍ يُوالى؟

15) فـاحْـتَـسِبْ، أَيُّهـا المُقَلِّدُ، أَفْنا نَ الرَّدى، وتَأَوَّدَنْ تِـمْـثـالا

16) فَلَكَمْ ظَلْتَ في تَفَـقُّـدِ أَطْوا دٍ عَلَتْ، ومَـهـامِـهٍ تَضْـلالا

17) وكَمِ ارْتَضْتَ، إِذْ تَسَنَّمْتَ عَلْيَـاءً فَلُذْتَ بِمَـقْـوَدٍ إِذْلالا

18) وهَصَـرْتَ عَلى فُـؤادِكَ أَعْطا فَ الجَـوى، فَـتَـهَـدَّلَتْ إِجْـلالا

19) والمَـعـالي كَـأَنَّهـا خَيسُ أَسا دٍ تَخِـذْنَ أَكْنافَـهـا أَغْـوالا

20) وكَـأَنَّ أَسْـودَها أَنْجُمُ لَيْـ سَتْ تُعـادى، ولا بِحـالٍ تُقـالا

21) سـاوَرَتْكَ الأَمـانُ، إِنْ هِمْتَ مِثْلِي وتَخِـذْتَ الغَـرامَ خِـدْنًا مُـوالى

22) وثَنَيْتَ الزِّمـامَ مُلْتَـحِـفًـا مِنْ مُلْحِـفـاتِ سُكْرِ الهَـوَى سِـرْبالا

23) حَـيْثُ رَوْضُ المُنَى تأَرَّجَ نِسْـرِيـ نُهُ، لَمَّـا اغْـتَـدَى جَـدَى هَطَّالا

24) حَيْثُ فَـيْضُ الغِنَا جَرى دِجْلَةً مِنْ كَـوْثَرٍ مُـتْـرَعٍ مُـدامًـا حَـلالا

25) حَيْثُ نَهْبُ العَنا شَرودٌ، ومَنْزو   رُ الضَّنى ، نازِحُ الوَنى، مِعْطالا
26) حَيْثُ لا تَخْتَشي النَّكادَ ولا تُو   لِي مِنَ الأزْمِ سَوْرَةً أو نَكالا
27) حَيْثُ نَسْرُ السَّنا تطاوَلَ حَتَّى   أخْجَلَ البَدْرَ، وأَلْهى الهِلالا
28) حَيْثُ بَحْرُ النَّوالِ أَصْلَتَ مِنْ أصْ   دافِ جَوْهَرِهِ عُبَابًا زُلالا
29) حَيْثُ بَدْرُ الكمالِ أَزْهى فَأزْهى   مَرْبَعًا قَدْ كَساهُ مِنْهُ جَلالا
30) حَيْثُ شَمْسُ العَوالِ تَرْفُلُ في سُنْ   دُسِ إيراقِها عُلَى وَجَلالا
31) إنْ حَبَاها البَهاءُ، وأدْلَى عَلَيها   ذَيْلَهُ الطَّالِعُ السَّعِيدُ سِدالا
32) وَأثارَ بِغَرْبِها بَهْجَةً قَدْ   طالَما شِيمَ بَرْقُها مُغْتالا
33) إذا دَرَّ عَلَيهِ مِن سُحْبِ آلا   ئِهِ صَيِّبٌ مُزْنُهُ السَّلْسالا
34) وانتَدى لائِحًا بِبَياضِهِ شَمْ   سَ هُدى مُتَهَلِّلاً تَهْلالا
35) خِلتُ لَمَّا أبْصَرْتُ طَلْعَةَ صَرْ   حِ الزَّمانِ قَدِ ارْتَدى أرقالا
36) وتَحَيَّرْتُ بَيْنَ عَيْنٍ وَعَيْنٍ   سامَتِ الغَرْبَ من سَناها حِجالا
37) وَعُبابُ كَمالٍ لآلائِها رَوْ   ضُ فاسِ البَهاءِ، فَراقَتْ أثالا
38) فَبَدا لي أنَّها شَمْسُ أعْلا   مِ الهُدى، لاحَ نورُها فاستَطالا
39) عَنْ سَنًا مِنْ جَنى الجلالِ فَما اغْتا   لَ عِدَى غُرَرِ البَهاءِ حَيثُ صالا
40) مَنْ حَوى حُلَلَ المَعالي وأزْرى   بِبُدُورِ الكَمالِ حَيثُ تلالا
41) مَنْ كَأنَّ سُطوعَ ضَوْءِ مُحَيًّا   هُ بَدَا لِلْعُداةِ سُمًّا ثِمالا
42) مَنْ غَدا مَقْصَدَ الطَّرِيدِ وكَهْفًا   لِلأرامِلِ، مَلْجَأً وثِمالا
43) مَنْ أجَمَّ بِفاسِنا أنْعُمًا فاكْ   تَسَتِ الأرضُ مِنْ سَناها دَلالا
44) مَنْ بِهِ نَصَرَ الإلاهُ طريقَ الرُّ   شْدِ والحَقِّ، فازْدَهَتْ تَتَلالا
45) مَنْ أقامَ بالاستِقامَةِ قاما   تِ التُّقى والهُدى، فَأضْحَتْ مَنالا
46) فَسَما بِجَلالِهِ الَّذي سَما، نا[142]   شِرَ ألْوِيَةٍ عَلَيهِ سِجالا

---

[142]- في الشطر كسر عروضي.

47) وَبِما ذرَّ مِنْ شُموسِ الهُدى عَنْ سِـرٍّ إخمـادِهِ الرَّدَى والضَّلالا

48) وَبِكامِلِ حِلْمِـهِ وَسَنا عَـفْـوِه، عَـمَّ جَـنَـى، ورامَ نِـزالا

49) ما حوى ذو مَكارِمٍ ما حَوى قـ(م)طٌّ ولا نـالَ نَـيْـلَـهُ مَـنْ نـالا

50) قَـدْ تَسَنَّمَ في رِعانِ العُلى حَـ(م)تَّى تَولَّى مَناقِـبًـا وخِـلالا

51) وَتَنَاهى مَـدارُهُ فَـغَـدا قُطْـبَ هُدَى، رائِقًـا سَنًا وَجَـمـالا

52) لم يَشِنْهُ شَيءٌ سِوى أنَّهُ مُدْنِي(م)المُنَى، مُـؤَيِّدُ العَنا والجِـبـالا[143]

53) تَحْسَبُ البَـدْرَ والدَّرارِيَّ في مَـجْـلِسِ إقْـرائِهِ اشْـتَـعَلَ اشْـتِـعـالا

54) أوْ كـأنَّ المَها لَدى شَيْخِنا ابنِ الْـحاجِ، لَيْثِ الشَّرى أرَدْنَ اغْـتِـيالا

55) فَـتَـراهُ لِهـؤُلاء بَشِـيـراً ونَـذيراً لا مُـعِـدًا نبـالا

56) وكَـأيِّنْ تَـراهُ ناشِـرَ جِلْبـابِ الرَّدى عَنْ وَجْـهٍ غَـدا مِـشْكالا

57) فَـتَـوَخَّ حِـمـاهُ وَالزمْ فِناهُ وبِمَـجْـدِ رُباهُ حُطَّ الرِّحـالا

58) فَهُوَ مَنْ يورِدُ الشَّرابَ وَيَغْدو[144](م)النَّفَـحـاتِ، ويُسْـبِغُ الأفْـضـالا

59) وَيَقِي كَـيْـدَ كُلِّ خَطِّـيَّـةٍ مَـسْـمومَـةٍ، ويُبَـدِّدُ الآمـالا

60) قَـدْ أَنَخْنا بِهِ الرِّكـابَ فَـمـا أبْـقى النِّبـالُ بِبـالِنا بَلْبـالا

61) وانْتَجَعْنا جَدْواهُ، فـارفَضَّ في رَوْضِ المُنى وابِلُ الغَنا، سَلْسـالا

62) وأدارَ عَـلـى زُهْـرِ الـرُّبـى مِـنْ سِـرِّ أنوارِهِ كُـؤوسًـا طِلالا

63) وأفـادَ جَـمـيـعَنا مُـخْـجِلَ اليـاقـوتِ مِـمَّـا تَضَـمَّنَتْـهُ الرِّسـالا

64) فانْتَشَى مِنْ نَشَى كَما طَرِبَ المطْـرابُ مِـنْ مُـزَّةِ الغِنا، إذْ تَمالا

65) دامَ في جـبـهَـةِ العُلَى عِـزَّةَ طالِعِ سَـعْـدِ الكَمـالِ جَـمًّا نَوالا

66) وحَوَتْ جَدَثَ الرِّضى القَيْروانِيِّ(م)هَواطِلُ رَحْـمَـةٍ تـتـوالى

67) بِشَـفِـيعِ الوَرى، إمـامِ الوَرى، أنْـصِتْ لِنَظمي، وَسَـدِّدِ الأقْـيـالا

[143]- في البيت كسر وتصحيف.

[144]- كذا بالأصل. ولعل الصواب: يغدق أو يغرف.

68) وَلْتَكُنْ عــاذِرِي، فلَسْتُ زُهَيْـراً أوْ حَـبيـبًـا، أوِ الفَـتى المِفْـضـالا

69) وَهَبْني كَـذا، فَـمَنْ لي بإحْـصـا ئي المكارِمَ والحَـصى والرِّمـالا

70) فَلْتُـفِـدْ وَفْـدَنَا الرِّضى منْكَ حتَّى لا نـرى الوَشْـــزَ والخَنا والوَبـالا

71) ولْتُناد بِسِـرٍّ سِـرُّكَ اللَّـ (م)[145] ـهَ اغْـفِـرَنْ ذَنْبَ مَنْ أَتَى سَـئـالا

72) بِرَسُـولِ الإلاهِ سِـرِّ الصَّـفـا، بَحْـ رِ الوَفـا، رَحْـمَـةِ الإلاهِ، تَعـالى

73) صَلَواتُ الرَّحْـمـانِ تَصْـحَـبُـهُ والْـ ـالَ طُـرًّا، وصَـحْـبَـهُ الأَبْطالا

74) وَعَلى مَـجْـدِكَ السَّنِيِّ، أبا العبَّـا سِ، تَتْـرَى تَحِـتَّـهُ وَتَوالى

75) مـا تَأَوَّدَ غُـصْنُ بانٍ، وَمـا وَرْ قَـاءُ غَنَّتْ، ورَدَّدَتْ أَزْجـالا

76) ما سَعى وَفْدُنا إليْكَ، وما دا [146] مَ يُبينُ العُلى الحِـجـا جَـوَّالا

77) مِنْ كَـثِـيبٍ مُـضَـمَّنٍ قَـوْلَهُمْ «ها ذي المعالي، فَلْيَعْلُوَنْ مَنْ تَعالى»[147]

[رسالة محمد بن أحمد المسناوي إليه]

ووُجد بخط[148] تلميذه، الشيخ الإمام المحقّق، سيّدي محمد بن أحمد المسناوي، زمن إقامته بمراكش، ما نصه:

«الحمد لله. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

أدام الله سيادة شيخنا الإمام، نخبة الأكابر وبقية الأعلام، العلامة الفقيه المطهَّر من دنس العُجْب والتيه، المستمسك بعرى الدين، والسالك سُنن المهتدين، المستضاء بنور علمه في ليل الجهل الداج، سيدنا وسندنا، أبي العباس، أحمد ابن الحاج، أعلى الله قدره، وخلد في الصالحات ذكره، وأنار بتوفيقه سراجه، وعدَّل بشراب حبه مزاجه.

نهدي لسيدنا من السلام ما يليق بقدره العظيم، ونقبل بشفاه الروح أرضا أقلّت بساطه الكريم، وننهي لكريم علمه، أن العبد على ما يُعتاد منه في جانبكم من صفاء المودة، وخلوص

[145]- وزن الشطر ساقط.

[146]- وزن الشطر ساقط.

[147]- هذا الشطر هو عينه مطلع القصيدة.

[148]- باء: وكتب إليه.

الطوية والاعتقاد، وإن شطّ المزار، وعاقت عن القرب الأقدار:

[الوافر]

1) لَئِنْ أَصْبَحْتُ مُرْتَحِلاً بِجِسْمي | فَقَلبي عِنْدَكُمْ أَبَداً مُقيمُ[149]
2) ولَكِنْ لِلعِيانِ لَطيفُ مَعْنى | لِذا سَألَ المُعايَنَةَ الكَليمُ

وكيف لا ؟! وما أنِسنا نار الهدى إلا من طور سيناكم، ولا اقتبسنا جذوةَ الاهتداء إلاّ من سناكم، فلكم علينا الحق الذي نُجلّ عن التضييع عظيمَ قدره، والإحسان الذي نُقرّ بالعجز عن الوفاء بشكره، و«العجز عن الإدراك إدراك». والله يُجازيكم عنا بأجر غير ممنون، ويتولى حفظكم ورعايتكم في كل حركة وسكون. ونحن، والحمد لله، في أحسن حال، وأعز مقام، وأجمل صحبة وأتمّ إكرام، وحظوة تامّة، لدى الخاصة والعامّة، منذ فارقت الديار، وركبت متون الأسفار، مع نعمة صحة البدن، وفراغ البال من سوى الحنين إلى الوطن. ولقد صدق في الخبر من قال:

[المديد]

1) «إنَّ فَقْدَ العِزِّ في الحَضَرِ»

وذاك نتيجة ما اغترفنا من فيض حياضكم، وثمرة ما اقتطفنا من زهر رياضكم:

[الكامل]

1) لَمّا انْتَسَبْتُ إلى حِماكَ تَشَرَّفَتْ | ذاتِي فَصِرْتُ أنا. وإلاّ مَنْ أنا ؟!!

انتهى المقصود منه.

[أخبار أخرى له]

وكانت له الحرمة المكينة عند السلطان وجميع أكابر الدولة. لا يشفع في شيء إلا شفّعوه في الحال. وكان يأتيه الكبراء والرؤساء من شُمِّ الأنوف، على أنفتهم وشدة شوكتهم، فيخضعون بين يديه، وقد يستأذنون فلا يؤذن لهم في الدخول عليه، ويرجعون.

أخبرني الشريف البركة، المُسنّ الخيّر، الديّن الصالح، مولانا أبو محمد، هاشم العراقي

[149]- البيتان في النفح: 82/2. وهما لابن حزم الأندلسي.

الحُسيني، أن الشيخ أبا الفضل، أحمد بن العربي، لما مرض المرض الذي توفي منه، استأذنه [في الدخول عليه][150] أبو علي الروسي[151]، أحد قواد مولانا إسماعيل، لأجل أن يعوده، فلم يأذن له، وقال ما معناه: لا أرى وجه هذا الظالم في آخر يوم من الدنيا.

واستأذنه في الحين شريف عراقي، فقال لأهله: احملوني لملاقاته والفرح به، فحملوه لباب داره، وتلاقى معه، وتشفّع به وبنسبه الطاهر إلى الله، تبارك وتعالى، لأن يَمُنّ عليه بمنيته.

وله، رضي الله عنه، من الكرامات ما لا يُنكر، ولا يُستقصى بالعد ولا يُحصى. وناهيك منها بمثل ما صح عنه أنه كان يحضر في غالب أوقاته الصلوات الخمس بالمسجد الحرام. وتقدم قول شارح الاكتفاء: إن الله قد نفع به كل من قرأ عليه، لِحسن نيته وطويّته.

[تلاميذه]

ومن انتفع به: الشيخ الإمام الشهيد، أبو محمد، عبد السلام بن حمدون جَسّوس[152].

- والشيخ أبو محمد، عبد السلام بن الطيب القادري الحسني.
- والشيخ أبو عبد الله، محمد بن قاسم ابن زاكور، صاحب «النّفحات».
- والشيخ سيّدي الطّيّب بن محمد الفاسي[153].
- والشيخ سيّدي محمد ابن الحاج ابنه[154].
- والشيخ المسناوي. وهو من معتمَدي شيوخه في سائر الفنون المتداولة، حسبما ذكر ذاك في إجازة كتبها سيدي أحمد ابن مبارك[155].

---

[150]- لم ترد هذه الزيادة في ميم.

[151]- أبو علي بن عبد الخالق الروسي. قائد فاس للمولى إسماعيل. (ت 1139هـ). أخباره في: تاريخ الضُّعَيف: 99. 103. الاستقصا: 7/91-98. 114. 122. 134. 138.

[152]- فقيه محدّث صوفي. استشهد في فتنة الحراطين سنة 1121هـ. ترجمته في: النشر: 3/207-208. الالتقاط. 306. رقم 460. الاستقصا: 7/94-96. السلوة: 2/14-15. الشجرة: 1/331. رقم 1297.

[153]- محمد الطيب الفاسي الفهري. علامة مشارك. (ت 1113هـ) ترجمته في: النشر: 3/131-133. الالتقاط: 282-283. رقم 423. الدرر: 2/283. السلوة: 1/318-319. العناية: 46-47.

[154]- ستأتي ترجمته. رقم 35.

[155]- اللمطي السجلماسي. عالم صوفي. (ت 1156هـ) ترجمته في: النشر: 4/40-42. الالتقاط: 393-

- والشيخ أبو العباس، سيدي أحمد الجَرُنْدي[156].

- وشارح الاكتفاء، سيدي محمد بن عبد السلام بَنّاني.

- والشيخ سيّدي محمد ابن زكري. وغيرهم ممن لا يحصى بكلّ أقطار المغرب.

[وفاته]

توفي، رضي الله عنه، مبطونا شهيداً ضحوة يوم الأربعاء، أول ربيع الأول، سنة تسع بالمُثنّاة، ومئة وألف. (1109هـ/1697م)، ودفن في بيت اشتُرِي له، وأُدخل في ضريح سيدي عزيز، بدرب الطويل. وهو الآن مزارة عظمى، من أنفع المزارات في نيل البركات، وظهور الكرامات.

[موقفه من قضية الحراطين]

قال العلامة الشريف، مولاي إدريس المنجَرَة، في ترجمة صاحب الترجمة، عقب ما تقدم:

«ولما خوطب، أي صاحب الترجمة، بالوقوع على ما ابتُلِيَ به هذا القطر المغربي من تمليك الحراطين، تضجَّر من ذالك كثيرا، وقصد ضريح رائحة النبوة، مولانا إدريس بن إدريس بفاس، بين الظهرين أو بعد العصر، الشك مني. وجلس أمام القبر ساعة، وجرت دموعه، ودعا بما شاء الله أن يدعو به. ثم قام ورجع ثلاث مرات يُكِبُّ على القبر في كل منها، ويرجع القهقرى. وبعد الثلاثة، خرج من المسجد، فلم يلبث إلا ثلاثة أيام ولحق بربّه. وعصمه الله سبحانه، مما ابتلي به معاصروه من قتل أو نهب أو فتنة، بعد الوقوع على الضلال. نسأل الله العافية». انتهى.

---

394. رقم 527. السلوة: 3/203-204. الحياة: 237-238.

[156]- أحمد بن علي. فقيه مشارك فاسي. (ت 1125هـ). ترجمته في: النشر: 3/215. الالتقاط: 308-309. رقم 468. السلوة: 2/14-17.

[أخبار أخرى له عن فهرسة بناني]

وقال شارح الاكتفاء، في ترجمته من فهرسته، بعدما أطنب فيها الغاية:

«وكان، رضي الله عنه، كثيرا ما يحكي لنا حكايات الصالحين، ويحدثنا بمسائل الصوفية، ويعظنا جدا في غالب أحواله، وينشدنا من الأبيات الشعرية ما لا يحصى عددا.

وآخر ما أنشدنا، رحمه الله، فيما يشبه الاقتباس، قول القائل:

[الكامل]

1) وَوَعَــدْتَ أَمْسِ بِأَنْ تَزورَ فلمْ تَزُرْ[157] فـغَـدَوْتُ مَـسْلُوبَ الفـؤادِ مُـشَـتَّـتـا

2) لي مُهْجَةٌ في «النَّازِعاتِ» وعَبْرَةٌ[158] في «المُرْسَلاتِ» وفِكْرَةٌ في «هَلْ أَتَى»[159]

وقول بعض تلامذة ابن دقيق العيد:

[المتقارب]

1) مَـجـازَ حَـقـيـقَـتِـهـا فَـاعْـبُـروا ولا تَـغْـــمُـــروا. هَوِّنوها تَـهُـنِ

2) ومـــا حُـــسْنُ بَيْتٍ لَهُ زُخْـــرُفٌ تَـــراهُ، إِذا زُلْــزِلَــتْ، لَــمْ يَــكُــنِ

وقول الآخر[160]:

[مجزوء الكامل]

1) مَـــرِضَ الحَـــبِـــيبُ فَـــعُـــدْتُهُ فَـمَـرِضْتُ مِنْ شَـغَـفِي عَلَيْـهِ[161]

2) قَـــامَ الحَـــبِـــيبُ فَـــزارَني[162] فَـشُـفِـيتُ[163] مِن نَظَري إِلَيْـــهِ

[157]- البيتان لابن الوردي. ديوانه: 456. المسلك: 166.

[158]- ما بين قوسين سورتان من سور القرآن.

[159]- سورة الإنسان: 1.

[160]- البيتان للشافعي. ديوانه: 148. وفي محاضرة الأبرار: 406/1، أنهما لأبي بكر الصديق.

[161]- ديوانه: 148: حذري عليه.

[162]- ديوانه: 148: فأتى الحبيب يعودني.

[163]- ديوانه: 148: فبرئت.

[[164]]

وقد تنافست في شجوه القرائح، وبكاه الغادي والرائح. قال في «الروض الأريض، في بديع التوشيح والقريض»[165]:

[مرثية أبي عبد الله ابن زاكور له]

[البسيط]

1) لَيسَ لَنَا في سِوى ابنِ الحاجِ من حاجِ	شَيْخٌ سَمـا لِلْعُلى بأيِّ مِعْراجِ
2) بِالعِلْمِ والحِلْمِ والإدراكِ في مَهَلٍ	لَمَّا تَعاصى عَلى السُّمَّارِ في الدَّاجي
3) ضاءَتْ معارِفُهُ في غَيْرِ ناحِيَةٍ	كَالبَدْرِ يُبْدي سَنًا في غَيْرِ أبْراجِ
4) بَحْرٌ، وما البَحْرُ إلاَّ مِنْ مُشابِهِهِ	عُمْقٌ بِعُمْقٍ، وأَمْواجٌ بأمْواجِ
5) أَسْتَغْفِرُ اللّه، أيْنَ البَحْرُ مُلْتَطِمًا	مِنْ ذي مَوارِدَ عَذْبٍ غَيْرِ مُهْتاجِ؟!
6) وراكِبُ البَحْرِ لا يَنْفَكُّ مِنْ خَطَرٍ	وبَحْرُهُ مُمْتَطيهِ كُلُّهُ ناجي
7) بَدْرٌ مُنيفٌ، وأَيْنَ البَدْرُ ذا كُلَفٍ	مِنْ كَوكَبٍ في سَماءِ النُّبْلِ وَهَّاجِ؟!
8) نَعَمْ مَآثِرُهُ كَالبَدْرِ مُكْتَمِلاً	نورٌ بِنورٍ، وإدْلاجٌ بِإدْلاجِ
9) نَعَى لَنا موتَهُ مَنْ كانَ أَشْبَهَهُمْ[166]	كَالنُّمَيْري وعَبْدِ الحَقِّ والباجي
10) وَمَن تَقَدَّمَهُمْ مِنْ كُلِّ مُعْتَبَرٍ	كَالفارِسِيِّ وعَمْرٍو وابنِ سِراجِ
11) على ثَراهُ سَلامٌ فائِحٌ عَبِقٌ	ورَحْمَةُ اللّهِ تَغْشَاهُ بِأَفْواجِ
12) وَنَوَّرَ اللّهُ قَبْراً ضَمَّ مِنْهُ سَنى	مِنْهُ اقْتَبَسْنا بِإِبْلاجٍ وإسْراجِ
13) وهِمَمًا تَلِفُ أدناها إلى نَهَلٍ	مِنَ الحِمامِ، وقَدْ عَلَتْ بِأَحْداجِ
14) تَخَلُّصًا مِنْ أذَى ما إنْ يُلائِمُهُ	إلا السُّلوكُ لَهُ في غَيْرِ مِنْهاجِ
15) لَقَى الحِمامَ بِوَجْهِ المُتَّقينَ ولا	لَقِيَ الهَوانَ بِوَجْهٍ غَيْرِ بَهَّاجِ
16) لَهْفي على ما فَقَدْنا مِنْ شَمائِلِهِ	إنَّا فَقَدْنا بِهِ ياقوتَةَ التَّاجِ

[164]- بياض في الأصل. قدره حوالى ثلثي صفحة.

[165]- القصيدة غير واردة فيه. (مخطوط طنجة).

[166]- في الأصل: أشبهم. ولعل الصواب ما أثبتنا.

17) وخِلَعًا كانَ شَخْصُ الدِّينِ يَلْبِسُها … طارَتْ بِها كلُّ أعْصارٍ بأدراجِ
18) وحُلَّةً كانتِ التَّقْوى تُلِمُّ بِها … أَلْغَتْ بِها هوجَ أهوالٍ بِعَجاجِ
19) كانتْ مَنِيَّتُهُ أَحَبَّ مُنْيَتِهِ … فَنالَها نَيْلَ مُحْتاجٍ لِمُحتاجِ
20) إنَّ المنايا أماني الأفضَلينَ إذا … خافوا الدُّنايا على ما كانَ مِنْ حاجِ
21) بِئْسَ الأذِلَّةُ قَوْمٌ ضَلَّ سَعْيُهُمُ … فَرَمَّدُوا ما شَوَوْا مِنْ بَعْدِ إنْضاجِ
22) واسْتَسْلَمُوا للدُّنْيا، وَهْيَ تَقْذَعُهُمْ … مِنْ حُبِّ أولادٍ، أوْ مِنْ حُبِّ أزواجِ
23) وأخْلَدُوا لِلأماني، لا تُخَلِّدُهُمْ … فَأزْعِجُوا لِلمَنايا أيَّ إزعاجِ

وأشار بقوله: «كانت منيَّته» إلخ. إلى ما تقدم عن المنجرة.

[مرثية محمد بن عبد السلام بَنّاني له]

وقال شارح الاكتفاء:

[الطويل]

1) أحِنُّ، وما يُجْدي الحنينُ أوِ الوَجْدُ … وأصبُو، وما تُجْدي الصَّبابَةُ وَالنَّكْدُ؟!
2) وقَدْ هُدَّ طَوْدُ العِلْمِ والحِلْمِ والهُدَى … وَعِقْدُ لآلي الرُّشْدِ نيطَ بِهِ فَقْدُ
3) وَشَمْسُ سماءِ الهُدى قَلَّدَ عَهْدُها … عُهُودَ الخَفا، إذ سامَها حاجِبٌ نَهْدُ
4) وَوارى سَناءَ الأبْهَا وَعَلائِها … على حِينِ مُهْدِي هَدْيِها ضَمَّهُ اللَّحْدُ
5) عَلى حينِ غالَتْهُ المَنِيَّةُ فانطَوى … كما طُوِيَتْ في مشْرَفِيَّتِها الغِمْدُ
6) عَلى حينِ لا عَيْشٌ يَلَذُّ، ولا نَكَدٌ … يَنِدُّ، ولا شَوْقٌ يَصُدُّ، ولا نَقْدُ
7) على حينِ لا قَلْبٌ يُسالِمُهُ هَنا … ولا صَبْرَ إلا أنْ يَحُومَ رَدٌّ
8) ولا جَفْنَ إلا ما [جفَت][167] سِنَةُ الكَرى … وخُدِّدَ بالخَدَّيْنِ مِنْ دَمْعِهِ خَدُّ
9) «وما كنتُ أدري قَبْلَ عَزَّةَ ما البُكا … ولا موجعاتِ القَلْبِ»[168] [كيفَ][169] تَخْدُو
10) فَأيُّ أسى بيْنَ الجَوانِحِ لم يَكَدْ … وأيُّ عَنَا بِالقَلْبِ لَمْ يَعْرُهُ رَقْدُ؟!

167- بياض بالأصل، عوضناه بما ناسب.

168- ما سبق مقتبس من بيت مشهور لكثير عزة تمامه: «حتى تولت». ديوانه: 95.

169- بياض بالأصل عوضناه بما ناسب.

11) وَأَيُّ ضَنَى مَنْ ودَّعوا ونَعَى بِهِمْ نَعْيُ المَنايا لا يُجيبُ لَهُ زَنْدُ؟!

12) وأيُّ هُمُومٍ من ثُنائِي وواحِدٍ فُؤادي لم تَقْتُلْ، وأنَّى لها تَعْدو؟!

13) بَلَى! لَهْفَ نَفْسِي، والمعالي طَما بنا على كَدِّنا من حادثانِ الرَّدَى جَهْدُ

14) كأنَّا على صَرْفِ اللَّيالي هَواجِسٌ تُهادي بِنا سُودَ الخطابِ وتَرْتَدُّ

15) «فَكُنَّا كَنَدْمانَيْ جَذيمَةَ حِقْبَةً من الدَّهْرِ حتَّى قيلَ: ما إن لنا جَدُّ»[170]

16) فلما تعرَّفنا، وطالَ يدُ النَّوى بنا، فكأنَّا لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً نَحْدُو

17) وحَسْبُ المنايا أن تَفُوزَ بِمِثْلِ مَنْ تَجْرِي بِهِ طَوْداً، ولِلَّهِ ما طَوْدُ

18) بِهِ سَمَحَ الدَّهْرُ العَقِيمُ ولَمْ يَكُنْ على مَدِّهِ مِنْ مِثْلِهِ تَقَعُ الوُلْدُ

19) فَكانَ ضِياءَ المُهْتَدينَ ومَلْجأَ الـ (م) ذِينَ لَهُمْ مِنْ هَدْيِهِ مُنْتَصَرٌ رَشْدُ

20) وكانَ مَلاذَ الآملين، رُواءَ مَنْ يُرْجَى لدى مُزْنِ الحَيا مُزَّةً تَغْدُو

21) يَرْوِي جَواداً مِن حَديثٍ وفِقْهِهِ وتَفْسيرِهِ، والغَوْرُ مِنْهُ أوِ النَّجْدُ

22) ويُغْنِي ويُقْنِي مِنْ مَواهِبِ سِرِّهِ وتَوْضيحِ ما يُعنى الفُؤادُ بِهِ لُدُّ

23) فَمَنْ لِلعُلى، مَنْ لِلحُلى، مَنْ عَلَى الوَلا يُقرِّرُ في الأصلَيْنِ، يَتْلُوهُما السَّعْدُ؟

24) ومَنْ لِذُرى عِلْمِ الحَقيقَةِ يَمْتَطي ويَنْقُدُ مِنْ سِرِّ الجَلالَةِ مَنْ يَحْدُو؟

25) غَدا في سبيلِ اللَّهِ عَنْ جوانِحِ الوِها دِ، فَهَلْ يُرْجَى لَهُ أَبَداً عَوْدُ؟

26) «وهَلْ تَجْمَعُ الأيَّامُ يا أُمَّ مالِكٍ بِهِ شَمْلَ مَنْ أَضْنَى على صَبْرِهِ الصَّدُّ»[171]

27) فَلَوْلا وعِيدُ الشَّرْعِ يَنْهى أولي النُّهى لشُقَّ عليهِ مِنْهُمُ الجَيْبُ والخَدُّ

28) ولَولاَ ادِّكارٌ بِالحِمَى، عارِضَ الحُمى لَكانَ إلى عَمْدِ المَنايا لَنا وَخْدُ

29) [[172]] عَلَى فَقْدِ شَمْسٍ لا يُطاقُ لَها بُعْدُ

30) ويَا ساجِعاتِ الأَيْكِ تَبْكِي الهَدِيلَ في أرائكِها، ما إن يَكُنْ لَها وَجْدُ

31) جَديرٌ لَكِ التَّغْريدُ ما دُمْتِ في الوَرى ولَكِنْ بِلا حُلى بِطَوْقِكِ والسُّهْدُ

[170]- البيت مقتبس.

[171]- لعل البيت مقتبس.

[172]- بياض بالأصل.

32) لِفَقْدِ عِمادِ الدّينِ، شَمْسِ ضُحاهُ، مَنْ | لَهُ في العُلَى قُرْبٌ، لَهُ في العُلا بُعْدُ

33) إمامُ الوَرى، سامي الذُّرى، نازِحُ المِرا، | حَميدُ السُّرى، [دامَ[173]] لِعِرْفانِه الوَجْدُ

34) غِيَاثُ البِلادِ، المُحْرِزُ السَّبْقِ في العُلى | وقُطْبُ رَحـاها، بدْرُها العَلَمُ الفَـرْدُ

35) أَبُو السُّؤْدَدِ ابنُ الحاجِ، شَيْخُ الشّيوخِ مَنْ إليـه انتهى التَّدريسُ والحَلُّ والعَـقْدُ

36) بِعِلْمِ ابنِ عـبَّـاسٍ، وحِلْمِ ابنِ أَدْهَمٍ | وزُهْدِ ابنِ عـبَّـادٍ، فَـمـا إنْ لَهُ نِدُّ

37) ثَوَى في ثَرَى رَوْضٍ أريضٍ مُكَلَّلٍ | وغـادَرَنا صَرْعَى لَنا في الجوى رَمْدُ

38) فَـأجْرُ ابنِ عـبْـدِ السَّـلامِ مُـحَـمَّـدٍ | على مَنْ لَدَيْهِ الأجْرُ، لا حَصْرٌ ولا عَدُّ

39) فَمَنْ لِقيادي، مَنْ لِرُشْدي ومِنْحَتِي | مـعـارِفَ لا [[174]] سَـرْداً بَعْـدُ

40) ومَنْ لي بِهُدى، مَنْ لِنُصْحٍ ساذجًا ومَن[175] [[176]] القـضـاءِ مِنْ عَـذْبِـهِ وِرْدُ

41) على أنْ، بِحَمْدِ الله، أنْدَى حُبورَنا | بِنَجْلٍ أريبٍ مـاجِـدٍ، زانَـهُ القَـصْـدُ

42) زَهِيٌّ بَهِيٌّ، عـالِمٌ مُـتَـبَـحِّـرٌ | سَعِيدٌ حميدٌ، لا يُجارى بِهِ سَعْدُ

43) سَـرِيٌّ سَنِيٌّ، عـالِمٌ مُـتَـبَـحِّـرٌ | لَعَـمْرِي. مـا يعدوهُ عَـمْرٌو ولا زَيْدُ

44) أدامَ الإلاهُ مَـجْـدَهُ وَحَـمى بِهِ | حِـمى كُلِّ ذي وُدٍّ. ودامَ بِهِ الرُّشْـدُ

45) وبَوَّأَ فِـرْدَوْسَ الجِنانِ عِـمـادَنا | أباهُ وَحَـيَّى رَوْضَـهُ مـا شَـدا رَنْدُ

35) [أبو عبد الله بن أبي الفضل ابن الحاج السُّلَمِيّ][177]

ومنهم العلامة المحقق، القاضي الأعدل، أبو عبدّ الله، امَحَمَّد (فتحا) ابن الشيخ الإمام أبي الفضل، أحمد بن العربي ابن الحاج السُّلَمِيّ [178].

[173]- بياض بالأصل. عوضناه بما ناسب.

[174]- بياض بالأصل.

[175]- الشطر هكذا هو في الأصل. وهو ساقط الوزن.

[176]- بياض في الأصل.

[177]- باء: القصاد.

[178]- ترجمته في: الشجرة: 332/1. رقم 1302. السلوة: 1/155-156.

[مولده]

ولد، رضي الله عنه، بفاس في حدود النيّف والستين والألف. (1649/1060)، وبها نشأ في حجر والده، وقرأ القرآن وجوّده تجويد أهل الضبط والإتقان. ثم أخذ في العلوم على طريق المشاركة، لا يفوته فنّ إلا تداركه.

[مشيخته]

فأخذ عن جمع عظيم من مشيخة المغرب، كوالده الشيخ أبي الفضل، أحمد بن العربي، وعليه كان اعتماده في علمي الظاهر والباطن.

- والشيخ أبي علي، سَيّدي الحسن اليوسي.
- والشيخ أبي عبد الله، سيّدي محمد بن عبد القادر الفاسي[179].
- والشيخ الشريف، سيّدي محمّد القَسَنْطيني الكَمَّاد[180].
- والشيخ سيدي العربي بَرْدَلّة.

وأدرك من أشياخ والده:

- حمدون المزوار، ولازمه في عدة من علوم الآلات.
- والشيخ أبا محمد سيّدي عبد القادر الفاسي، وقرأ عليه الربع[181] الأخير من «الإحياء» لأبي حامد الغزالي، وعهود الشعراني، ونحو النصف من صحيح البخاري، وشرح المَحَلي على جمع الجوامع، وغير ذالك.

وأجازه، رضي الله عنه، إجازة عامة باللفظ والخطّ، كتب له ذالك في آخر نسخة من فهرسته التي جمعها ولده، سيوطي زمانه، أبو زيد، سيدي عبد الرحمان، عن إذنه، حين ورد استدعاء من الفقيه أبي سالم، سيدي عبد الله العياشي، يطلب فيه الإجازة من الشيخ سيدي

---

[179]- علامة مشارك. (ت 1116هـ). ترجمته في: النشر: 3/151-154. الالتقاط: 292-293. رقم 439. الصفوة: 215-217. السلوة: 1/316-318. الدرر: 2/270-272. الفكر السامي: 2/284. العناية: 48-50.

[180]- علامة مشارك: (ت 1116هـ). ترجمته في: النشر: 3/154-155. الالتقاط: 293. رقم 441. الصفوة: 218-219. السلوة: 2/30-31. الشجرة: 1/320. رقم 1251.

[181]- ميم: ربع.

عبد القادر، له ولجماعة، وذالك بتاريخ آخر ربيع الثاني، عام ثمانية وسبعين وألف (1078/ 1667). وكانت إجازته لصاحب الترجمة أوائل المحرم، عام خمسة وثمانين وألف (1085/ 1674).

[علمه وشخصيته]

كان صاحب الترجمة، رضي الله عنه، علامة حافظا متبحّرا متفنّنا، ماهرا في العربية، متضلّعا بالفقه والحديث، والتفسير والأصلين، والبيان والمنطق والتصوف، منفردا بعلم الحساب والفرائض، بصيرا بالتاريخ وملح النوادر، مع الإقدام في حل المشكلات، وفهم المعضلات، وحسن التعبير في الإلقاء، والجمع بين البراعة والتحقيق في التدريس، والتأليف والإفتاء. يتصرف في ذلك كله تصرف أهل الطريقة المثلى، مع سلامة القريحة، ونزاهة السّاحة، والاجتهاد وكمال الاعتناء، مطالعة ومباحثة وتقييدا، منتهجا طريقة الفقراء، من العزلة والصبر والزهد، والورع والتهجد، والصيام والقيام.

[وظائفه]

وبعد وفاة والده، تولى ما كان بيده من الوظائف الشرعية، كتدريس فقه مدرسة الخَصَّة، ومدرسة العطّارين، وتدريس صحيح البخاريّ بالكرسي الذي بظهر خَصَّة العين، من جامع القرويين، والقضاء والإمامة والخطابة بفاس العليا. وكان ذلك على عهد أبي الظفر، مولانا إسماعيل. فأقام[182] بذلك كله أحسن قيام، على سائر مر الليالي والأيام.

[تآليفه]

له شرح على فرائض ابن عرفة، أظهر فيه ما كان خَفِيًّا وعرّفه، وأجاد فيه بما يدل على سعة علمه، وكمال عنايته.

---

[182]- كذا بالأصل. ولعل الصواب: فقام.

[نموذج من نظمه]

ومن نظمه ليكتب على ضريح شيخه، سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي:

[البسيط]

1) هَذي رياضُ الخُلْدِ مـــا نَـظَرَت[183]	عَـيْنٌ، ولا سَـمِـعَتْ أُذْنٌ ولا خَـطَرَتْ
2) هَذي مظَاهِرُ سِـرِّ اللّهِ مُـشْـرِقَـةٌ	في حَضْرَةِ ابنِ النَّبيِّ الرَّسولِ قَدْ بَهرَتْ
3) وفـاةُ سَـيِّـدِنا، إنْ رُمْتَ مَـعْـرِفَـةً،	فَـفي زكيٍّ سَـمـا أسـمـائِهِم ظَهَـرتْ
4) مُـحَـمَّـدِ بْنِ عُـبَـيْـدِ القـادِرِ بْنِ عَلِيِّ	لِيـوسُفِ الحُسْنِ أعْـراقٌ بِهِ اشْـتُـهِرَتْ

[تعريف محمد بن قاسم جسوس به]

ولما عرّف العلاّمة الـمُجمع على صلاحه، شيخ الجماعة، سيّدي محمد بن قاسم جَسّوس[184]، بقريبه العلاّمة الأديب، سيّدي عبد الله[185]، ابن الشيخ الشّهيد أبي محمد، عبد السّلام جَسّوس، وعدّ جماعة من أشياخه، قال ما نصُّه:

«ومنهم الفقيه النُّبيه، الحيسوبيّ الفَرَضي، القاضي العدل النّزيه، خطيب الحفل، الجامع بين إمامة الفرض والنّفل، ذو الفوائد الحسنة، والآداب المرونقة المزيَّنة، سيّدي أبو عبد الله، محمّد، ابن الإمام الشهير، الناسك الخاشع، المدرّس العارف بصناعة التّقرير، القاضي العدل، سيدي أبي العبّاس ابن الحاج. فقد استفاد منه في آخر أمده، ولازمه وأخذ عنه من علم الحساب وغيره. وقد كتب هذا الشيخ يتشوق أولاده أيام غيبته عنهم، وألمّ بالتّشفّي من بعض الظلمة المجترئين على أهل العلم والدين، لما قُتِل شرّ قتلة، بعد أنواع من العذاب، مخبرا صاحب الترجمة بذالك بما نصه:

---

[183]- في الأصل: ظهرت. ولعل الصواب ما أثبتنا.

[184]- علامة مشارك. (ت 1182هـ). ترجمته في: النشر: 4/188-192. السلوة: 1/330-331. الشجرة: 1/355. رقم 1421. الفكر السامي: 2/291. معجم المطبوعات: 75-76. رقم 190.

[185]- أديب شاعر (ت 1136هـ). ترجمته في: النشر: 3/280. الالتقاط: 330. رقم 490. السلوة: 2/ 15.

[ميمية الشيخ عبد الله جسوس]

[الوافر]

1) عَلَى الأفلاذِ من كَبِدي سَلامي إلى الأفْوادِ مِنْ وَلَدي كَلامي
2) إذَا يَوْمًا تَصابى الشَّيخُ إنّي تَجَدَّدَ كُلَّ يَومٍ لي غَرامِي
3) عَلَى الزُّهْرِ الكواكِبِ ثاقِباتٍ وشَمْسِ الأرْضِ مَعْ بَدْرِ التَّمامِ
4) مَطالِعُها بِفاسٍ مُشْرِقاتٌ لِذا «حَجَّامَةُ» الغَرَا هُيامي
5) مَراسِمُ لا أزَالُ، الدَّهْرَ، أقضي وأزْفِرُ لَوْعَةً حتَّى الحِمامِ
6) وخُصُّوا، مَعْشَرَ الأحْبابِ، فَذًا بَديعَ زَمَانِهِ، نَجْلَ الإمامِ
7) بِأخْذِ الثَّأرِ مِنْ خِبٍّ ذَمِيمٍ ويَشُّرْ بالجَحِيمِ مَعَ اللِّئامِ
8) شَفَا واسْتَشْفِ يا حِبِّي وزِدْنِي بَشائِرَ فجاةَ الموتَى الرِّجامِ[186]
9) فلا زالتْ كُؤوسًا مُفْزِعاتٍ لَهُمْ في كلِّ آنٍ بازدِحامِ

فراجعه [سيدي أبو عبد الله[187]]، صاحب الترجمة، بما نصه:

[ميمية أبي عبد الله، امحمد بن أحمد ابن الحاج، في مراجعة الشيخ عبد الله جسوس]

[الوافر]

1) نَضَتْ عن حُسْنِها سُجُفَ اللِّثَامِ فَمَزَّقَ نورُها حُجُبَ الظَّلامِ
2) وأحْيَتْ بِالسَّلامِ غَداةَ حَيَّتْ تَفوقُ بِعَرْفِها مِسْكَ الخِتامِ
3) تلاقَتْ شَيِّقًا عَنها سَؤولاً لِتُطْفِئَ ما يُقاسي مِنْ أوامِ
4) عَروبٌ تَبْهَرُ الأعرابَ حُسنًا إذَا نُسِبَتْ إلى الشَّيخِ الهُمامِ
5) خَليفَةَ والدي تَفْديكَ نَفسي بِما أحْرَزْتَ مِنْ رَعْيِ الذِّمامِ
6) شَفَيْتُمْ[188] بِالتَّشَفِّي مِنْ ظَلومٍ عَدا طَوْرًا، فَعادَ إلى انعِدامِ
7) وَمَهْما الشَّيْءُ يَوْمًا قَدْ تَناهى لِغايَتِهِ، فَأبْشِرْ بِالتَّمامِ

[186]- البيت لا يستقيم وزنه ولا معناه.

[187]- زيادة من باء.

[188]- باء: كتبتم.

8) تمادى في الضّلالِ وما درى أنْ لهُ الأقدارُ رائشةُ السِّهامِ

9) هيَ الأيامُ تُدرِكُ كُلَّ ثأرٍ فلا تأسَفْ على فوتِ انتقامِ

10) تلوّنُ مثلَ حرباءٍ سريعًا وتُمهِلُ ثُمَّ تُعقِبُ بالقِيامِ

11) إذا ابْتَسَمَتْ إلى الإنسانِ يومًا فلا تُغَرَّ منها بابْتِسامِ

12) تُذيقُ بَني الرِّياسَةِ عذْبَ ذَرٍّ وتَسْقيهِمْ عَذابًا في انْفِطامِ

13) وتَبْسُطُ وجْهَها لهُمْ وتَسْطُو سَطاءَ اللَّيْثِ أخْذاً بانتقامِ

14) وتَرْمي بالخُطوبِ، ولَيْسَ تُرمى وإنْ وَصَلَتْ، تعودُ إلى انصِرامِ

15) فَهَدَّتْ، يا سَلامُ، السِّرَّ منْهُ وجُرِّعَ بعْدَها كأسَ الحِمامِ

16) وكانَ لِذا المَليكِ رئيسَ قومٍ فأصْبحَ نَهْبَ ذيبٍ أوْ رَخامِ

17) وأمْسَى مُلْكُهُ خَبَراً مُعاداً فَسُبْحانَ المليكِ على الدَّوامِ

18) قَلَتْهُ فَقَلَبَتْ منْهُ مِجَنًّا وكَمْ قالَتْ إذا قالَتْ حَذامِ

19) وألْوَتْ وَجْهَها عَنْهُ وَوَلَّتْ وكانَتْ قَبْلَ ذالِكَ كالغُلامِ

20) ولَمْ تُفِدِ التَّمائِمُ منْ سُحورٍ وقَدْ قَضَتِ المَقادِرُ بالتَّمامِ

21) وعَفَّرَتِ التُّرابَ بوجْنَتَيْهِ وكَمْ أنِفَ المسيرَ على الرُّخامِ

22) وألْهَمَتِ الأميرَ وسَلْطَتَهُ وكَمْ خَدَمَتْهُ بالجَيْشِ اللُّهامِ

23) وأشْمَتَتِ العِداةَ غَداةَ شامتْ لهُ في السِّجْنِ بارِقَةَ الحُسامِ

24) وأرْدَتْ صِنْوَهُ تَبَعًا فَأرْضَتْ ورَضَّتْ بَعْدُ للرَّهْطِ اللِّئامِ

25) وَسَقَّتْ منْ دِمائِهِمُ بَسيطًا وكَمْ أسْقَتْهُمُ كأسَ المُدامِ

26) دَمُ الأخَوَيْنِ داوى جُرْحَ قَلْبي وأبْرا ما أكابِدُ منْ سَقامِ

27) فلا شَخْصٌ، ترى، يَبكي عَلَيْهِمْ سِوى إبْليسَ أنْشَدَ منْ كَلامِ

28) «ومَاذا بالقَليبِ قَليبِ بَدْرٍ[189] منَ القَيْناتِ والشَّرْبِ الكِرامِ؟!»

[189]- البيتان مقتبسان من قصيدة لشداد بن الأسود، يرثي بها قتلى المشركين يوم بدر. والبيت الثاني هو مطلع القصيدة. سيرة ابن هشام: 3-4/29.

29) تُحَـيِّي بِالسَّـلامَـةِ أُمُّ بَكْرٍ وهَلْ لي، بَعْدَ قَومِي مِنْ سَلامٍ»؟!

30) شَفَى الغازي غليلاً في فُؤادي وعالَجَ ما أعاني مِنْ ضِرامِ

31) ولَسْتُ بِذاكَ مُخْتَصًّا ولكِنْ أنا أوْلَى بِما آذَى إمامي

32) تَوَلَّى كِبْرَهُ فيهِ فَوافَى بِها دَهْيَاءَ قَدْ أوْهَتْ عِظامي

33) وأبْقَى نارَها في القَلْبِ تَذْكُو فَوالَهْفاهُ مِنْ فَرْطِ اغْتِمامِ

34) مُصابٌ فَتَّتَ الأعْضاءَ وأجْرَى لِشِدَّةِ وَقْعِهِ عَيْنَ الجَهامِ

35) وأعْظَمُ ما عَلَى الإنسانِ فيها إذا ما الغَمْرُ أوْقَعَ بِالعِظامِ

36) نَسيمَ الرَّوْضِ عرِّجْ نَحْوَ قَبْرٍ وخُصَّ اللَّحْدَ عَنِّي بِالسَّلامِ

37) وَجُرَّ الذَّيْلَ فوقَ ضَريحِ شَيْخِي وبُثَّ الطِّيبَ في ذاكَ الرَّغامِ

38) وقُلْ: يا أيُّها المرحُومُ تَدْرِي بِأنَّ اللَّهَ أوْقَع بِالحَرامي؟!

39) وفَضَّ اللَّهُ ثَغْراً كانَ يُؤْذِي جَنابَكَ بِالسِّعايَةِ لِلإمامِ

40) فَلا غَفَرَ الإلاهُ لَهُ ذُنُوبًا وَلا أدْناهُ مِنْ دارِ السَّلامِ

41) وأُنهي لِلسِّيادَةِ والمَعالي سَلامًا فائِقًا زَهْرَ الأكْمامِ

42) وأطْلُبُ مِنْ مَثابَتِكُمْ تُؤَدِّي إلى مَيَّارَةَ الأسْمَى سَلامي

43) وَنَرْجُو اللَّهَ مَوْلانا لِيُسْنِي إيابَكُما فَنَبْلُغَ بِالمَرامِ»

انتهى ما ذكره الشيخ سيدي محمد بن قاسم جَسّوس. وقوله: «دم الأخوين» إلخ، أصله للوزير ابن الخطيب، وَضَمَّنَه مع تغيير قافيته، وهي تورية بديعة.

وفي بعض مقيداتي أن هذه القصيدة، قالها صاحب الترجمة، حين قتل السلطان مولانا إسماعيل، كاتبه الرئيس الخياط ابن منصور، وأخاه عبد الرحمان[190]، وكانا معا يؤذيان والد المكتوب له أشد الإذاية.

---

[190]- قتلا بمدينة مكناس سنة 1125 هـ. أخبارهما في: تاريخ الضعيف: 92. الاستقصا: 96/7.

وكان صاحب الترجمة، رضي الله عنه، يقوم للحق، ويبذل النصيحة للخلق، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويأخذ ما أمكن بالسنة وصحيح الأثر. لا يخشى صولة ظالم، ولا تأخذه في الله لومة لائم، وإن كان يؤدي ذالك إلى قتله أو سبه أو تعذيبه بأي نوع من أنواع العذاب.

ذكر العلامة شيخ الجماعة، شارح الاكتفاء، أبو عبد الله، سيدي محمد بن عبد السلام بناني، في بعض مقيّداته، أن علماء فاس وكافة شهودها، لما ذهبوا إلى مكناسة لحضرة السلطان أبي النصر، مولانا إسماعيل، في ربيع الأول، عام عشرين ومئة وألف، (1120/ 1708م) في شأن قضية جمع الحراطين بفاس وحرز كمياتهم، تكلم مع السلطان منهم في تحريم ذالك أربعة: القاضي أبو المحامد، العربي بردلّة، والشيخ الشهيد، أبو محمد، عبد السلام بن حمدون جسوس، والشيخ أبو عبد الله، محمد ابن الشيخ سيّدي أحمد ابن الحاج، والشيخ سيدي محمد ميارة، حفيد شارح التُّحفة، فأمر السلطان بإزالة رأس سيدي محمّد ابن الحاج بحينه، ثم أمر بكيِّه، ثم أمر بكحل عينيه، ثم عفا الله سبحانه، فلم يكن شيء من ذالك.

ثم التفت إلى الشيخ سيدي العربي بردلة، وقال له: ألست طلبنا، وقد قتلتم مولاي الحفيد[191]، حتى أفحمه. ثم التفت إلى الشيخ جسوس، فبادره الشيخ بالكلام قائلا: أنا بالله وبالشرع معك، أمولاي. قالها ثلاث مرات. فقال له: تكلم، فأراد أن يسرد أوراقا بيده، كانوا جمعوا فيها آيات وأحاديث وأقاويل العلماء في تحريم ما ذكر، فبادر السلطان إلى القيام، فجذبه الشيخ جسوس بعنف، حتى مزّق ثوبه وقال: اجلس حتى تسمع حكم الله في المسألة. فكان ذالك سبب حقده عليه، حتى قُتِل بسجن فاس في منتصف ربيع النبوي، سنة إحدى وعشرين ومئة وألف (1121/1709م)، بعد أن عُذِّب بأنواع العذاب، وأُغرم مالا جسيما، حتى جعل يجلس في الأسواق، ويطلب الفدية من المسلمين.

انتهى باختصار.

---

[191]- الحفيد ابن المولى إسماعيل. أمير علوي تولى لوالده ولاية شرق المغرب وفاس. (ت 1115هـ). أخباره في: النشر: 3/113-114. تاريخ الضعيف: 80. الاستقصا: 7/90-91. الدرر: 1/150.

ومن بديع نظم الشيخ[192]:

[الوافر]

1) جَـزَى اللهُ الشَّـدائِدَ كُلَّ خَـيْـرٍ وإنْ حَكَمَتْ بإفـلاسي وَضِـيـقي[193]

2) ومـا مَـدْحِي لَهـا شُكراً وَلكنْ عَـرَفْتُ بِهـا عَـدُوِّي مِنْ صَـديقي

وقوله في مدح الشَّمائل[194]:

[الكامل]

1) عَلِمَتْ محاسِنُ أحْمَدَ حينَ اخْتَفَتْ فَـقْـدَ التَّـصَـبُّـرِ مِن رَقيقٍ مـائِلِ

2) فَـبَـدَتْ وأبْدَتْ لِلعِـيـانِ شَـمـائِلاً فَـإذا الـمـحـاسِنُ كلُّهـا بِشَـمـائِلِ

وما ألطف قول ولده أبي محمد، سيدي عبد الله، مُخَمِّسًا بيتي عبد الله بن حَذْلَمٍ اللَّخمي[195]، في رثاء بعض أمراء المغرب، أُدخِلَ رمسَه بين صلاة العصر والمغرب، ومنزّلا لها على قضية والده[196]:

[السريع]

1) أقـولُ: بَدْرُ قَلْبِي قَـدْ أفَـلا ودَمْعُ أجـفـاني غَـدا مُـرْسَـلا

2) [[197]]يَنْدَرُ الهُدى، والدَّمْعَ قَدْ أرْسَلا

3) وَسَلَّ سَـيْفَ البَـغْيِ واسـتَـعْـمـلاً «قِفْ لِتَرَى[198] مَغْرِبَ شَمْسِ العُلى

---

[192]- البيتان في: شرح جسوس: 361. غير منسوبين.

[193]- شرح جسوس: 361: «وإن كانت تغصصني بريقي».

[194]- البيتان في: شرح جسوس: 7.

[195]- في الأصل: جذيم اللخمي. وهو تصحيف. والصواب عبد الله بن حذلم اللخمي. أديب كاتب. (ت ق 8هـ) ترجمته في: النفح: 5/382-383. مستودع العلامة: 74-75.

[196]- البيتان المخمسان في: مستودع العلامة: 75. النفح: 5/168. 5/169. بروايتين مختلفتين. نزهة الأنظار: 1/586. وقد نسبا فيه إلى ابن الخطيب، وليسا في ديوانه.

[197]- بياض في الأصل.

[198]- نزهة الأنظار: 1/586. مستودع العلامة: 75. النفح: 5/168. 5/169: كي ترى.

4) بَيْنَ صَلاةِ العَصْرِ والمَغْرِبِ»

5) وابْكِ مَعَ العَلْيَا عَلَى تُرْبِهَا   وَسَاعِدِ الوُرْقَ عَلَى نَدْبِهَا

6) واعْتَبِرِ الأيَّامَ في سَلْبِهَا   «واسْتَرْحِمِ اللّهَ قَتِيلاً بِهَا[199]

7) كانَ وحِيدَ العَصْرِ في المَغْرِبِ[200]»

[وفاة أبي عبد الله، امحمد بن أبي الفضل ابن الحاج]

تُوفي صاحب الترجمة أبو عبد الله، امحمد ابن الحاج، رحمه الله، ليلة الأربعاء، لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة، عام ثمانية وعشرين ومئة وألف (1128/1715م)، ودفن بروضتهم المشهورة بدرب الطويل، المجاورة لروضة سيدي عزيز.

36) [أبو العباس، أحمد الحفيد، ابن الحاج السُّلَمِيّ][201]

ومنهم أبو العباس، أحمد، المدعوّ الحفيد، ابن مَحَمَّد (فتحا) ابن الشيخ أبي الفضل، أحمد.

[مولده]

ولد سنة أربع وتسعين وألف (1094هـ/1682م)، ونشأ في حجر والده وجده، نشأة نزاهة وصيانة وعفاف وكفاف، فقرأ القرآن، وتغذّى من حفظه بأعذب لُبان.

[مشيخته وعلمه]

ثم أخذ في العلم أخذ اجتهاد، جاثيا على ركبتيه لطلبه بكلّ ناد، فلزم والده وجده، والشيخ سيّدي محمد بن عبد القادر الفاسي، والشيخ القَسَنطيني الكمّاد، والشيخ بَرْدَلّة، والشيخ

199- النفح: 169/5: دفينا به.

200- مستودع العلامة: 75: «كان وحيد العصر والمغرب». النفح: 168/5: «كان إمام العصر في المغرب». النفح: 169/5: «كان مليك العصر في المغرب».

201- ترجمته في: الالتقاط: 321. رقم 481. النشر: 251/3. السلوة: 156/1. الشجرة: 332/1. رقم 1303. الدليل: 389/2. (حيث نسب له ديوانا حافلا).

المسناوي وغيرهم، في جملة من المتون، في غير واحد من الفنون، حتى ظهر في سماء التحصيل نورُه، وتحصن بسر المعرفة سورُه، وصار بدرا يُستضاء به في المدلهمّات، وحصنا يُسند إليه في المهمّات، علاّمة درّاكة، حافظا متفنّنا، ماهرا ضابطا، تامّ المشاركة في جميع علوم العربية، قوي العارضة في الأصلين والمنطق، والحديث والتفسير، لا يُجارى في التصوف والتاريخ والأنساب، منفردا بعلم الحساب والفرائض، مجتهدا في العبادة، ممتطيا متن السيادة، سمحا وقورا، حييّا صبورا، عفيفا جميلا، قانعا شكورا، ملجأ للأيتام والأرامل والمساكين، مع الدّين المتين، والانحياش إلى عباد الله الصالحين، والذكر والتلاوة، والقيام بالمعروف، والنهي عن المنكر.

[وظائفه وبلاغته]

تولى جميع ما كان بيد والده وجده من الوظائف الشّرعيّة، والمناصب السّنيّة، فأقام[202] بذلك أحسن قيام، ورُزِق الناسُ الانتفاع به، فازدحموا على مورده، والمورد العذب كثير الازدحام. وكلامه كله، نثرا كان أو نظما، أعلى طبقات البلاغة، لاستكماله أدواتها، على طريقة الأقدمين من أهلها.

[نموذج من شعره]

ومن غرر نظمه، قوله من قصيدة في مدح المصطفى، صلى الله عليه وسلم:

[الطويل]

1) رسولٌ أتى في ساقةِ الرُّسْلِ بَعْثُهُ ... ومنْ قَبْلِهِمْ في الفَضلِ والخَلْقِ يُحْسَبُ

2) ولمْ يتأخَّرْ بَعْثُهُ لِغَضاضَةٍ ... ولكنَّما الأبطالُ تَدنُو فَتُعْقَبُ

3) تَأخَّرَ كَيْ يَحْمِيَ الذِّمارَ فإنَّها[203] ... الأواخرُ فيها الغَيثُ يُخشى ويُرْهَبُ

4) تأخَّرَ كي لا يَسْتَطِيلَ مُقامُهُ ... وأُمَّتُهُ تَحْتَ الثَّرى حينَ غُيِّبُوا

5) تأخَّرَ كَيْ لا يَعْتَرِيَ النَّسْخُ شَرْعَهُ ... ومِلَّتَهُ، مادام طِفْلٌ وأشْيَبُ

[202]- كذا بالأصل. والصواب: فقام.

[203]- لعل الصواب: فإنما.

6) تفـتّـرَتِ الأرْسـالُ، إذْ جـاءَ بَعْـثُـهُ وغَـشَى سناهُمْ ضَـوْؤُهُ المُتَلَهِّبُ
7) لِذاك نُجُـومُ اللّيْلِ، وإنْ حنَّ مَطْلِعٌ لِشَمْسِ الضُّحى، أبْصَرْتَها تَتَغَيَّبُ
8) رسـولٌ، إذا قـومٌ عَـصَـوْهُ، أذاقَـهُمْ لِبـاسَ الطَّوى والخَوْفِ، حتَّى يُثَـوِّبوا

[وفاته]

غير أنه بغتـه الأجل، قبل استيفاء الأمل، وغرب بدره قبل التوسط وأفل، في صبيحة يوم السَّبت، لثِنْتَي عشرة ليلة بقيت من ربيع الثاني، عام ثلاثة وثلاثين ومئة وألف (1133/ 1720م). وصُلّي عليه في جامع القرويين بعد صلاة العصر، ودفن مجاورا لوالده.

[لامية محمد بن الطيب العلمي في رثائه]

ورثاه العلامة الأديب البارع المتفنّن المشارك، سيّدي محمد بن الطّيّب، صاحب الأنيس المطرب، بقوله:

[الخفيف]

1) نارُ قلْبِي مِنَ الأسى في اشتِعـالِ وسَحـابُ مَحـاجِـري في انْهِـمـالِ
2) فَتَعَجّبْ مِنْ دَمْعَتي، وَهْيَ مـاءٌ، كَـيْفَ مِنْ بَرْدِها تَزيدُ اشْتِـعـالي
3) وقُـوايَ وَهَتْ، وَصَبْـري تَلاشَى، وَرِياضي ذَوى، وغُـيِّـرَ حـالي
4) أأُعِـيـبُ عـلى الدُّنـا، وأنا أعْـ لَمُ أنَّ الأحْـوالَ ذاتُ انتِـقـالِ؟!
5) بَلْ أُسـايِرُها وأرْفُضُ مـا قَـدْ كُنْتُ فـيـهِ مِنَ الزَّمـانِ الخـالي
6) فَـبَـقَـاءُ الأحـوالِ صـافِـيَـةً لا شَكَّ أنَّهـا مِنْ قَـضـايا المُحالِ
7) فَـاجْـتِـمـاعٌ وفُـرْقَـةٌ وَسُـرورٌ وَشُـرورٌ مَعْ كُـثْـرٍ او[204] إقْـلالِ
8) وسَـقَـامٌ وصِـحَّـةٌ وثَراءٌ وافْـتِـقـارٌ تَتْـرَى مِنَ الأحْـوالِ
9) بَعْضُ حِكَمِ الزَّمـانِ في الخلقِ هذا وَصُـروفٌ جَلَّتْ عَنِ الأقْـوالِ
10) وأجَلُّ خُطوبِهِ أنْ يُصِـيبَ الْـ كُلَّ مِنّـا بِأسْـهُمٍ ونِبـالِ
11) فَـيُـزيلَ الأطفـالَ مِنْ أبَوَيْهِمْ ويُـزيـلَ الآبـاءِ لِـلأطْـفـالِ

[204]- تسهل همزة أو لإقامة الوزن.

12) أيْنَ عَــيْشٌ يَطيبُ لي مَعَ دَهْرٍ صــارَ عنهُ أهْلُ التُّــقى والجَــلالِ

13) إنَّ مِنْ أعظَمِ المصــائِبِ أنْ قَــدْ مـاتَ هُمـامٌ لَهُ جـميعُ الصِّفـاتِ[205]

14) ألفَـقـيــهُ الغَنيُّ عَنْ كُلِّ مَـدْحٍ المَـوْصوف[206] بِالفَضْلِ والإفْضـالِ

15) كـانَ في دينِه نَقِـيًّا طَهـوراً لاجـتِـهـادٍ في عِلْمِـهِ وَاشْـتِـغـالِ

16) كانَ فـيـهِ الوَقـارُ والنُّسْكُ والعِفَّـــةُ والحِلْمُ مَعْ كَــريمِ الخِـــلالِ

17) كـانَ صـاحِبَ حُـرْمَـةٍ وَجَـلالٍ وَسَــخــاءٍ ورَحْـمَــةٍ وجَـمــالِ

18) وَسُـمُـوٌّ وَهَيْـبَـةٍ واحـتِـرامٍ واحْــتِـزامٍ لِدينِهِ وكَــمـالِ

19) واعْــتِـنـاءٍ بِرَبِّـهِ واغْــتِـنـاءٍ وعَنِ الغَـيْـرِ، مِنْ سِوى اللهِ، سـالي

20) كـانَ مَلْجَـأ طالِبـيـهِ ومَلْجـا[207] هُمْ مِنَ المُعْـضِـلاتِ وَالأوْحـالِ

21) كــانَ خِــرِّجَـهُمْ إلى نورِ عِلْمٍ بِسَناهُ مِنْ ظُلْمَــةِ الجُــهّــالِ

22) مَنْ لِعِلْمِ الحَـديثِ والفِـقْـهِ والمِيـراثِ والحِــســابِ والإرســالِ؟!

23) مَـنْ لِدَرْسِ العُـلُومِ في كُلِّ وَقْتٍ مَـنْ يُـنـيـلُ الطُّلاّبَ كُـلَّ مَـنـالِ؟!

24) بَعْـدَ هذا الحَبْرِ الَّذي طاوَلَ البَحْـرَ بِفَـيْضِ عُلومِــهِ السَّلْسـالِ

25) أحْـمَـدُ المُرْتَضى الهُـمامُ سَليلُ الـحَـاجِ، نَجْلُ الأكـابِرِ الأفـضـالِ

26) كُنّا نَـأمُلُ أنْ سَــيَـكْمُلُ بَـدْراً فـاعْـتَـراهُ الخُسُـوفُ قَـبْلَ الكَمـالِ

27) ماتَ صَبْري لِمَوْتِهِ فـاشْتَهَتْ مُذْ مـاتَ، أنْ لَوْ تَمـوتُ كُلُّ الرِّجـالِ

28) لَوْ تُفَـدَّى مِنَ الرَّدَى، يا أبا العبَّا سِ فَــــداكَ والـدي وَآلـي

29) أوْ تُفَـدَّى بِعَـسْـجَـدٍ أو نَسِيكٍ لَفَــــداكَ الـوَرى بِـأغْـلـى المالِ

30) كَـيْفَ تَبْـقَى، وأنْتَ تعلَمُ أنَّ الـخَلْقَ كُلَّهُـم[208] مــآلُهُـمْ للزَّوالِ

31) يا بَنِي الحاجِ عَنْهُ صَبْراً جَمـيلاً كُلُّ مَنْ في الثَّـرى يُرى لارْتِحـالِ

---

[205]- الشطر مكسور الوزن.

[206]- الشطر مكسور الوزن. ويمكن أن يصح هكذا: «موصوف بالفضل».

[207]- تسهل الهمزة لإقامة الوزن.

[208]- الشطر مكسور الوزن.

32) كُلُّ مَنْ في السّماءِ والأرضِ يَفْنَى   والخُلُودُ لِربِّنا المُتَعالي
33) أحْمَدُ كانَ صَفْوَةً فاصْطَفَاهُ   لِلِقاهُ تَفَضُّلاً ذو الجَلالِ
34) إنْ يَكنْ ماتَ فيكُمْ [209]   ]، بِحُسْنِ الأقوالِ والأفعالِ
35) فَأخُو العِلْمِ خالِدٌ بَعْدَما يَفْـ   نَى، وإنْ كانَ رُمَّةَ الأوصالِ
36) فَعَلَيْهِ مِنَ المُهَيْمِنِ تَتْرى   رَحْمَةٌ في البُكورِ والآصالِ
37) ولَهُ فَسَحَ الإلاهُ تعالى   في جِنانِ الخُلْدِ القُصورَ العَوالي
38) وَثَراهُ حَيَّا الإلاهُ وأحْيَا   بِالحَيا المُتراكِبِ المُتَوالي

37) [أبو زيد، عبد الرحمان ابن الحاجّ السُّلَمي][210]

ومنهم أبو زيد، عبد الرحمان ابن مَحَمَّد (فتحا)، ابن الشيخ أبي الفضل أحمد، بن العربي ابن الحاجّ.

[مولده]

وُلِد بفاس، في النيف والتسعين والألف (1090/1678م). وبها نشأ في حجر والده وجدّه مرضيّ الحال، نعيم البال. فقرأ القرآن، وجوّده تجويد الإتقان.

[مشيخته]

ثم اشتغل بقراءة العلم على والده، الشيخ أبي عبد الله، مَحَمّد.

- والشيخ سيدي العربي بردلّة.
- والشيخ سيدي عبد السلام جسوس.
- والشيخ المسناوي.
- والشيخ سيدي أحمد الجرندي.
- والشيخ سيدي محمد الفاسي الصغير[211]، وعليه كان اعتماده في علمي الظاهر

209- بياض بالأصل.

210- له مجموعة إجازات مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط رقم ق 172.

211- محمد بن عبد الرحمان الفاسي. (ت 1134هـ). ترجمته في: النشر: 3/524. الالتقاط: 323-324.

والباطن.

- وأدرك جده أبا الفضل.

- والشيخ سيدي محمد بن عبد القادر الفاسيّ.

- والشيخ القسنطيني الكمّاد الشّريف.

ونال من يُمن إدراكهم وإجابة دعوتهم، بما كان يبدو من السّرّ في واضح طلعته، فقرأ عليهم وانتفع بهم.

وأخذ زمن رحلته للحرمين عن:

- الشيخ أبي عبد الله، سيدي محمد بن عبد الباقي الزُّرقاني[212]، شارح الموطإ والمواهب.

- والشيخ العارف بالله، أبي إسحاق، إبراهيم الفيُّومي[213]، شارح شرح اللّقانيّ على خطبة خليل.

- والشيخ العارف القطب، سيدي محمد بن سعيد النُّفائي الطرابلسي، نزيل العَمروس، وغيرهم من مشايخ العصر.

[علمه وشخصيته]

كان، رضي الله عنه، ممن تضلع في جميع العلوم، وخاض بِفُلك ذهنه بحار الفهوم، إلى أن كان إماما حجة، وسالكا واضح المحجة، قائما بتدريس الفنون، قيام محقق حافظ ضابط مُحَصِّل محرز. وكان آية من آيات الله تعالى في الحفظ، لايجارى في ذلك في سائر الفنون، مع قُوَّة الفهم، وحسن العبارة، ولين الجانب، ومكارم الأخلاق، وسرعة الدَّمعة، والإقبال على الصغير والكبير بالبشاشة والإكرام، كامل الصيانة والعفاف، طاهر الذَّيْل من قبيح الأوصاف، مع الدين المتين، والاغتراف من عين اليقين، قائما على قدم الاستقامة، ناشرا في مجال العبادة

رقم 482. الصفوة: 226-227. الدرر: 283/2. السلوة: 1/319-320. مؤرخو الشرفاء: 210. العناية: 51. معجم المطبوعات: 269. رقم 621.

[212]- فقيه مصري. (ت 1122هـ) ترجمته في: الشجرة: 1/317-318. رقم 1237. الفكر السامي: 2/ 248. الفهرس: 1/456-457.

[213]- فقيه مصري. (ت 1137هـ) ترجمته في: الشجرة: 1/318. رقم 1240.

أعلامه.

[رحلاته المشرقية]

وكان، رحمه الله، كثيرا ما يستعمل الرحلة إلى بيت الله الحرام، غير مبال بما يلاقي في ذالك من المشاق العظام، بل يُهَوِّن ما يلقى في سبيل المطلوب، حتى ظفر بالمنى، وفاز بالمرغوب، فحجّ مرارا، وزار وانخلع عن الآثام وأثقال الأوزار، منشدا بلسان الحال، قول من قال:

[البسيط]

1) إنْ كانَ سَفْكُ دمي، أقصى مُرادِكُمو[214] فَما غَلَتْ نَظْرَةٌ، مِنكُمْ بِسَفْكِ دَمي

وقول الآخر[215]:

[الكامل]

2) مالي سِوى روحي، وباذِلُ روحِهِ في حُبِّ مَن يَهْواهُ ليسَ بِمُسرِفِ

3) فَلَئِنْ رضيتَ بِها، فقَدْ أسْعَفْتَني يا خَيْبَةَ المسْعى، إذا لَمْ تُسْعِفِ

وكان زمن رحلته الأولى، في الثاني والعشرين من جمادى الأخيرة، عام خمسة عشر ومئة وألف (1115/1703م). فلقي هناك أشياخا من أهل الشريعة والحقيقة، سلكوا به على مُثلى الطريقة، فتهذب بهم وتكمّل، وتردّى منهم بالعرفان وتجمّل، وحصلت بينه وبين علماء مصر والحرمين معرفة ومواصلة، ومحبة أكيدة، ومذاكرة ومراسلات.

[رسالة العلامة زين العابدين إلى عبد الله جسوس]

ذكر شيخ الجماعة، العلاّمة الصالح، سيدي محمد جسّوس، في تأليفه السابق الذكر، رسالة بعثها العلاّمة زين العابدين، ابن خطيب بيت الله الحرام، أبي المعالي، سيدي سعيد المنوفي، المغربي الأصل، الحسني الإدريسي العبد سلامي، للأديب البارع، سيدي عبد الله جسوس، ومن جملة فصولها في شأن صاحب الترجمة:

214– ينسب البيت لمهيار الديلمي، وليس في ديوانه. وهو في: تحفة الأكابر: 457. محاضرة الأبرار: 2/ 215.

215– البيتان لابن الفارض. ديوانه: 151. المسلك: 119.

«ولَـمَّا أنْ منَّ الله، عزّ وجلّ، علينا بالاجتماع بأخينا الأجلّ، قرة عين الأدب، ولُباب المجد والحسب، حائز فضيلتي الظرف والكيس، ونور إنسان الفصاحة التي يعجز عنها قدامة وقيس، خلاصة الفضلاء، وسلالة النبلاء، من تكلّ ألسنة الأقلام، عن وصف سجاياه الجميلة، وتقصر الدفاتر والأرقام، عن إحصاء مناقبه الجليلة:

[البسيط]

1) وَما تَناهَيْتُ في وَصفِي محامِدَهُ[216] إلاّ وأكْـثَـرُ مِـمَّـا قُلتُ مـا أدَعُ

سيدي الشيخ عبد الرحمان ابن الحاج، أدام الله به وله المسرة والابتهاج، أخبرني بأنه اطّلع كتابكم الذي كتبتموه لإرساله إلينا، وكان لكم بوصوله المنة العظمى علينا، فأزال عني ذالك الوهم، ورفع بما أبداه مادّة الجزم. ولطالما كان يُشنِّف بذكركم المحافل والمجامع، ويصف من محاسنكم ما يُدهش السامع، وكانت لنا به أيام أنس تُعَدّ من أيام الجنة، وتُعَدّ من الأكدار جُنّة، حَتّى نغّص الزمانُ صفو العيش بتَرحاله عنّا إلى المدينة النبوية، على ساكنها أشرف السّلام والتّحيّة، ووالله، ثم والله، لقد حلّ من القلب سُوَيداءه، وشفى بتَرياقِ مفاكهته داءه». أنظر تمامها فيه.

[وفاته]

توفي، رضي الله عنه، بالمدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصّلاة والسّلام، عام سبعين ومئة وألف (1756/1170م).

38) [أبو محمد بن أبي زيد ابن الحاج السُّلَمِيّ]

ومنهم أبو محمّد، عبد الله بن عبد الرحمان بن محمد، ابن الشيخ أبي الفضل، أحمد ابن الحاجّ.

[مولده]

وُلِد بفاس، ونشأ بها في حجر أبيه وجدّه، فقرأ القرآن العظيم في ذالك لوجهه الكريم، ثم

216- البيت في: الشذرات: 376/8، غير منسوب.

اشتغل بقراءة العلوم، واقتباس أنوار الفهوم، فلزم أباه سفرا وحضرا، فتأدّب بآدابه، مقتطفا من شيمَتَيْ معاشرته ولين خطابه. وسمع منه الحديث، وأخذ عنه من كل فن طرفا.

[مشيخته]

- وأخذ عن جدّه، الشيخ أبي عبد الله، محمّد.
- والشّيخ أبي المحامد، سيّدي العربي بردلّة.
- والشّيخ بنّاني، صاحب الفوائد المسجلة.
- والشّيخ المسناوِيّ.
- والشّيخ ابن زاكور.
- وشارح الاكتفاء.

وغيرهم، حتى تمكن من الملكة في كثير من الفنون، عربية وبيانا وأصولا، وفقها وحديثا وتصوفا. انفرد ببراعة الإنشا، وتحكم في القول كيف شا.

[نموذج من شعره، في مخاطبة عبد الله جسوس]

ومن نظمه ما كتب به من زاوية سيدي حمزة بن عبد الله أعياش، للأديب البارع، سيْدي عبد الله جسوس، صدر رسالة يطلب منه أن ينوب عنه في تقبيل يد والده وجدّه، وعمّه أبي العباس، أحمد، وطلب الرضى منهم له:

[الطويل]

1) نَسيمَ الصَّبا باللهِ أبْلِغْ أحِبَّتي كَلامًا يَفوقُ المِسْكَ مِنْ شِدَّةِ العَبْقِ
2) خُصوصا أبا زَيْدٍ السَّرِيَّ الّذي لَهُ مَحاسِنُ فَخْرٍ قَد تَسامَتْ عَلى الأفْقِ
3) وبُثَّ لَهُ وَجْداً بِقَلْبِي وقُلْ لَهُ: عُبَيْدُكَ يا مَوْلايَ ماتَ مِنَ الشَّوْقِ
4) وقَبِّلْ حِذاهُ، واطلُبْ مِنْهُ لي الرِّضى فَلَوْلا رِضاهُ ما نَجَوْتُ مِنَ الغَرْقِ
5) ومِلْ نَحْوَ بَحْرِ العِلْمِ مَنْ خَضَعَتْ لَهُ جَميعُ العُلومِ، وَهْوَ مازالَ يَسْتَرقي
6) فَذاكَ أبو عَبْدِ الإلاهِ الّذي به انْ (م) تَفَعَ القَوْمُ الكِرامُ ذَوُو الذَّوْقِ
7) فَبِاللهِ أبْلِغْهُ السَّلامَ وقُلْ لَهُ: حَفيدُكَ، يا مَوْلايَ، ماتَ مِنَ الشَّوْقِ

8) وَسَلِّمْ سَلامًا فائِحَ النَّشْرِ دائِمًا على شَيْخِنا المَخصوصِ بِالحِلْمِ والصِّدْقِ
9) عنَيْتُ أبا العَبَّاسِ شَيْخِي ومُنْقذي مِنَ الجَهْلِ حَتَّى سَارَ بي إلى الحَقِّ
10) ومِنْ بَعْدِ ما خَصَصْتُ جُمْلَةَ ما احْتوَتْ «حَجّامَتُنا» الغَرّاً عَلَيْهِ مِنَ الخَلْقِ

فأجابه سيدي عبد الله جَسّوس، بقوله:

[الطويل]

1) نَسيمُ الصَّبا أدّى التَّحِيَّةَ عنْكُمُ فَأحْيَا جَرِيحَ القَلْبِ مِنْ شِدَّةِ الشَّوْقِ
2) وَرَدَّ على الأجْفَانِ شارِدَ نَوْمِها وَسَكَّنَ مِنْ وَجْدٍ، وقَد شَبَّ عَنْ طَوْقِ
3) كَأنّي، وقَد وافى السَّفيرُ بطِرْسِهِ، رَقِيقُ يَمينٍ جاءَهُ خَبَرُ العِتْقِ
4) لَئِنْ كُنْتَ في شَوْقٍ إلَيْنا مُبَرِّحٍ فَنَحْنُ كَما أنْتُمْ عَلَيْهِ بِلا فَرْقِ
5) لكَ اللّهُ مِنْ نَظْمٍ بَديعٍ مُهَذَّبٍ تَمَنَّتْهُ عِقْداً في الطُّلَى رَبَّةُ الطَّوقِ
6) على أنَّهُ لَمْ يَذْكُرِ[217] مَنْ حَبا بِهِ وعَلَّمَهُ طُرْقَ البَلاغَةِ في النُّطْقِ
7) مَخائِلُهُ تُنْبي بِأنَّ مُقَيِّدَهُ[218] سَيُحْرِزُ في شأوِ العُلى قَصَبَ السَّبْقِ
8) وما ذاكَ إلاّ نَفْحَةٌ مِنْ دِيارِ مَنْ نزَلْتَ بِهِمْ، فَهْيَ الُمنيلةُ ما تُلقي
9) دِيارُ هُدى قَدْ حَلَّها المَجْدُ والتُّقى مَلاذاً لِمَنْ[219] يَخْشَى، شِفاءً لِمُسْتَرْقِي
10) فَأبْلِغْ سَلامًا طَيِّبًا حَمْزَةَ الرِّضى وقَبِّلْ بِكفٍّ مِنهُ عَنِّيَ ذا صِدْقِ
11) وَخُصَّ أبا عَبْدِ الإلاهِ سليلَهُ وكُلَّ مُحِبٍّ حَلَّ في ذالك الأفْقِ

ذكر هذه الأبيات الشيخ سيدي محمد جسوس، في تأليفه السابق.

وبالجملة، فقد اتّصف صاحب الترجمة بكلّ فضيلة، وحصّل من جلّ العلوم كلّ دقيقة وجليلة، وكان دينا قائما على قدم الصدق في التوجّه، مخلصا وقورا مهابا في عين الخاصّ والعامّ، صادعا بالحقّ، إذا تكلم اتُّبِع. لا تأخذه في الله لومة لائم.

217- في الأصل: يذكره. ولا يستقيم به وزن ولا معنى.

218- تسكن الهاء لإقامة الوزن.

219- الكلمة غير واضحة في الأصل.

[وفاته]

توفي، رحمه الله، عام تسعين ومئة وألف (1190/1775م).

39) [أبو محمد، عبد الله الأصغر، إبن عبد الرحمان[220] ابن الحاج السُّلمي]

ومنهم شقيق الشيخ أبي الفيض، أبو محمد، عبد الله بن عبد الرحمان [بن حمدون، بن عبد الرحمان بن محمد، بن العربي ابن الحاج][221].

[ولادته ومشيخته]

ولد، رحمه الله، بفاس، تقريبا، سنة ثمان وسبعين ومئة وألف (1178/1764م)، وأخذ عن أخيه، وشاركه في جل أشياخه:

- كشيخ الإسلام، أبي عبد الله، سيدي التّاودي ابن سودة المري.
- والشيخ أبي محمد، سيدي عبد الكريم اليازغي[222].
- والشيخ سيّدي الجيلاني السّباعي.
- والشيخ أبي محمد، سيّدي عبد القادر ابن شقرون[223].
- والشيخ أبي عبد الله، سيدي محمد بن أحمد بَنّيس[224].

---

[220]- عم المؤلف. ترجمته في: السلوة: 34/3.

[221]- بقية النسب مضروب عليه في ميم، لكنه مقروء بوضوح.

- يلاحظ أن المؤلف ختم تراجم ذرية أحمد بن العربي ليبدأ في الترجمة لذرية أخيه محمد بن العربي ابن الحاج، الذين ينتمي إليهم هو مباشرة.

[222]- عالم فاسي. (ت 1199هـ)، ترجمته في: الشجرة: 359/1. رقم 1433. السلوة: 115/2-116.

[223]- عالم فاسي. (ت 1219هـ). ترجمته في: الشجرة: 374/1-375. رقم 1497. السلوة: 95/1-96. الإتحاف: 264/1. 320-330. الشّرب: 127. الفكر السّامي: 295/2. معجم المطبوعات: 191-192. رقم 442.

[224]- عالم فاسي. (ت 1214هـ) ترجمته في: الشجرة: 374/1. رقم 1493. السلوة: 204/1-205. الفكر السامي: 295/2. الشّرب: 216. معجم المطبوعات: 46-47. رقم 113.

- والشيخ سيّدي الطيب ابن كيران[225].

[علمه وشخصيته]

كان رضي الله عنه، ممن برز في حلائب الأدب، وأحرز قصب السبق في مضمار الحسب، ونسخ بآي شمسه ليل المشكلات، وسبح بحفظه بحار العقليّات والنّقليّات، وانفرد بتحقيق العلوم العربية، والمعارف اللدنية. بل كان من الأئمة الكاملين، الفضلاء المنتخبين، مُتّفقا على إمامته وجلالته، وعلمه وعمله، وبراعته وورعه وزهده، ناسكا عابدا، سخيا حليما، كاملا ملازما للسيرة النبويّة، مؤثرا للخمول، تاركا لما لا يعني، عاملا بيده، آكلا من كسب يمينه، دؤوبا على نسخ كتب العلم لضرورياته، اقتداءً بمالك بن دينار وغيره. وأصوله كلّها في غاية الصّحّة، ونهاية الإتقان، لاهتمامه بمقابلتها، وعكوفه على تصحيحها، مؤيدا على ذلك، بحسن الخطّ، وإتقان التّقييد والضّبط، الّذيْن برز فيهما على متقدمي الأكابر من مشاهير أهلها. أثمر المغالاة فيها بعد وفاته، حتى تجووزت في أثمانها الغاية التي لا عهد لها، وتمادت رغبة الناس في اقتناء ما يوجد بخطه أو تصحيحه ومنافستُهم إلى الآن.

ثم نبذ السّوى، وأقبل على أهل الله بقلبه وقالبه، فأينعت في باطنه أغصان الهداية، وأشرقت في ظاهره أنوار العناية.

[الطويل]

1) وَأَصْبَحَ عَيْنَ القَوْلِ، والقَوْلُ قَوْلُهُ[226] ولا أحـــدٌ في النّاسِ يبلُغُ قـــدرَهُ

[وفاته]

إلى أن استُشهِد [من غير عقب] [227] بالطاعون، لإحدى عشرة خلت من ذي الحجة الحرام، متمّ سنة ثلاث عشرة ومئتين وألف (1213/1798م)، ودفن بروضة الوليّ الصّالح، العالم

225- عالم فاسي كبير. (ت 1227هـ). ترجمته في: الشجرة: 1/376-377. رقم 1506. السلوة: 3/2-4. النبوغ: 1/345-347. الحياة: 345-347. الفكر السامي: 2/295. الشّرب: 218. معجم المطبوعات: 308-309. رقم 694.

226- البيت في جواهر المعاني: 1/36.

227- زيادة من باء.

النّاسك، أبي عبد الله، سيّدي محمد الهادي، ابن الشيخ مولانا زين العابدين الحُسَينيّ الكربلائي، الشهير بالعراقي[228]، خارج باب الفتوح، عن يمين الداخل إليها. رحمه الله.

[نموذج من شعره]

ومن نظمه قوله مخاطبا الشيخ سيدي التّاودي، وقد أتى له برسم ليكتب له عليه:

[الخفيف]

1) أيُّهــا العــالِمُ المهــذَّبُ خُلْقًــا	دُمْتَ للعِلْمِ ناشِــراً ومُــبــينا
2) فــالصَّــحــيحُ مــا صَحَّ عنكُمْ وإلاّ	فَــهْــوَ واللهِ، لا يُفــيــدُ يَقــينا

40) [أبو عبد الله، محمد الاصغر، ابن عبد الرحمان ابن الحاج السُّلمي]

ومنهم شقيقه أيضا، أبو عبد الله، محمد [بن عبد الرحمان، بن حمدون ابن الحاج][229]

[مولده]

وُلِد بفاس في حدود الثمانين ومئة وألف (1180/1766م)، وبها نشأ وربِّيَ في كفالة أبيه.

[مشيخته]

وقرأ القرآن، وتميز بقوة الإيقان. ثم شرع في مقدمات العلم بالأخذ في مبادئه، حفظا للمتون المتداولة بحسب كُلّ فن، وقراءتها على مشيخة الوقت. فلازم أخاه الشيخ أبا الفيض، حمدون، والشيخ أبا محمد، عبد القادر ابن شقرون، والشيخ أبا عبد الله، محمد الطيب ابن كيران. فانتفع بملازمتهم، ولاحت عليه أنوار هَدْيهم، وانتهت إليه الرياسة في حسن الخط والتّزويق، وتنميق الأشكال العجيبة برائق الألوان والذهب الأنيق. يُعدُّ في ذالك من نظراء أبي علي بن مقلة[230]، الذي قيل في خطّه:

---

[228]- تمييزا له عن غيره.

[229]- ما بين قوسين مضروب عليه في الأصل.

[230]- أبو علي، محمد بن علي. وزير المقتدر العباسي. (ت 328هـ) ترجمته في الوفيات: 5/113-118. رقم 698.

[البسيط]

1) خَطُّ ابنِ مُقْلَةَ مَنْ أرْعاهُ مُقْلَتَهُ ... وَدَّتْ جوارِحُهُ لو أصبَحَتْ مُقَلا

وأبي الحسن، عليّ بن هلال، المعروف بابن البوّاب[231]، الّذي رثاه بعضهم بقوله:

[الكامل]

1) اِستَشْعَرَ الكُتّابُ فَقْدَكَ سالِفًا ... وَقَضَتْ بِصِحَّةِ ذالكَ الأيّامُ

2) فلذاك سُوِّدَتِ الدَّواةُ كَآبَةً، ... أَسَفًا عَلَيْكَ، وشُقَّتِ الأقلامُ

وكان أخذهُ هذه الصناعة عن الفقيه أبي الحسن، علي الوافلاوي، الذي قال فيه الشيخ أبو الفيض حمدون:

[مجزوء البسيط]

1) بَدَوْتَ في الخطِّ أنْتَ مُقْلَتهْ ... ما لابنِها رقْمُ خطِّكَ الحَسَنْ[232]

2) يقولُ كُلُّ لَبِيبٍ أبْصَرَهْ: ... لِلّهِ درُّكَ يا أبا الحَسَنْ

[حاله]

وكثيرا ما يتأثر بالسماع، وينفعل بنغمات الألحان، عارفا بطبوعها، وقوالب أصواتِها، متين الدين، جاريا على منهج المهتدين، مُحَدِّثا واعظا، متقشفا زاهدا، ورعا خاملا، شاعرا مُجيدا مطبوعا.

[تآليفه]

له تأليف في أسرار العبادات، كل قضية يشيرّ فيها للصلاة على النبي (ص)، كما عند صاحِبَيْ «تنبيهِ الأنام»، و«سيرةِ المحتاج، في صاحب اللواء والتاج»[233].

[231]- أبو الحسن، علي بن هلال الكاتب. (ت 413 أو 423هـ). ترجمته في الوفيات: 342/3-344. رقم 457.

[232]- البيتان في ديوانه: 283.

[233]- لعل المقصود «ذخيرة المحتاج، في الصلاة على صاحب اللواء والتاج»، لمحمد المعطي الشرقي. (مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 2770 ك).

[وله منظومة ميمية في علم الكلام، ومقطعات] نفيسة[234].

41) [أبو عبد الله، محمد المحدث، ابن الحاج السُّلَمِيّ][235]

[ومنهم أبو عبد الله، محمد ابن الشيخ][236] أبي الفيض، حمدون. شيخنا أبقى الله مجادته.

[مولده]

ولد بفاس في نيّف ومئتين وألف (1200هـ/1785م)، وبها نشأ في حِجر والده وعمه، أبي محمد، عبد الله، على أحسن نبات، وأجمل صفات. وقرأ القرآن وجوّده على الشريف الأستاذ الصالح، أبي محمد، عبد السلام بن أحمد أخريف الحسني.

[مشيخته]

ثم شمّر عن ساعد الجدّ في قراءة العلم على علماء العصر بقدر الإمكان، والفتح الرباني يسير به في الفهم، مسير شهر في يوم. ولما خامرته نشوة التحصيل، انثال في طلب التحقيق إلى مجلس كل شيخ جليل. فاعتمد في العربية والفقه صِهْرَيه: العلامة أبا عبد الله، محمد بن عمرو الزروالي[237]، والحافظ أبا عبد الله، محمد ابن منصور[238]، والعلامة أبا العلاء، إدريس، ابن مولانا زين العابدين الحُسيني العراقي[239].

---

[234]- العبارة مضروب عليها في ميم.

[235]- اشتهر هذا العلامة بلقب المحدث بين علماء فاس، لحفظه الصحيحين، فأثبتناه له، تمييزا له عن غيره.

[236]- ما سبق مضروب عليه في ميم. وترجمته في: الدرر. 328/2. السلوة: 1/156-157. الإعلام: 6/ 306-308. رقم 819. الشجرة: 401/1. رقم 1405. الشّرب: 238. إعلام أئمة الإسلام: ملزمة 2. ص 5-6. معجم المطبوعات: 100-101. رقم 255. توفي سنة 1274هـ. بعد وفاة المؤلف شقيقه.

[237]- فقيه عالم فاسي. (ت 1230هـ). ترجمته في: الشجرة: 377/1. رقم 1511. السلوة: 5/3-6. الشّرب: 219.

[238]- فقيه فاسي. (ت 1332هـ). ترجمته في: السلوة: 6/3. الشرب: 221.

[239]- عالم فاسي. (ت 1228هـ). ترجمته في: الشرب: 218. السلوة: 33/3-34.

واعتمد في الكلام والأصلين، والبيان والمنطق، والتَّفسير والحديث، والتَّصوُّف والفقه، والده الشيخ أبا الفيض، حمدون، والشيخ أبا عبد الله، محمد الطَّيِّب ابن كيران.

حتى بلغ الأرب، في تحقيق علوم الأدب، من النحو والتصريف، والاشتقاق واللغة، والعروض والمعاني والبيان، والأصلين والمنطق، وانفرد في علم الحديث بالحفظ والإتقان والضبط، وصار ممن يُرجَع إليه في بيان المتن والتعليل، وعليه يُعتَمد في طرق الجرح والتعديل، فاتسعت بذالك عارضته، واشتدت في العلم والعمل عنايته، مع الدين المتين، والسير على سنن المهتدين، والهمة العالية، والرتبة السامية، والورع والزهد، وكثرة الصيام والتهجد.

[تتلمذ المؤلف عليه]

قرأتُ عليه صحيحَي البخاري ومسلم، والشفا للقاضي عياض، وموطَّأ الإمام مالك، وشمائل التِّرمذي، وألفيَّة العراقيّ في الاصطلاح، وألفيَّة ابن مالك بشرحَي المكوديّ وابن هشام، والسّعد والمَحَلّي، والنّصف من مختصر خليل، وخريدة الشيخ أبي الفيض والده في المنطق، بشرح الشيخ سيدي الطَّيِّب، والجرومية وابن عاشر. واستفدت من علومه بالمذاكرة في غالب الفنون، ما وجدتُ بركة الانتفاع به في ديني ودُنياي. وسمعتُ من حكمه ومواعظه ووصاياه ونصائحه، ما تتأثر به القلوب القاسية، وتنقاد له النفوس الأبية.

[مؤلّفاته]

له مؤلفات مجلوّة في منصَّة الإفادة، كالعرائس مُقَلَّدات من تحقيقاته بالجواهر النفائس. منها:

– الشرح على بعض الأبيات من الخُمُسين الأخيرين من ميمية والده الشيخ أبي الفيض. كَمَّل به شرح والده عليها بإذن منه عند وفاته. قال له فيه: لم يبق شيء من الدنيا في قلبي، إلاَّ عدم إكمالي الميميَّة. ولكن لا يخفى عليك شيء، إن شاء الله. ولا يصعب عليك إلا الترتيب، وصفته كذا وكذا. وشرحه، لعمري، من أحسنها وَضعا، وأبدعها صُنعا، وأوسعها جَمعا، وأعمّها نَفعا. تبدو إحسان النُّكَت خلال سُطوره، فكأنه الحور العينُ داخل قصوره.

- ومنها: [الشرح على خريدة والده في المنطق][240]، وهو عن باعه في هذا الفن وغيره ينطق. سماه بـ «الجوهرة الفريدة، في حل رموز الخريدة».

[نماذج من أشعاره]

[وله في نظم الشعر][241] عارضة، وتحتقر[242] بديهتُها صريع الغواني[243]، وبديع الزمان[244].

فمن ذالك قوله في مدح مولانا السلطان، أبي الظفر والنَّصر، عبد الرحمان بن هشام، لما فتح قصبة الشرادي، بعد أن أكل اشتوكة والشياظمة[245].

[الحائية في مدح المولى عبد الرحمان]

وقال في ذالك بعض كتابه قصيدة مطلعها:

[الوافر]

1) فُتوحٌ في مُضَمَّنِها فُتوحُ ... بِهِ تَغْدو البشائِرُ أو تَروحُ

2) وَنَصْرٌ خافِقُ الأعلامِ نامٍ ... و«سَعْدٌ» في مُصَنَّفِهِ شُروحُ

3) إذا المَنصورُ أزْمَعَ أرْضَ قَوْمٍ ... تَلاقَتْهُ البَشائِرُ والفُتوحُ

4) وجاءتْ نَحْوَهُ الأعداءُ تَسْعى ... عَلَيْها مِنْ تَذَلُّلِها كُلوحُ

5) ولما بَغَتْ زُرارَةٌ واستَطالَهُمْ ... شَيعَتُها وَغَرَّهُمُ الوَقيحُ

6) طَوى عَرْضَ البَسيطَةِ في جُنودٍ ... تَضيقُ بِها البَسيطَةُ، وَهْيَ فيحُ

7) أباحَ حِماهُمْ فَكُسوا هَوانًا ... وَذو الإعجابِ مَهْلَكُهُ صَحيحُ

8) وَغَرَّهُمُ التَّحَصُّنُ بِالمَباني ... وهَلْ تُنْجي مِنَ القَدَرِ الصُّروحُ؟!

240- ما بين معقوفين مضروب عليه في ميم.

241- ما بين معقوفين مضروب عليه في ميم.

242- كذا بالأصل. والصواب إسقاط الواو.

243- شاعر عباسي اسمه مسلم بن الوليد الأنصاري. (ت حوالى 200هـ) ترجمته في: طبقات الشعراء: 234-240. الشعر والشعراء: 2/712-720. فوات الوفيات: 4/136-142. رقم 524.

244- أحمد بن الحسين. أديب عباسي كبير (ت 398هـ) ترجمته في: يتيمة الدهر: 4/293-344. رقم 64. الوفيات: 1/127-129. رقم 52.

245- كان فتحها سنة 1244/1828. انظر الاستقصا: 9/17-24.

9) وَأغـــواهُمُ[246] مُـــضِلُّهُم، بِزورٍ — فَـأصْبَحَ لِلفَسَـادِ لَهُمْ طُمـوحُ

10) غَـدَتْ هامـاتُهُمْ ثَمَـرَ العَـوالي — وحُكِّمَ في رِقـابِهِمُ الصَّـفـيحُ

11) فَـهُمْ مِنْ بَعْـدِ قَـتْلٍ وانهِـزامٍ — أسـيـرٌ أو شَـريدٌ أو جَـريحُ

12) وَفَـرَّ مُـضِلُّهُمْ فَـأضْـحَـوا — أياد(ي) سَبَـا وَوَعْـدُ عَـلاهُ ريحُ[247]

ومنها:

13) وَهُدَّتْ مِن قُـصورِهِم مَـبانٍ — وعَـمَّـتْـهُمْ على رَغْمٍ فَـضوحُ

14) فَـأضْحَتْ بَعْـدَ عِـزَّتِها يَبـابًا — عَلَيْـهـا اليَـوْمَ عـاكِـفَـةٌ تنوحُ

15) إذا مـا اللَّهُ شـاءَ هَلاكَ قَـوْمٍ — فَـلا حَـذَرٌ لِبَلْواهُمْ يُزيحُ

16) عَـمُوا عَنْ رُشْدِهِم بَغْـيًا وَصَمُّوا — فَـلا وَعْظٌ يُفِـيدُ ولا نَصـيحُ

ومنها في مدح مولانا السلطان:

17) فـلا عَـدِمَـتْكَ أبْنِيَـةُ المَعـالي — فَـإنَّكَ لِلعُلى جِـسْمٌ وروحُ

وبعث بها مولانا السلطان لحضرة فاس، واستمطر أنواء قرائح أعلامها في قصائد في ذالك المعنى. فكان من جملة من قال في ذالك صاحب الترجمة، ونَصُّه:

[حائية أبي عبد الله محمد المحدث]

[الوافر]

1) إذا نَصْـرٌ لِذي مُلْكٍ تَبَـدَّى — فَـلا عَـجَبٌ لهُ سَـعْيٌ ربيحُ

2) بدا بَدْراً مُنيـراً في نُجُـومٍ — طَوالِعُـهـا الخُيُـولُ لَهُ سَـبوحُ

3) تُبَـشِّـرُنا بِفَـتْحٍ كُلَّ حينٍ — ومـا تُنْبي به، فَـهْـوَ الصَّحيحُ

4) ثُغـورُ فُـتوحِـهـا ذاتُ ابتِسـامٍ — «فُـتوحٌ في مُضَـمَّنِها فُتوحُ»[248]

5) جَلَتْ وَجْـهًا يُلازِمُـهُ احْـتِشـامٌ — ولَكِنْ لِلعِـدى وَجْـهٌ وَقـيحُ

6) حَـقِـيـقَـتُـهُمْ لَها فَـشَلٌ وَجُبْنٌ — وَتُرَّهَةٌ، وكَلْبُـهُمْ يَصـيحُ

[246]– الكلمة مضروب عليها في الأصل.

[247]– عروض الشطر مكسور. ويستقيم بالمد في «أيادي» وتسهيل همزة «سبا».

[248]– الشطر مقتبس من مطلع القصيدة السابقة المعارضة.

7) خُرافَتُهُ حَوَتْ خَرَقًا وحُمْقًا … وخِسَّتُها نِهايَتُها النَّبيحُ

8) دَهاهُمْ ما دَهاهُ، وقَدْ دَعاهُمْ … وَلَيْسَ بِنافِعٍ شِقًّا سَطيحُ[249]

9) دُروعٌ سابِغاتٌ في الوَرى قَدْ … أَرَتْهُمْ مِنْ عَمى سَيْلاً يَسيحُ

10) رأَوا مِنْ سَطْوَةِ القَهَّارِ لَمَّا … يُحاطُ بِهِ، وشارِدُهُمْ يَنوحُ

11) زُرارَتُهُ غَدَتْ ذاتَ انْهِزامٍ … لُحومُهُمْ على وَضَحٍ طريحُ

12) طَمَتْ وَحَسٌ عَلَيْها كُلَّ وَقْتٍ … وَثائِرُها لَهُ نَعْيٌ صَريحُ

13) ظُبى تَبْري وتُبْدي كُلَّ سوءٍ … وَشَرُّ الظَّالِمينَ لَهُ مُزيحُ

14) كِفاحُهُمُ صَفيرٌ أو مُكاءٌ … وَشَأْنُ الخِبِّ سَفْسَطَةٌ وريحُ

15) لُيوثُهُمُ غَدَتْ كَلْبًا نَبيحًا … وشِبْلُهُم غدا ذِئبًا يَصيحُ

16) مَحَتْ عِبَرٌ مَحاسِنَهُم كُهولاً … وشُبَّانًا نِساءَهُمُ تُبيحُ

17) نَحَتْ غَمَراتِ مَوْتٍ ثم أَلْقَتْ … بِأَيديها لِتَهْلُكَةٍ تُريحُ

18) ضُروبٌ مِن دُهورٍ قَد أفادتْ … وَهُدَّتْ مِن سُلالِها الوَطيحُ

19) ضُرُوبٌ مِن شَآمَتِهِمْ أباحَتْ … دِماءَهُمُ بِفَيْفا فيهِ فيحُ

20) عَلَتْ هاماتِهِمْ بِمَنارِ نارٍ … وَإفلاسٍ لَهُم تُبْديهِ يوحُ

21) غَلَتْ مُهَجٌ لَديهِمْ إذ تَلَقَّتْ … حُتوفًا مِن نُحوسِهِمُ تُريحُ

22) فَدَيْتُكَ قُمْ على ساقٍ وَجِدٌّ … لِخِدْمَةِ مَن لَهُ نَسَبٌ مُريحُ

23) قَريبٌ خَيْرُهُ مُتَدارَكٌ لا … يُنالُ بِحيلَةٍ، حَبْرٌ فَصيحُ

24) سَريعُ ندى، طَويلُ هُدى، تَقِيٌّ … مَديدٌ يَداً، مَحاسِنُهُ تَلوحُ

25) شَريفٌ مِن كَريمٍ مِنْ زَكِيٍّ … سُلالَتُهُ نَوافِحُها تَفوحُ

26) هِلالٌ سَناهُ يُبْديهِ السَّماحُ … فَيا لَهُ مِنْ سَنًا تَفْديهِ روحُ!

27) وَجيهٌ لا يُقاسُ بِهِ سِواهُ … نَزيهٌ، مِن نَباهَتِهِ صَفوحُ

28) يَحِقُّ خِتامُنا بِثَناءِ حادٍ … على هادٍ مَدائِحُهُ تَروحُ

---

[249]- شق وسطيح من كهان الجاهلية. انظر سيرة ابن هشام.

ولما وصلت قصائد أهل فاس، وهي نحو الثلاثين، لحضرة السلطان بمراكش، وقُرئت كلّها بين يديه، وقد أخذت بمجامع قلبه وقالبه، وأعجب بها، وأجازهم بنحو ألف مثقال، حضر هناك من قد أضمر قلبه حسدا ونفاقا، وبغضا وشقاقا، وتكلم فيها بما هي بريئة منه، وأغرى الأديب السيد عبد الله الرّوميّ الشّنكيطيّ على أن قال:

[لامية عبد الله الرومي الشنكيطي

في نقد شعراء فاس وهجائهم]

[الطويل]

1) إلى شُعَراءِ الغَرْبِ دارِ التَّجَمُّلِ ... ودارِ مُلوكِ الخَيْرِ أَهْلِ التَّفَضُّلِ

2) سَلامُ امرئٍ نائي المزارِ مُسائلٍ ... ومن يُرَ مِنْ نادي العَجائبِ يُسْأَلِ

3) لأيِّ مَرامٍ فَاصْدِقُونا[250] عَوَيْتُمُ ... أمِنْ فَقْدِكُمْ أَهْلَ النَّسيبِ المُعَلَّلِ؟

4) جَلَبْتُمْ مِنَ الغَرْبِ القَصِيِّ قَصيدكُم ... وما كانتِ العَجْفاءُ أَهْلَ التَّنَقُّلِ

5) قَصائدُ ما صلّتْ عَلى خيرةِ الوَرى ... وما طُوِّقَتْ من حِلْيَةِ المتَغَزِّلِ

6) عَواطِلُ مِن مُسْتَحْسَنِ الشِّعْرِ لَمْ تَزَلْ ... تَجُرُّ ذيولَ المَقْتِ في كُلِّ مَنْزِلِ

7) ولم تَحْظَ مِن عِلمِ البَلاغَةِ بِالّذي ... يَزينُ مَديحَ المُسْتَميحِ المُؤَمِّلِ

8) تَمُرُّ عَلى الآذانِ، وهْيَ ثَقيلةٌ ... كَأنْ على القاري صَفائحُ جَنْدَلِ

9) ولا الجُلُّ مِنها ذو اتِّزانٍ وأَنْتُمُ، ... لعَمْري، رِعاعٌ من رِعاعِ المُضَلَّلِ

10) وذالِكَ مِن جَهْلِ البَيانِ الّذي بِهِ ... عُذُوبَةُ قَوْلِ الشّاعِرِ المُتطاوِلِ

11) جَهِلْتُمْ مِنَ الشِّعْرِ الجميلَ، إنَّهُ ... بديعُ المعاني، ذو البَيانِ المُفَصَّلِ

12) ومن حاكَ أمداحَ المُلوكِ ولَمْ يَكُنْ ... خَبيراً بِأسرارِ البَلاغَةِ يُعْذَلِ

13) تَشاغَلْتُمْ بِالفِقْهِ إذ كانَ هَمُّكُمْ ... طِلابَ المعالي بِالقَضاءِ المُضَلَّلِ

14) تخالُونَ كُلَّ العِزِّ في خُطَّةِ القَضا ... ودارُ القَضا دارُ السَّخيفِ المُذَلَّلِ؟!

15) إذا كانَ هَمُّ المرْءِ تَحْصيلَ عَيْشِهِ ... فَأيُّ جَميلٍ يَقْتَنيهِ مؤَثَّلِ؟!

[250]- في الأصل: واصدقونا.

16) وإنَّ فَتى الفِتيانِ مَنْ كانَ سَعْيُهُ — إلى أدَبٍ يَزْكُو لَدى كُلِّ مَحْفَلِ
17) وكانَ مِنَ المَطلوبِ أن تتأنَّقُوا — بِكُلِّ ثَلاثٍ جَهْلُها غَيْرُ أمْثَلِ
18) وقد بَسَطَتْ أيْدِي الرِّجالِ مُهِمَّها — بِخاتِمَةِ «التَّلخيصِ» لِلمُتَأمِّلِ

وقد رد عليه أهل فاس، وشنعوا عليه في ذالك غاية. ومن جملة من قال في ذالك صاحب التَّرجمة، ونصُّه:

[لامية أبي عبد الله، محمد المحدّث، في الرَّدِّ على عبد الله الرّومِيِّ الشّنكيطي]

[الطويل]

1) ألَسْتَ تَرى شِبْلاً تَجَرّأ في الوَغَى — يُبارِزُ أعلامًا بِرُمْحٍ مُهَوَّلِ
2) وَوَاللَّهِ، والمُختارِ، لَوْلا دِيانَةٌ — لَوافَتْهُ أعباءُ بِذَمٍّ مُثَقَّلِ
3) يُمَوِّهُ أقوالاً بِزورٍ وزُخْرُفٍ — وحَدْسٍ وتَخْمينٍ ومَيْلِ مُضَلِّلِ
4) يُمَزِّقُ أعراضًا ذَوُوها تَنَزَّهوا — عَنِ النُّطْقِ بِالفَحْشَا، وعَيْبٍ مُنَكِّلِ
5) بِعِلْمٍ تَوَسَّلُوا، وحِلْمٍ تَوَصَّلُوا — وَسادوا عَلَى الأعداءِ بِمَجْدٍ مُؤَثَّلِ
6) لَهُمْ سَلَفٌ بِالمَكْرُماتِ تَقَدَّموا — لَهُمْ شَرَفٌ يَعْلُو على كُلِّ مُعْتَلي
7) بِدايَتُهُمْ تَحْصِيلُ سَعْيٍ مُطَوَّلٍ — وَغايَتُهُمْ تَفْصيلُ لُغْزٍ ومُشْكِلِ
8) فَما الفِقْهُ إلاّ ما حَوَتْهُ صُدورُهُمْ — بِتَحْرِيرِ أنْقالٍ، وحِفْظِ «مُحَصَّلِ»
9) بِهِ قامَ شَرْعُنا، ومن يُلْفَ زائِغًا — يَحِدْ عَنْ نَعيمِ ظِلِّ عَيْشٍ مُظَلَّلِ
10) ومِنْهُ صَلاتُنا على خَيْرِ مُرْسَلٍ: — ثَوابٌ لَها بادٍ بِنُطْقٍ مُوَصَّلِ
11) بِهِ اتَّسَقَتْ عِبادَةٌ قَد تَناسَقَتْ — بِدارِ قَضاءٍ، دارِ هادٍ مُفَضَّلِ
12) هُوَ العالِمُ النِّحريرُ، والسَّيِّدُ الَّذي — سَما واعْتَلَى قَدْرًا «بِسَعْدٍ مُطَوَّلِ»
13) هُوَ الماجِدُ الحامي الذِّمارِ ومَنْ يَكُنْ — بِهِ يَحْتَمِي، يَظْفَرْ بِمَرغوبِهِ الجَلي
14) ولَمْ يَخْشَ مِن عادٍ يَعُدُّ مَعائِبًا — لأشعارِ غَرْبٍ، لَيْتَهُ لم يُعَوِّلِ!
15) جرَى صاحِبُ القَريضِ في غَيْرِ مَهْيَعٍ — ولا حَرَجٌ يُلْفيهِ: أفعى بِأخْيَلِ
16) وما الشِّعْرُ إلاّ مِن قَواعِدَ أُسِّسَتْ — يُحَبِّرُها الحُذّاقُ في كُلِّ مَحْفَلِ

17) وما القَصْدُ بالبَليغِ إلا تَطابُقٌ ... لما يَقْتَضيه الحالُ من ذي تَأَثُّلِ

18) وَحالُ قَصيدٍ من وزيرٍ قد اقتَضَى ... مُعارَضَةً مَعروفَةً لِلْمُؤَهَّلِ

19) أيَخْفَى تَأَنُّقٌ على ذي فَصاحَةٍ ... غزا له صَرْمًا[251] في البهاءِ المُهَلَّلِ

20) تَعالَيْتَ، إذ أبْدَيْتَ قَدْحًا تَذَمُّمًا ... تَعالَيْتَ، إذْ أخْفَيْتَ مدْحًا ولمْ تَلِ

21) وَما أنْتَ إلاَّ مِنْ فَريقٍ تَشَرَّدوا ... وَآبوا بِخُسْرانٍ وخَسْفٍ مُعَجَّلِ

22) وَلَوْ لمْ يَكُنْ في شِعْرِ غَرْبٍ لَنا سِوى ... مَديحِ أبي زَيْدٍ، كَفى في التَّنَفُّلِ

23) مَليكٌ سَبَا حُسْنٌ لَهُ كُلَّ مُحْسِنٍ ... وإحسانُهُ أربى عَلى كُلِّ مُعْتَلي

24) مَليكٌ إمامٌ عدلُهُ عَنْ تواتُرٍ ... وَخَيْراتُهُ عَنْ كُلِّ حَبْرٍ مُحَصِّلِ

25) مَليكٌ، غَمامٌ وَبْلِهِ في تراكُمٍ ... وغَيْثُهُ قَدْ وافى بزَيْدٍ مُسَلْسَلِ

26) سَليلُ هِشَامٍ زانَهُ اللّهُ بالحَيَا ... وبالعِلْمِ والحِلْمِ النَّقِيِّ المُوَصَّلِ

27) فلا زالتِ الأقْيالُ تَخْدُمُ بابَهُ ... وَتَرْصُدُ نَجْمًا في سُعَيْدٍ مُؤَمَّلِ

28) بِحُرْمَةِ مَنْ أنْشاهُ قافِيَ جَدِّهِ ... عَلَيْهِ صَلاةٌ مِن حَبيبٍ مُكَمَّلِ

[نماذج من شعره]

ومن نظمه أيضا مخاطبا لبعض قضاة العصر، على لسان الغير، لأمر اقتضاه الحال:

[الطويل]

1) أقاضِيَنا نَجْمَ الهُداةِ ونَجْلَهُمْ ... وأسْوَتَهُمْ في الفَضْلِ إذْ هُوَ بِهِ أحْرَى

2) وَصَلْتَ بِحَبْلٍ لِلشَّريعَةِ فَصْلَهُمْ ... فلم يَخْتَشوا زَيْداً، لِذاكَ، ولا عَمْرَا

3) أبَنْتَ لَهُمْ مَجْداً صَميمًا مُرَفَّعًا ... بِمَحْوِ ظَلامِ الجَوْرِ، غايَتُكَ الشِّعْرى

4) فَوافَى وعْدٌ مِنْكَ وافٍ مُوَفَّرٌ ... وإنْجازُهُ سيما الكِرامِ، ولا فَخْرَا

5) جَزاكَ إلاهُ العَرْشِ خَيْرَ جَزائِهِ ... ولَقَّاكَ ما يُرْضيكَ في ذي وفي الأُخْرَى

6) بِجاهِ مُحَمَّدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ ... وتابِعِهِمْ يَسْمو بِطَلْعَتِكَ الغَرَّا

وقال مُعَجِّزا، وقلت مُصَدِّرا، لبيتي الفقيه الجليل الماجد، أبي مالك، مولانا عبد الواحد،

251- كذا في الأصل.

ابن أمير المؤمنين، سيدي محمد بن عبد الله[252]، حين وقف على ما قاله البقاعي[253] في حق ابن الفارض والحاتمي[254]:

[الطويل]

1) أبو حَـفْـصِنا والحـاتمي تَمـايَلا بِسُكْرِ كُؤوسِ الحُبِّ في ذي الوَرى قِدْمَا

2) وأشْـرَقَ سِـرُّ باطِنٍ مِنْهُـمـا سَنًا فباحَ بما قَدْ كانَ يَسْتَوْجِبُ الكَتْمَا

3) لِذا جُلِدا بِالسَّـيْفِ عِنْدَ أئِمَّـةٍ بِظاهِرٍ، إذ لم يَألَفُوهُ لَهُمْ فَـهْـمَا

4) وكُلٌّ عَلى كُلٍّ هُدى، ولكن هُما قَذى لِقَـوْلِهِـمـا بِمـا أحاطا بِهِ عِلْمـا

ووقع بينه وبين قضاة العصر شنآن، فأنشده والده ارتجالا[255]:

[مجزوء البسيط]

1) احْـفَظْ[256] عِـدادَكَ مِنْ عُـدولٍ مـادامَ هذا القَـضـاءُ سـاقِطْ

2) قـاضِـيكَ لو كـانَ مِنْ شُـهـودٍ، وأنتَ قـاضِـيـهِ، كُنتَ سـاخِطْ

[[257]]

وسيأتي، إن شاء الله، بعض الكلام فيه، زيادة على هذا في باب التلاميذ[258]

---

[252]- ترجمته في: الدرر: 172/1.

[253]- أبو الحسن، برهان الدين، إبراهيم بن عمر الرباط الحرباوي. (ت 885هـ). ترجمته في: الضوء اللامع: 101/1-111. وله كتاب اسمه: «تنبيه الغبي، إلى تكفير ابن عربي». نشر بعنوان: «مصرع التصوف».

[254]- محيي الدين، أبو بكر ابن عربي الطائي الإشبيلي المرسي (ت638هـ). ترجمته في: الذيل: 493/6-498. رقم 1277. العنوان: 58-160. الوافي: 173/4-178. النفح: 161/2-169. التكملة: رقم 1023. فوات الوفيات: 435/3-400. رقم 484.

[255]- البيتان في: الإعلام: 308/6. ديوان حمدون: 155.

[256]- الإعلام: 308/6. ديوان حمدون: 115: أسقط.

[257]- بياض في الأصل نحو سبعة أسطر.

[258]- لم يكتب المؤلف هذا الباب في تقديرنا.

رَوْضَةُ الأُقْحُوان

في حالِ الشَّيخ أبي الفَيضِ حَمدونَ
في الـمَنشَإِ والعُنفُوان.

الباب الأول

في نشأته في البداية، وما منّ الله به عليه من أسرار العلوم في النّهاية.

قد تظهر في أول نشأة الإنسان علامات يُعَزُّ بها أو يُهان، فيستدلّ على ما يكون بما كان. وربّ فراسة أصدق من عيان. فأقول:

[مولده]

ولد الشيخ أبو الفيض، حمدون ابن الحاج بحضرة فاس، سنة أربع وسبعين ومئة وألف (1760/1174). ولم أحصّل على التّعيين في ذالك، لأن الشيخ كان يخفيه، ولم يجب السائل عنه يوماً ما بما يكفيه، أخذاً برأي الأكابر الّذين رأوا الصّفح عنه في الزمان الأول والآخر، صوناً للمروءة عمّا يُخِلّ، حتى تتوفّر دواعيها ولا تضمحلّ.

قال ابن الخطيب في الإحاطة[259]، نقلاً عن شيخه المقري[260] صاحب الكلّيّات، في ترجمته من الإحاطة، بسنده إلى بعض أصحاب الإمام الشافعي، وكلّ يقول:

«سألت فلاناً عن سنّه فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت مالكاً عن سنّه فقال: أقبل على شأنك. ليس من المروءة للرجل أن يخبر عن سنّه». -

وفي الديباج[261] عن الأبهري[262]، قال مالك : «إخبار الشيوخ عن سنّهم سفه».

[259]- الإحاطة: 226/2. بتصرف في النقل.

[260]- أبو عبد الله، محمد القرشي المقري. (ت 759هـ). أديب فقيه. ترجمته في: الإحاطة: 191/2-226. النفح: 203/5-350. المرقبة: 169-170. تاريخ ابن خلدون: 534/7-536. النيل: 249-254. السلوة: 271/3-273.

[261]- الديباج:209/2. وفيه: «إخبار الشيوخ عن أسنانهم من السفه».

[262]- أبو بكر، محمد بن عبد الله. (ت 395هـ) فقيه مصري. ترجمته في: الديباج: 206/2-210. الوافي: 308/3. رقم1357 .

قال بدر الدين القرافي[263] في «توشيح الديباج، وحلية الابتهاج»[264] ما حاصله:

«وإنما كان الإخبار بالسنّ ليس من المروءة، لأنه يستدعي تذكرة الولادة، وما يكون عليه المولود في البداية، مما لا تتيسّر أسباب المروءة معه، مع الجهل بالمضرّة والمنفعة، ولأنه يدعو في الجملة إلى التكذيب، ممن لا يرى أن الله عليه رقيب.» انتهى.

وإلى هذا تتوجّه العناية بقول الشيخ أبي البركات[265] ابن الحاج، المتقدم الذكر:

[الكامل]

1) احْفَظْ لِسانَكَ لا تَبُحْ بِثَلاثَةٍ ... سِنٌّ ومالٍ، إنْ سُئِلْتَ، ومَذهَبِ

2) فعَلى الثَّلاثَةِ تُبْتَلى بِثَلاثَةٍ ... بِمُكَفِّرٍ وبِحاسِدٍ ومُكَذِّبِ

وقول الشيخ أبي حفص الفاسي[266]:

[الكامل]

1) اَلْمَرْءُ يُسألُ دائماً عَنْ سِنِّه[267] ... والرَّأيُ والمالُ المُسَوَّدُ مَنْ يسودْ

2) فإذا سُئِلْتَ فلا تُجِبْ عنْ واحِدٍ ... خَوْفَ المُكَذِّبِ والمُكَفِّرِ والحَسودْ

فالتعرض للكذب من أقبح الشيم، وآفة المروءة الوقوف بمواقف التُّهم.

قيل لعبد الملك بن مروان: أكان مُصعَب بن الزُّبير يشرب الطِّلى؟ قال: لو علم مُصعَب أن الماء يفسد مروءته ما شربه.

---

[263]- محمد بن يحيى. الفقيه القاضي. (ت 1009 هـ) ترجمته في: النيل:245. ومقدمة التوشيح. الفكر السامي:273/2.

[264]- التوشيح: 44، بتصرف كبير في المعنى.

[265]- في النفح: 207/2 (بالهامش)، أن البيتين لمحمد بن عبد الباقي البزار، عن صيد الخاطر لابن الجوزي: 346.

[266]- عمر بن عبد الله الفاسي. أديب عالم فاسي. (ت 1188 هـ). ترجمته في الدرر:286/2. الحياة: 306-311. تاريخ تطوان:80/3. العناية: 60-66.

[267]- البيتان في: العناية:61 . السلوة: 337/1.

وقيل:

[الطويل]

1) أعِفُّ عَنِ الأمـرِ القَـبـيـحِ تكَرُّمــاً	وإن لَمْ أكُنْ بَراً ولا مُـتَـخَـشِّـعــا
2) وأمنَعُ نَفْـسي مـا تَلَذُّ وتَشـتَـهــي	إذا أنا يَوْمًـا خِفْتُ عَـيْبًا ومَـقْرَعـا
3) ولـو خِلْتُ أنَّ الماءَ يَوْمـاً يَشـينُني	لَمِتُّ، ولَمْ أجْـرَعْ مِنَ الماءِ مَـجْرَعـا

[نشأته]

ونشأ الشيخ أبو الفيض في حِجر والده، نِشأة عفَّة وصيانة، يسمو به شَمَم همّته إلى أشرف مكانة. صانته أصالة الرأي عن الخطل، وحاشته فضيلة العقل أن يرعى مع الهَمَل.

ولما بلغ سن التعليم، صرفه والده للمكتب، فكان لا يبرح ولا يريم، دائمَ السُّلوك في طرق المراشد، حريصا على الاِعتناء بجميع أنواع المحامد، مقبلا على المفروض والمسنون، تاركا للصبيان في خوضهم يلعبون، آخذا بالجد والاجتهاد، وظاهرا في مظاهر الإقبال والإمداد، موفَّقا مؤيَّدا، مُعانا مُسَوَّدا، حافظا لما يُملى عليه، عارفا بما رُسِم لديه، فحفِظ القرآن في أقرب مدَّة، ووصل لما يرجع لتجويده ورسمه وشكله حدَّه، وأبدع في جودة الخط على كيفيات من التضييق والبسط، لمكان التمكُّن في الحضارة، التي هي في أشكال الصنائع نتيجة المهارة، فكان مشرقيًا تارة، وأندلسيًا أخرى. وكلاهما في باب الجودة آية كبرى.

ثم أخذ في الاِعتناء بحفظ المتون، على حسب المتداول بين الناس في الفنون، مقاصد ووسائل على نهج الأكابر والأوائل.

[دراسته]

ولما كوشف له نور الرُّشاد، عن وجود أهل الخير والسَّداد، كان لا يطوف إلا بكعبتهم، ولا يُنيخ رحلَه إلا بمحلتهم، فيقصد بلوحه للاِبتداء بعد الختمة، من يُقطع بأن وجوده في الناس أمان لهم ورحمة، فكانوا يدعون له بالفتح المبين، ويتعجبون من سيره طفلا على سنن المهتدين.

[الطويل]

1) وَرَجُّ الفَـتى لِلخَـيـرِ مـا أن رَأَيتُـهُ	عَلى السِّنِّ خَـيــرا لايَزال يُريدُ

ولله درّ من قال:

[البسيط]

1) في الـمَـهْـدِ ينْطِقُ عَن سَعـادَةٍ جَدُّهُ   أثَرُ النَّجـابَةِ سـاطِعُ البُـرهانِ

ومن حسن إخلاص والده في نيّته، ورجوعه إلى الله في شأنه، متبرئا من الحول والقوة، أن اختار لتعليمه من المكاتب، ما تحقق عنده تعجيلُ المنافع بحصول المآرب، بأن انحاش إلى حيث مطلع الإشراق والأنوار، وبحر المعارف والأسرار، الوليُّ الصالح، سيدي أنوار، فكان أول ما صرفه عند كمال فطنته إلى مؤدب كان بداخل روضته، وهو الفقيه الأجلّ التالي لكتاب الله، عزّ وجل، الراقي مرقى الدّراري، أبو الحسن، عليّ الهَواريّ.

فلا غرو، إذن، أن حصّل الشيخ أبو الفيض، نفع الله به، في الحين على أسنى الرغبات، لما سَنّى الله به منذ كان من تتابع البركات.

ثم لما شرح الله صدره للفهوم، وألهمه العناية بطلب العلوم، والأخذ منها بجامع الخصوص والعموم، والوقوف على حقائقها بمضائق التّحقيق، والكشف عن وجوه مشكلاتها بيد التصور والتصديق، فجلس بين يدي جلّ أشياخ عصره، الآتي ذكرهم، للتعليم في المبادئ الواجبة التقديم، وحلّ منهم محلَّ الإثمد من العيون، كاشفا بأنوار أبحاثه عن السّرّ المصون، بذهن أمضى من الصّارم المسلول، في جملة من أوضاع المعقول والمنقول، إلى أن خاض من وسائلها كلّ بحر ونهر، واجتلى من مقاصدها كلّ شمس وبدر، وفُتِح له الباب، وكُشِف عن فكره الحجاب، وتضلّع بالعلوم، وتحقق في دقائق الفهوم، وآنس من نفسه النَّجابة، ورأى فكره سابقا في مجال الإصابة، فاقتصر على أوسعهم نظرا في مسارح التحقيق، وأحسنهم تعبيرا في فصل المخاطبة بالتصور والتصديق، فلزمه في أكثر الفنون المتداولة، كان هو المملي في جُلّها بعبارةٍ تنسجم إعرابا وبيانا، كأنما ينفث سحرا أو ينثر جمانا، وفهْمٍ يبلغ في مسالك الإدراك أقصاها، وحفظ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ووجهة كالمغناطيس، تجلب النفع الظاهر والباطن، وتكشف عما كان من الأسرار اللدنية، كالكنز الكامن. حتى كمل بدره، وفاض بالتحصيل بحره، وتمت به ملكة الاقتدار في أسواق العلوم، على الاقتناء والادخار، وتأهل للأخذ عنه والانتفاع به، وصار

علاّمة الدُّنيا، ويده في المشكلات هي العليا، بحرا زخّارا، حَبْرا نَظّارا، جامعا لأدوات الاجتهاد، مائلا إليه في الحكم والاعتقاد، يَرُدُّ على أئمة المذاهب بالدليل الواضح، والاعتبار المناسب، بالغا غاية الأرب، في تحقيق علوم الأدب، من النحو والتصريف والاشتقاق، واللغة والعروض والقوافي، والمعاني والبيان والبديع، وصناعة الشِّعر والتَّرسيل والخطب، والسِّيَر والمغازي وأنساب العرب وأيّامها، وتواريخ غيرها من الأمم السالفة، وتراجم الأعيان وسائر المحاضرات، لا يُدرِك شأوَه علاّمة جُرجان، في مجال الكلام والأصلين، والمنطق والبيان، متحكما في الخبر والإنشاء، من صناعة الإنشاء. لا يُشَقّ له في مضمار الشِّعر الغبار، وإذا شنّ الغارة على أبطال النثر، لا يسعهم إلا الفرار:

[البسيط]

1) إن هَزَّ أقلامَهُ يومًا ليُعمِلَها ... أنْساكَ كُلَّ كَمِيٍّ هزَّ عامِلَهُ

2) وإن أقَرَّ على رَقٍّ أنامِلَهُ ... أقَرَّ بالرِّقِّ كُتّابُ الأنامِ لَهُ

جديرا بقول القائل:

[الخفيف]

1) وإنِ استَنْطَقَ الأناملَ جاءَتْ ... ببَيانٍ كالجَوْهَرِ المَنْضُودِ

2) في سُطورٍ كأنّما نَشَرَتْ يُمنا ... هُ منها عَصائِبًا مِنْ بُرودِ

3) فِقَرٌ لم يَزَلْ فقيراً إلَيْها ... كُلّ مُبْدي بَلاغَةٍ ومُعيدِ

4) يَقْتَدي البارِعُ المفيدُ لَدَيْها ... لاحِقًا بالمُقَصِّرِ المُسْتَفيدِ

5) بِبَيانٍ شافٍ، ولَفْظٍ مُصيبٍ، ... واختِصارٍ كافٍ، ومَعْنًى سَديدِ

بصيرا بالأحوال والمقامات، مميزا بين كلام أهل البدايات والنهايات، إلى المشاركة على سبيل التحقيق في كل علم من التصور أو التصديق.

[تدريسه العلم]

فأذن له، إذ ذاك، جمع من أشياخه في الجلوس للإفادة والتدريس. فكان أخذه في نشر العلم عن [*] الفتح المبين، وهو في زمان الشباب ابن نيّف وعشرين، فابتدأ أولا من العلوم العربية بنحو الأرجوزة الألفية، حتى عمّ ذكره، وصدق خبره، وانحشر إليه الطالبون من كل وجه ينسابون، فعند ذاك صرف أيضا العنان إلى إقراء المنطق والأصلين والعروض والبيان. وكل ذالك بموضوعاته المتداولة إلى هذا العهد، مع ما هو شأن أهل التحقيق في الأنظار من القبول والرد. ولسان حاله يقول وينشد[268]:

[المتقارب]

1) إذا المُشْكِلاتُ تَعَرَّضْنَ لي[269] كَشَفْتُ حقائِقَها بِالنَّظَرْ

2) وَلَسْتُ بِإِمَّعَةٍ في الرِّجالِ أُسائِلُ هذا وذا ما الخَبَرْ

ثم بعد استقراء الوسائل بالإقراء، تصدى للمقصود من التفسير والحديث بأقسامه، والتصوف المؤيَّد بالكتاب والسنة والفقه بالتدريس والتصنيف والإفتاء، فارتفعت أسعاره في سوق عنايته، ورجحت موازينه بكفة دلالته.

[تولية المولى سليمان إياه مدرسا للحديث بالقرويين]

ولاّه سلطان الوقت، الكريم الشِّيَم، المعترف له بنو أبيه، على جلالتهم، بعلوّ الهمة، وعظم الشِّمَم، ربيعُ القلوب والأزمان، أبو الربيع، مولانا سليمان، تدريس علم الحديث بجامع القرويين، ونفّذ له الكرسيَّ المعيَّن له هنالك عند ظَهر خصَّة العين. وهو من جملة ما كان حُبِّس على خصوص عمّ جدّ والده، الشيخ الإمام العارف بالله، أبي الفضل، أحمد بن العربيّ ابن الحاجّ، وعقبه من بعده، وقصر المحبس النّظر في ذالك، وأن ينفذوه لمن شاءوا، حسبما ذلك عندنا برسم مسجّل. واستمرّ بيد أعقابه يتوارثونه، إلى أن ضعف الباقي منهم برسم العلم عن

* - كلمة غير مقروءة في الأصل.

[268] - البيتان في ديوان الشافعي: 82-83. ريحانة الكتاب: 2/304. وقد ينسب البيت الأول لعلي بن أبي طالب. أنظر شرح الشريشي. 3/159. معيار الاختيار: 71.

[269] - ديوان الشافعي/82: تصدين.

القيام به، في حدود السبعين، بالموحِّدَة، ومئة وألف (1756/1170)، فصار إلى الشيخ العلاّمة، الحافظ الحجَّة اللُّغويّ، أبي عبد الله، محمد ابن الخياط الدُّكاليّ المشنزائِيّ، عُرِف بابن إبراهيم، والمتوفّى سنة أربع وثمانين ومئة وألف (1184/1770م)[270].

وإلى زمن هذا السلطان الجليل، أحيا بتنفيذه للشيخ أبي الفيض حمدون رسمَه، لينشر في الناس عن كمال الاستحقاق علمه، فدرّس فيه حينئذ من دواوين الحديث، الصحيحين وغيرهما من الكتب الستة، تدريس الفحول من الأئمة المتضلّعين بالمعقول والمنقول، فحقَّق الظن فيه باستحقاق التبريز، ولرسم الانتصاب على التمييز، بعد أن اختُبِرَت سبائِكُ تحقيقه في محطِّ الأنظار، فكانت خالصة الإبريز.

[تدريسُه لصحيح البخاري]

ثم ثابر على إقراء البخاري في كلّ حين، فلم يكد يدعه في سائر السنين، ولاسيما شهر رمضان، فكان هجّيراه فيه، وكان يأتي من تحقيقه بما يشفي الغليل، من الكشف عن المفردات معنى واشتقاقا وتصريفا، والإعراب للمركّبات بما لا يُبقي في الأصل وهما ولا تحريفا، مع تخصيص العموم، وتقييد الإطلاق، وتفصيل الإجمال، وتبيين محل الخلاف والاِتفاق، واعتبار مقتضيات الأحوال، والاِقتدار على استخراج جوامع التَّشبيه من خزانة الخيال، في بناء مقصور المجازات على قواعد العلاقات، فتنكشف المعاني المخدَّرات في خدور الكنايات والاِستعارات، من ألفاظ أُلبِسَت حُلَل التَّحسين، على أبدع نسج وأجمل تزيين، إلى القدم الرّاسخ، في بيان المنسوخ من النّاسخ، واستنتاج الحكم من أشرف الأشكال، في قياس يُفيد اليقين، بعلة يرجع معها الإشكال يضرب بسهام حُججه في صدر أهل الأهواء والبدع، لحسم مادة اعتقادهم، فلم يُبْقِ من شُبَهِهم شيئا ولم يَدَع، ويردُّ الفرع إلى أصله، وينسِبُ القول إلى أهله، ويبرهن على المطالب، باعتبار كلّ المذاهب، ثم يُبَيِّنُ ما به الفتوى من مذهب مالك، ويُوَسِّع النقل على أئمته في ضَيِّق المسالك، ويَجِدُّ كل الجِدِّ في البحث مع ابن حجر والعيني والقسطلاني، ومن يرقاهم[271]

[270]- ترجمته في: النشر: 4/196-197. السلوة: 2/78-79.

[271]- في الأصل: يرقهم. ولعل الصواب ما أثبتنا.

بالقبول والرد.

هذا بعد القيام على تعريف الرجال، وتمييز اللقب الواقع في الحديث مثل الوقف والإرسال. بل كان ممَّن انتهت إليهم الرياسة في الرجوع في بيان المتن والتعليل، والاعتماد في طرق الجرح والتعديل، والعلم بالاصطِلاح، والقدرة على استخراج الضِّعاف من الصحاح، والاستحضار لأحاديث الصحيحين، وجل الكتب الستة. لا يعزب عنه من صحيح البخاري حرف ولا حركة ولا راو، ولا ما يتعلق به من اللغة وغيرها.

وكثيرا ما ينتزع مضمن أحاديثه من الآيات القرآنية، ويبين في كُلِّ ترجمة أصلها من الكتاب، وهذه طريقة أهل العلم المستبحرين في العلوم.

قال رضي الله عنه، في شرح نظمه لاختصار مقدمة ابن حجر عند قوله:

[الطويل]

1) كأنَّ كِتابَ اللهِ مَنْسوجُ سُنْدُسٍ[272]	ولَفْظَ رَسولِ اللهِ طَرْزٌ مُعَلَّمِ
2) كأنَّ كِتابَ اللهِ مرقُومُ عَسْجَدٍ	ولَفْظَ رسولِ اللهِ غَنْجُ مُنَمْنِمِ

ما نَصُّه[273]:

«كنت وأنا أدرِّس الصحيح، أبيِّن في كل باب أصلَه من الكتاب، فرأيتُ في النوم كأن في حِجري لوحًا أخضر، مُرَصَّعا بجواهر ترصيعا لا يُرى مثلُه، ولا أرى حَدًا للَّوح في الارتفاع إلى السَّماء، فأوَّلت اللوح بالكتاب، والجواهر المرصَّعة له بالأحاديث المبينة المكمِّلة لحسنه. ثم رأيت بعدُ كأن قرطاسا نزل من السماء، مكتوبا بالذهب بخط المولى، جل شأنا وعظم سلطانا، وقد أكمله النبي(ص)، بالغنج، فأخذتُه وبيدي قلم غَنج. فجعلت أتتبَّع هل ترك النبي، ﷺ حرفا منه لم يُكحِلْه، فلم أظفر به، فأوَّلت ذالك بذالك، لأن كتابة الذهب لا تتبين إلا بالغَنْج.» انتهى.

وفي أزهار الرياض[274]: «قال عبد الرحمان ابن القصير الغرناطي[275]: كان بعض من أدركته

[272]- البيتان في: ديوانه: 202، من قصيدة طويلة.

[273]- النص بعده في نفحة المسك: 5.

[274]- الأزهار: لم نقف على هذا النص بها.

من أهل العلم يقول: الحديث الصحيح اطلبوا لفظه أو بعض لفظه، أو معناه في القرآن، تجدوه».

وذكر ابن مرزوق[276] عن بعض شيوخه، أنه كان كثيرا ما ينتزع مضمن الأحاديث من الآيات. وقال، رحمه الله، حين ذُكِر له الصَّبر عند الصدمة الأولى. الحديث: إن نظيره من القرآن قوله تعالى: «وَالصَّابِرِينَ في البَأساءِ والضَّراءِ وحِينَ البَأسِ.» هـ[277].

وقد كان الشيخ أبو الفيض، رضي الله عنه، شرع في تعليق على البخاري، مضمَّنه ذكر كلّ ما اتفق معه في إخراج حديث كلّ ترجمة، ومناسبة كلّ ترجمة لما قبلها وما بعدها، ومصداق كلّ حديث من الكتاب، ولعلّنا نلم ببعض من ذالك في روضة النِّسرين، فإن بالوقوف عليه، يُعتَرف بوجوب الرجوع إليه.

ثم استمرَّ الشيخ مشتغلا بالحديث وبغيره من العلوم السابقة، في وسائلها ومقاصدها، على مثلى الطريقة، إلى أواسط العشرة الأولى من هذا القرن، وهو مُقيمٌ بالحرمين. أراد الله أن يتم بفضله أنوار شمسه، فجاءه الإذن الكريم بإقراء تفسير القرآن العظيم.

[الشيخ أبو إسحاق إبراهيم الرباطي يبشره بتدريس التفسير]

كثيرا ما كان يخبر الوليّ الصّالح، العارف المُسِنّ البركة، أبو إسحاق، سيدي إبراهيم، المعروف بالرباطي[278]، بما معناه أنه رأى المصطفى، (ص)، في النّوم، وهو بالمدينة المنورة وقال: قل لفلان يقرأ التفسير بدار سلطان المغرب. ولم يكن الشيخ يرى من نفسه أهلية لذالك، ولا خطر له ببال. فلما رجع إلى المغرب عام ثمانية ومئتين وألف (1208/1793)، أمره مولانا

[275]- أبو جعفر، عبد الرحمان بن أحمد، فقيه غرناطي (ت 576هـ) ترجمته في: الأزهار: 3/15-16. الديباج: 1/486.

[276]- أبو عبد الله، محمد بن مرزوق التلمساني. (ت 781هـ) ترجمته في: الإحاطة: 3/103-130. النفح: 5/390-418. الديباج: 2/290-296. تاريخ ابن خلدون: 7/528-532. البغية: 1/46-47. رقم 75. الدرر الكامنة: 3/360-362. رقم 957. النيل: 267-270. الدرة: 2/275-276. رقم 782. الجذوة: 2/225-227. رقم 194.

[277]- سورة البقرة: 177.

[278]- ترجمته في: الاغتباط: 241.

السلطان[279] بقراءته، فأثّر فيه حينئذ كلام الشيخ إبراهيم، وقويت الدواعي، وتهيّأت الأسباب، ورأى بأمر الله العجب العُجاب، فأخذ في القراءة بحول الله وقوته، وحضره الشيخ إبراهيم، إلى أن ختمه مرارا، وبقي ملازما له إلى أن توفي الشيخ أبو الفيض.

[الشيخ أبو إسحاق إبراهيم الرباطي]

وكان الشيخ إبراهيم رجلا عظيم القدر، عُمدة الأشراف، رأسا فيهم، صلبا في الحق، ليّن الجانب للمساكين، متين الدّين، يصوم الدهر، ويقوم من اللّيل، مع إدمان الذّكر، والتّلاوة والصّلاة على النبي، (ص)، يختم «دلائل الخيرات» في اليوم مرّات، خاشعا خاضعا زوّارا للصالحين، محبوبا عند العارفين، ملازما للمسجد، وخصوصا القرويين وضريح مولانا إدريس. لا يكاد يفارقهم عامة أوقاته.

زرته مرارا ودعا لي بما أرجو قبوله. وكان قبل موته رأى في منامه كأنه ذهب والشيخ أبو الفيض إلى الروضة المشرّفة، فدخل الشيخ إلى القبر الشريف، وانطوت عليه الأرض وبقي هو، ففُسِّرَت له بموت الشيخ في عامه، وتأخيره هو. فلما توفّي الشّيخ، خرج إلى المدينة المنورة، وبقي هناك إلى أن توفّي، رحمه الله.

[منهجه في التفسير]

وكان أخذ الشيخ في إقراء التفسير بوفق هذا الإذن الشريف بمسجد الرَّصيف الأكبر، ثم انتقل إلى القرويين في الكرسي الذي بظهر خَصّة العين. وعادته في إقرائه التّحرّي من نقص عمّا يُحتاج إليه في إيضاح المعنى، أو زيادة لا تليق بالغرض، ومن كون المفسر فيه زيغ عن المعنى، وعدول عن طريقه. ويراعي المعنى الحقيقي والمجازي، فيبتدئ بتحقيق الألفاظ المفردة، فيتكلم عليها من جهة اللغة، ثم الاشتقاق، ثم يتكلّم عليها بحسب التركيب، فيبدأ بالإعراب، ثم ما يتعلق بالمعاني، ثم البيان، ثم البديع. ثم تبيين المعنى المراد، ثم أسباب النزول، ثم علم الحديث والأثر، ثم علم المناسبة، ثم الاستنباط، ثم الإشارات.

وناهيك به فيه، فكم من أسرار أبدى فيه. يكشف بكَشّاف المعاني والبيان، عن مُخَدَّرات

[279]- السلطان المقصود هو المولى سليمان. (1206-1238).

النُّكَت الحسان، ولا يكتفي عن الإظهار بالإبراز في مضمرات دلائل الإعجاز.

ثم لا يُبقي ولا يدع في الاستدلال على أهل الأهواء والبدع، مستحضرا لما عورض به من الأبيات أو الأحاديث، وما قيل في ذلك، وما أُجيب به. لم يُرَ في عصره وما قبله، في قطره وما حوله، أبصرُ منه بمعاني الكتاب والسنة، ومأخذ الأحكام منها، ورجوع نتائج الكشف والفتح لمدلولهما، واستخراج منزع الصوفية منها، ولا أحسن تهديا منه إلى إشارتهما، ومواقع فصل القضاء بمقتضياتهما، ولا أمضى تنفيذا لفهمه فيهما. يتكلّم في كلّ منهما بما لم يُسبَق إليه، ويتعقب كلّ كلام من المفسّرين والشُّرّاح بما يظهر له، وما يُفتَح له فيه. يُقرّر ذالك كلَّه أحسن تقرير، ويُحَرِّرُه أكمل تحرير. وربما قال في آخر كلامه: اسمعوا هذا القول، فإنكم لا تجدونه في كتاب. يشير إلى أنه فتح من الله.

[استطراد في تزكية النفس]

وهذا ونحوه يصدر من المشايخ والعلماء، لا على طريقة الابتهاج والتبجُّح بما عندهم، بل ذالك تصريح بالحق، وإخبار بالواقع للتنبيه على الاعتناء بتلك المسألة، والدّلالة على الأخذ عنه، والحرص على هداية الخلق لمصالحهم، وإنما ذالك يصح لمن سقطت نفسه من حينه، وتحقق بعدم المبالاة بإقبال الخلق وإدبارهم، وكان جاداً في هدايتهم وإرشادهم.

قال العارف بالله، سيّدي عبد الوهاب الشّعراني[280]: «قد أجمع المحققون على أنّه لا أعلى من تزكية الإنسان نفسه، وإن كان صادقا، لأنه يُخبر عن ذوق، وغيره إنما يخبر عن حسن ظنّ لا غير. فما فوق تزكية الإنسان نفسه إلا تزكية اللهَ ورسوله. ومن هنا قالوا: سلام الله على يحيى أعلى من سلام عيسى على نفسه. أو يقال: ذاك من قبيل التحدث بالنعم، لأن التحدث بها شُكر، كما ورد في الحديث: «إنَّ اللهَ إذا أنعَمَ عَلى عَبْدٍ، أُحَبَّ أن يُظهِرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ». ولِذا قال (ص): «أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، ولا فَخْرَ» «أنا النَّبِيُّ لا كَذِبَ، أنا ابنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ». وقال يوسف، عليه السّلام: «اجْعَلْني على خَزائِنِ الأَرْضِ. إنّي حَفيظٌ عَليمٌ»[281]. وقال حسّان في الرّدّ

[280]- عالم صوفي مصري (ت 973هـ) ترجمته في: النشر: 1/57. السر: 48-49. الشذرات: 8/372-374.

[281]- سورة يوسف: 55.

على بني تميم[282]:

[الطويل]

1) هَبَلْتُمْ عَلَيْنا، تَفْـخَـرونَ وأَنْتُمُ لنا خَـوَلٌ مـا بينَ قِنٍ[283] وخـادِمِ

وقال الشيخ عبد القادر[284]: «قدمي هذه على رقبة كلّ ولي». والحاصل أن كل ما ورد في الشرع أو كلام الأئمة مما صورته فخر، فالمراد به إمّا التحدث بالنعم، أو النُّصح لعباد الله.

[ثناء العلماء عليه]

هذا، وقد أثنى عليه في التبحر في علمي الظاهر والباطن، وبلوغ النِّهاية في الأدب، جماعة من العلماء الأعيان، كما سيأتي.

وناهيك بقول الشيخ القطب العارف بالله، أبي العباس، سيدي أحمد التيجاني[285] فيه، من رسالة بعثها لبعض أصحابه: إنه سيد علماء وقته، وأنا أسأل الله، تعالى، أن يكتبه في ديوان السعداء، وأن لا يتصرف فيه مخلوق.

[تعريف أبي محمد، عبد القادر الكوهن به]

ولما عرّف شيخنا العلامة الصوفي، الشّهير النَّفّاع، أبو محمَّد، عبد القادر بن أحمد الكوهَن[286]، بجماعة من أشياخه في فهرسته: «إمداد ذوي الاِستعداد، لمعالي الرِّواية والإسناد» قال ما نصُّه:

«ومنهم شيخنا العارف بالله، القائم بسنَّة رسول الله، والمُمَدُّ بالمنح الإلاهية، والمواهب

282- ديوانه: 237.

283- ديوانه: 237: من بين ظئر.

284- عبد القادر بن موسى الجيلي الحسني. شيخ الطريقة القادرية (ت 561هـ). ترجمته في: الطبقات الكبرى: 126-132. رقم 248. فوات الوفيات: 2/373-374. رقم 295.

285- شيخ الطريقة التجانية. (ت 1230هـ). ترجمته في: السلوة: 1/180-183. الشّرب: 219-220. الشجرة: 1/378. رقم 1513. الموسوعة: 3/140-141. ولأبي الفيض حمدون ابن الحاج قصيدة طويلة في مدحه. ديوانه: 279-280.

286- عالم فاسي. (ت 1254هـ). ترجمته في: السلوة: 2/169-171. الشجرة: 1/397. رقم 1582. الفهرس: 1/490-493. مؤرخو الشرفاء: 244-245.

الاختصاصية، الحائز قصبات السبق في المنقول والمعقول، الفائز بما لم يَحُم حوله سوابق الفحول، ذو النُّظم الرائق، والمعنى الفائق، أبو الفيض، حمدون بن عبد الرحمان بن حمدون، بن عبد الله بن محمد بن العربي، بن محمد بن علي بن محمد، الشّهير بابن الحاج السُّلَمِيّ المِرداسِيّ.

أخذت عنه، رضي الله عنه، التّفسير بالبيضاويّ وبِغَيره، وصحيح البخاري، ومسند أبي داوود، والشّفا للقاضي عياض، والمواهب اللّدُنيّة، والاكتفاء لأبي الربيع سليمان الكَلاعي، والحكم لابن عطاء الله، وميميّتَه في السِّيَر، ووتْرِيّاته على نسق وِتْرِيّات البغداديّ، وهمزية البوصيري ومختصر السّعد مرتين، بحاشيته عليه، والمَحَلّيّ، ومختصر السّنوسيّ في المنطق[287]، وهو يروي عن أشياخ من قبله».

إلى أن قال:

«كان الشيخ أبو الفيض حمدون، رضي اللّه عنه، ممن انتهت إليه الرّياسة في جميع العلوم، واستكمل أدوات الاجتهاد على الخصوص والعموم. وأحرز قصبات السبق في مجال الاستنباط، وارتُبِطَت بذهنه العلل ومسالكها أيَّ ارتباط، وانفرد بالمهارة والتّبحُّر في جميع الفنون، وخصوصا التفسير والحديث، والتصوف المؤيّد بالكتاب والسنة، والأصلين وعلوم العربية.

مع الخشية والخضوع والوقار، والبكاء والاعتبار، والاستغراق في بحر العشق المحمّدي، والخبرة فيه بدلالة المهتدي والمقتدي، ومحبّة أهل البيت، والانحياش لأهل الخير، الحيِّ منهم والميت.

قرّط الآذان، وشنّف بجوهر ما قيده أو ألف. له حاشية على مختصر السعد».

إلى أن قال:

«يسلك في جميع ما يقرره كتابة أو إملاء طريق التّحصيل والتّحقيق على الأئمة الأكابر. بل هو في ذلك كله آية الإعجاز في الصُّدور والأعجاز، مع أدب يزخر بحره، وتتزين به لَبّة الزمان ونحره، وسجيّة خلصت خلوص التِّبر، ونفس سلمت من الخُيَلاء والكِبر، وهمم أنافت على الكوكب، وكَرَم صابٍ كالغمام السّاكب.

[287]- كلمة مستغلقة في الأصل.

[وفاته]

تُوُفِيَّ، رحمه الله، عشية يوم الإثنين، سابع ربيع الثاني، عام اثنين وثلاثين ومئتين وألف (1817/1232م). ودُفِنَ عن يمين شيخه سيدي الطَّيِّب ابن كيران، بإذن أمر مولوي[288]. ومولده تقريبا سنة خمس وسبعين ومئة، بالإفراد، وألف[289] (1760/1175م)». انتهى.

[تحلية العربي الدمناتي له][290]

وجرى ذكره في إجازة كتبها لي ولبعض أصحاب شيخنا العلامة الرحالة، الأديب البارع اللّغويّ الكاتب، أبي المحامد، سيدي الحاجّ العربيّ الدّمناتي، فقال ما نصُّه:

«شيخُنا العلاّمة، الّذي فضله أكبر من ضياء النهار، ومجدُه المثل في الاشتهار. واسطة العقد بحضرة فاس، والإمام المنوَّه به في أرجائها الأرِجة الأنفاس، حتى استنارت به على ما سواها، وأحرز فيها الغاية وحواها، ونشر مطارف المعارف وما طواها، ونفّق للآداب بها سوقا بسقت فروعُها بُسوقا، وقلّد نحر العصر من عقوده دُراً منسوقا، وتقدَّم إلى الخطابة بعد الإمامة، أطهر من ماء الغمامة، وأطيب من نبت الكمامة [[291]] آمادها، وأصبح من الصدور فؤادها، ومن العيون سوادها، وجلت [[292]] [293].

---

[288]- السلطان الحاكم يومئذ هو المولى سليمان.

[289]- كذا في ميم. وأما في باء، فقد سقطت كلمة «تقريبا» وجزم أنها سنة أربع وسبعين.

[290]- النص الآتي ثابت في أسفل الهامش بخط دقيق مدمج في ميم، ساقط في باء.

[291]- كلمتان غير واضحتين.

[292]- كلمتان غير واضحتين.

[293]- سقط سطر غير واضح.

الباب الثاني

في سيرته السنية، وجمل من أخلاقه السنية

أقول:

كان الشيخ أبو الفيض حمدون ابن الحاج، رضي الله عنه، في موافقة الشريعة ومتابعة السنة آية، ممن وصل في التحافظ عليهما الغاية. قد حكّم السنة في نفسه وعياله، وجعلها شعاره في جميع أحواله، فحسنت لديه السّير والشمائل، وعذبت فيه الشّيم والفضائل، وطابق ظاهر سيرته وفعاله، باطنَ خلقه وخلاله، وتحقق بالإرث من رسول الله، والتحق بالسابقين من أهل حزب الله.

[البسيط]

1) لَوْ لمْ تكنْ آيةٌ لَهُ مُـــبَـــيِّـنَـةٌ   لَكَانَ مَنْظَرُهُ يُنْبِيكَ بِالخَـبَـرِ[294]

[سيرته]

فأما سيرته، فكان شديد الحزم والورع والتحفظ في الدين على التهمة فيه، شديد الحرص على مهماته، بعد القيام بواجباته، كله حزم وعزم. لا يحب التأويلات، ولايميل إلى ارتكاب الرُّخَص.

ويُعظم أمر الشرع، ويُحبّ موافقة السنة، وعدم الخروج عنها في شيء من الأشياء، ولو دعت إليه الضرورة، وكان لا بأس به، لأن الخير كله في الاتِباع، والشرُّ في الابتداع، عاملا على ترك الحظوظ واللّحوظ، دالاّ غيره على ذالك أبداً. يؤدي الفرائض والسنن على أكمل وجه وأتمّ وصف، في سكينة وطمأنينة وأدب مع الله، عزّ وجلّ، صلاة الخاشعين العارفين أمثاله. لا تسل عن كثرة خشوع وخضوع وحُسن سَمت، ويُواظب على كثير من النوافل الواردة، وما يسّر

294- البيت في: شرح جسوس:9. محاضرة الأبرار: 204/2.
(مع خلاف في الرواية)

الله من زيادة بعد ذالك. ويقوم الليل ويحض على قيامه، ويرغّب فيه أتمّ ترغيب، وينشّط لها النفوس بأن ذالك الوقت تتنزّل فيه الرحمات، وتهبُّ فيه عواطر النفَحات[295]، ويصوم، زيادة على الفريضة، الأيام الفاضلة الذي ورد في الحديث الترغيب في صيامها، كيوم عرفة ويوم عاشوراء، وثلاثة أيام من كلّ شهر، ورجب وشعبان.

ويواظب على تلاوة القرآن العظيم تلاوة تدبّر، من حفظه أو من المصحف الكريم، فكانت له سلكة يختمها كل شهر مع الحزّابين، حزبًا بالغداة وحزباً بالعشيّ على العادة. لا يدعه إلاّ لضرورة، وسلكة أخرى يختمها كلّ أسبوع، لورود الأمر به حسبما في الإحياء[296].

وكان يقرأ في المصحف مع جودة حفظه وحُسن أدائه، لما فيه من الفضل على القراءة عن ظهر قلب، لأن النظر في المصحف عبادة مطلوبة، فتجمع القراءة والنظر، كما قاله القاضي حسين، وأبو حامد الغزالي، وجماعة من السلَف.

ونقل في الإحياء[297] أن كثيراً من الصحابة، رضي الله عنهم، كانوا يقرأون من المصحف، ويكرهون أن يخرجوا يومًا ولم ينظروا في المصحف.

وروى ابن أبي داوود القراءة في المصحف عن كثير من السلَف. قال النَّووي: ولم أر فيه خلافًا. فإذا كانت أيام الاستراحة من التدريس، كما هي العادة في العواشر، ربما ختم سلكة أخرى في يوم أو يومين، ويتهجّد به نافلة، وطالما أقام مصلّيًا به الليلة الكاملة. وليست حالة الصحة كالسقم، ولا حالة الشبيبة كالهرم. ويذكر الله، عزّ وجلّ، في كل أحيانه من ليل ونهار، عند النوم واليقظة. لا تفارقه سبحته، ويحبّ الإكثار منه، ويحضّ عليه، ويقول: لكل شيء حدّ إلا الذكر، لقوله تعالى: « يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا اذكُروا اللّهَ ذِكرًا كَثيراً »[298] أي دائما أبدا. ويقول

---

[295]- بعده في الهامش بيتان ناقصان ولا يقرآن بوضوح: وما تبقى منهما هو: وينشد: طوبى لمن سهرت في وبات ذا قلق في حب. يشكو لي ربه ماقد. وما تخلل من بلوى. حتى كان لسان حال يـ...: الـ... خليا عن فراشي مسجده. نهاره وليله ما يرقده مفتدع».

[296]- الإحياء: 1/275-276.

[297]- الإحياء: 1/279.

[298]- سورة الأحزاب: 41.

يس، بعد كتاب الله، عبادة تُؤدّى باللسان، أفضل من الذكر ورفع الحاجات بالأدعية الصالحة إلى الله، لقوله تعالى: « فَاذْكُرُوني أذْكُرْكُمْ »[299] وقوله: «ولَذِكْرُ اللهِ أكْبَرُ»[300]، أيْ من كلّ عبادة سواه، أو من ذكرنا إياه، كما قال ابن عباس.

وكان يلازم الأذكار الواردة في السنة، في أوقات مخصوصة، كالذي بعد الفجر، وعند النوم واليقظة وغير ذالك[301]، وليس له وِرد معين يتقيّد به، سوى ما ذُكر مما ورد جميعه في السنة، والاشتغال بأفضل الأذكار: لا إلاه إلا الله. محمد رسول الله.

وكان شديد الحرص على التّعلم والتّعليم، مكين الملكة في الاقتدار على التّفهُّم والتفهيم، ممن اختار الله له السلوك على طريقة الشّيخين، أبي محمد بن أبي زيد[302]، وأبي محمد، دَرّاس بن إسماعيل[303]، ونظرائهما من راسخي الأئمة، الذين كان أكثرهم هِجّيراهم نشر علوم الشريعة في هذه الأمة، إذ لادرجة فوق درجة التعليم، لحديث: «فَضْلُ العالِمِ على العابِدِ، كَفَضْلي عَلى أدْناكُم. » زاد في رواية: «إنَّ اللّهَ وَمَلائِكَتَهُ وَأهْلَ السَّماواتِ وأهْلَ الأرضِ، حَتّى النَّمْلَةُ في جُحْرِها، والحيتانُ في الْبَحْرِ، يُصَلّونَ على مُعَلِّمِ النّاسِ الْخَيْرَ». أخرجه التِّرمذيّ، وصحّحه عن أبي أمامة.

وكان نشر علمه في ذالك لوجه اللّه، لا عمل من اتّخذ إلاهه هواه. فشكرَ اللهُ صنعه، وأدام إلى يوم الدين نفعه. وكان أجره لا ينحصر عدداً، وعمله لا ينقطع أبداً، لحديث: «مَنْ بَثَّ عِلْمًا في سَبيلِ اللّه، أعْطِيَ بِكُلِّ حَرْفٍ مِثْلَ رَمْلِ عالِجَ حَسَناتٍ، وكانَ لَهُ أجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهِ إلى يَوْمِ

[299]- سورة البقرة: 152.

(*) كذا في الأصل.

[300]- سورة العنكبوت: 45.

[301]- بعده في الهامش بيتان ناقصان هما: «أنت داخله. ل له الانفاس حراسًا... لـ بيت فيه تذكره. جنان القلب غراسًا».

[302]- فقيه قيرواني كبير..(ت 368هـ) ترجمته في: الترتيب: 6/215-222. الديباج: 1/424-430. الشجرة: 1/69. رقم 227.

[303]- فقيه فاسي. (ت 357هـ) . ترجمته في: الترتيب: 6/81-84. تاريخ العلماء: 1/264. رقم 432. بغية الملتمس: 278. رقم 738.الجذوة: 1/194-196. رقم 155. النبوغ: 1/49-50. الشجرة: 1/ 103. رقم 263. السلوة: 2/175-179.

القِيامَةِ» وحديث: «مَنْ دَعَا إلى هُدى، كانَ لَهُ مِنَ الأجرِ مِثْلَ أُجورِ مَنْ تَبِعَهُ، ولا يَنْقُصُ ذالِكَ مِنْ أُجورِهِم شَيْئًا.» أخرجه مسلم.

[فائدة العلم والعمل به][304]

[الكامل]

1) اِعْمَلْ بِعِلْمِكَ تُؤْتَ[305] حُكْمًا[306] إنّما ... جَـدْوى عُلومِ المَرْءِ نَهْجُ الأقْـوَمِ

2) وإذا الفَتى قدْ نالَ [عِلْمًا ثُمَّ][307] لَمْ ... يَعْـمَلْ بِهِ [فكأنَّهُ لَمْ يَعْلَمِ][308]

[لأن][309] الجاهل خير منه، لقوله في الحِكَم[310]: «العِلْمُ، إن [قارنْتَهُ][311] الخشية فلَك، وإلا فعليك».

ولأبي القاسم ابن جُزَيّ الكَلْبي:[312]

[المتقارب]

1) وقـائلَةٍ لِمْ هَجَـرْتَ التَّـصـابي ... وَسِنُّكَ في عُنْفُـوانِ الشَّـبـابِ[313]

2) يَمُـرُّ زَمـانُ الصِّـبـا ضـائِعـاً ... ولَمْ تَلْهُ فـيـه بِبَـعْضِ اللِّعـابِ[314]

[304]- البيتان لإبراهيم بن محمد التنوخي (ت726هـ). وهما في البغية: 425/1. الإحاطة: 376/1. وما بعدهما وارد في طرّة ميم.

[305]- في الأصل: تورث.

[306]- الإحاطة 376/1. علما. البغية: 425/1: حكمة.

[307]- مابين معقوفين ساقط في الأصل.

[308]- مابين معقوفين ساقط في الأصل.

[309]- كلمة ساقطة في الأصل عوضناها بما يناسب.

[310]- شرح الحكم: 51/2.

[311]- سقط من الأصل. والتعويض من شرح الحكم: 51/2.

[312]- محمد بن أحمد ابن جزي الكلبي الغرناطي. عالم أديب. (ت 741هـ) ترجمته في الديباج: 274/2-276. الكتيبة: 46-48. النيل: 238-239. الدرة: 117/2-118. رقم 566 الأزهار: 184/3-187. معجم المطبوعات: 76-77. رقم 191.

[313]- المقطوعة في: الكتيبة: 47.

[314]- الكتيبة: 47: ببيض الكعاب.

3) ولـمْ تَـدْرِ لَـذَّةَ طيـبِ الـهَــوَى ولَمْ تَرْوَ مِنْ سَلْسَبِـيلِ الرُّضَـابِ
4) فَــقُلْتُ: أبى العِلْمُ إلاّ التُّـقى وهَجْـرَ المعَـاصي، وَوَصْلَ الـمَـتَـابِ
5) ومَـنْ لَـمْ يُـفِــدْهُ طِـلاَبُ العُـلو م، رَجـاءَ الثَّوابِ وَخَوْفَ العقـابِ[315]
6) فَــخَـيْــرٌ لَهُ الجَـهْـلُ مِنْ عِلْمِـهِ وأَنْجَى لَـهُ مِنْ أليـمِ العَــذابِ

[و] لـ [أبي الفيض][316] من قصيدة[317]:

[الرمل]

1) وَاتَّقِ اللّهَ فَـبِـالعِلْمِ الفَـتى يَتَـحَلَّى بِـرَجَـاءٍ وَوَجَلْ
2) جَـهْلُهُ أَنْجَى لَهُ مِنْ عِلْمِـهِ إن تَخَلَّى عَنْ صَـلاحٍ وَعَـمَلْ

لكن، قال [بدر[318]] الدين القرافي[319]: «من عَمِلَ بما عَلِمَ، فقد أطاع الله طاعتين، ومن لم يعلم ولم يعمَل، فقد عصى الله معصيتين، ومن علم ولم يعمل [بما][320] علمه، فقد أطاع الله سبحانه طاعة، وعصاه معصية».

وقال القاشاني[321]: «من علم وعمل بعمله، ورّثه الله علم ما لم يعلم، وأثيب على [...][322]، ومن علم ولم يعمل، أثيب على [...] عقوبة العصيان، بترك، [...]، ومن لم يعلم ولم يعمل عصى[323]. وأما من عمل بلا علم، فقال: عمله صحيح». انتهى.

---

[315]- البيتان الخامس والسادس في: الأزهار الطيبة: 20.

[316]- مابين معقوفين محو في الأصل.

[317]- البيتان في الأزهار الطيبة: 21. ديوانه: 180.

[318]- كلمة محوة في الأصل.

[319]- محمد بن يحيى. فقيه مصري. (ت 946هـ). ترجمته في: النيل: 342. مقدمة كتابه «توشيح الديباج».

[320]- زيادة لم ترد بالأصل. ليستقيم المعنى.

[321]- لعل المقصود هو كمال الدين، عبد الرزاق بن أحمد القاشاني الصوفي مؤلف اصطلاحات الصوفية. (ت 730 أو 735هـ). ترجمته في: مقدمة كتابه المذكور.

[322]- جمل ساقطة.

[323]- جمل ساقطة.

[استطراد عن أجر المعلمين][324]

ويُؤخَذُ منه أنه إذا تعدد الداعون إلى الهدى ورُتِّبوا، فأجر الأول ضعف أجر الثاني، وأجر الثاني ضعف أجر الثالث، وهكذا.

كما إذا ترتّب عشرة من المعلمين، الأول علّم الثاني، والثاني الثالث، إلى العاشر، والأجر الذي للعاشر، وللثامن أربعة: أجر تعليمه التاسع، وأجر التاسع، وأجر العاشر، وهكذا إلى الأول، لكل ضعف ما بعده. ومثال ذلك:

1	2	4	8	16	32	64	128	256	512

هذا بيان للأجور بدون تضعيف، فإن اعتبرت التضعيف، فقدم على ما لكل واحد صفرا، فيكون للعاشر عشرة، وللأول أربعة آلاف ومئة وعشرون. هكذا:

[الكامل]

وَالمرءُ في مـــيـــزانِهِ أَتْبـــاعُــــهُ[325]   فَـاقْـدُرْ بِهِ[326] قَـدْرَ النَّبيِّ مُـحَـمَّـدِ

[برنامج تدريسه لعلوم الدين]

أدركته، رضي الله عنه، في آخر عمره، يُقرئ صحيح البخاري في ضريح مولانا إدريس، بعد صلاة الصبح، ثم يقرئ مختصر خليل بالعَنْزَة من جامع القرويين، مع القيام على متداول

---

[324]- انتهى ما ورد بهامش الأصل وطرته.

*- ب «علم غيره، وإن للعاشر أجرا واحد بتعليم غيره، وللتاسع أجران، أجر تعليمه هو العاشر، والأجر الذي للعاشر...».

[325]- البيت في: الأزهار العاطرة: 74، منسوب لابن وفا. وهو في: ديوان البوصيري: 74. مع تغيير في الألفاظ.

[326]- الأزهار العاطرة: 74: بذا. ديوان البوصيري: 74: إذن.

شروحه، التَّتائي والخُرشي والزُّرقاني وحواشيهم، والحَطَّاب والموَّاق، وشرح الشيخ جَسّوس، وكان يعتمده أفراد الأئمة المحصلين، والجهابذ المتبحرين العارفين، يعارض بين أدلته، ويُرجِّح ويُضَعِّف في أقواله، ويُصَحِّح ويُبَيِّن أصل كلّ سورة من سُوَره من الكتاب والسنة.

ثمّ يُقرئ بين الظهرين «تلخيص المفتاح» في المعاني والبيان، بشرحيه المطوَّل والمختصَر، وحواشيهما، إقراء ذي المَلَكَة الراسخة في الحقيقة والمجاز، المتمسكة من أسرار البلاغة بدلائل الإعجاز.

ثم يُقرئ بعد صلاة العصر التَّفسير بالبيضاوي وحواشيه: الشيخ زادة والأسيوطي وزكرياء، مع مراجعة الكشاف وحواشيه: الطِّيّبيّ والسَّعد وزكرياء، فخرَّج أحاديثه ومختصراته كأبي السعود، وكان يعتمده ويبتهج بذكره، وابن كمال باشا، والنَّسَفي، ويراجع النَّيسابوري، وابن عرفة وابن عادل، والثَّعلبي، وابنَ كثير، والبِقاعي، وأحكام ابن عَرَبي، والوَرتَجيبي. وكان يحضره جماعة من أشياخنا، انتهت إليهم الرياسة في معرفة مواد الأقيسة ومسالك العلل، وقوة الإدراك في مضائق الاستنباط، مع تمام الملكة وثقوب الذِّهن، وصدق التوجه بارتجال الفكر، إلى سرعة الوعي مما يُملي عليهم.

ثمّ يُقرئ بين العشائين التَّفسير أيضا. يحضره جماعة من العلماء، وعامة الطلبة. بيد أنه لم يتقيد بتفسير ولا تعليق، بل يذهب حيثما ذهب التحقيق.

[أخلاقه وسلوكه]

وكان يحفظ جوارحه مما نهى الله عنه، فيُعرِض عن اللّغو وما لا يعني، ويصون عنه لسانَه، ولا يسمع الباطل، ولا يقدر أحد أن يذكره بمحضره.

[327]وينشد قول القائل:

[المتقارب]

1) وسَمْعَكَ صُنْ عَن سَماعِ القَبيحِ   كَصَوْنِ اللِّسانِ عَنِ النُّطقِ بِهِ[328]

[327]- هذا النص وارد في أعلى الهامش بالأصل ميم، ساقط في النسخ الأخرى.

[328]- البيت الأول في: حاشية المؤلف: 126/2. والبيتان معا في: شرح الشريشي: 116/3. (مع خلاف في الرواية).

2) فَـــإنَّكَ عِنْدَ سَـمَــاعِ القَـــبِـيـحِ   شَــريكٌ لِقَـــائِلِهِ فَـــانتَـبِـــهِ

وقول الآخر:

[مجزوء البسيط]

1) الأُذْنُ كَـــالورْدَةِ مَــفْـــتـوحَـــةٌ   فَـــلا تُمِـــرَّنَ عَلَيْـــهـــا الخَنا

2) فَـــإِنَّهُ [[329] جُـــيـــفَـــةٌ   فَـــاحْــذَرْ على الـوَرْدَةِ أن تَنْتِنا

يُحذِّر عن الغَيبة غاية التَّحذير، ويُنفِّر منها غاية التنفير، ولا يُذكر عنده أحد بسوء، إلاَّ أن يكون على سبيل الشكاية ورفع المظلمة، بل كان ينام عن عيوب الخلق نوما مثل نوم الفَهد أو عبود، بترك البحث عن تحقيق مظنونه، والإغضاء عن الموجود، ويقول: الإغضاء عن عيوب الناس مطلوب، وسترها مُرَغَّب فيه محبوب، فكما يرغب الإنسان في ستر عيوب نفسه، يُطلَب منه ستر عيوب أبناء جنسه.

نعم كان أبصر من الهُدهُد وزرقاء اليمامة. يحقّق عيب نفسه الذي طوّقه طوق الحمامة، لأنّ من أبصر عيب نفسه، شغله عن عيوب الناس. ومن عَمِيَ عنه، تفرَّغ لعيوبهم، وانغمس في البحث عنها وإذاعتها أيَّ انغماس.

لا يحبّ الإكثار من الحَلف بالله، مخافة الوقوع في الحنث، ويقول: ينبغي للإنسان أن يعوّد نفسه عند إرادة الحلف قول «إن شاء الله»، مخافة أن يعقد اليمين فلا يفي، أو يحنث فلا يكفّر.

وجلّ ضحكه التَّبسُّم، فإذا زاد عليه لم يُقَهقِه، ولا يُحِبُّ الإكثار منه، وينهى عنه، لأنه يُميت القلب، ويكره الهزل والمشتغل به، وكثرة الممازحة في الأمور.

ويطلب الخمول والخفاء أبدا، ولا يُحِبُّ الظهور، ولا يتظاهر أو يتمايز بشيء، كما يأتي في زهده.

ولا يُحِبُّ الإكثار من ملاقاة الناس، ولا الخوض معهم فيما هم فيه من أمر دنياهم[330].

[329]- سقط بالأصل، ولم نهتد إلى الإصلاح.

[330]- النص التالي وارد في طرة ميم، ساقط في غيره.

ويذكر قول بعض الحكماء: «[الخمول نعمة][331] والنفس تأباه، والظهور نقمة، [والنفس][332] تهواه».

وينشد قول الحضرمي[333]:

[البسيط]

1) عِشْ خاملَ الذكْرِ بين الناس [وارضَ به][334] فَذاكَ أسْلَمُ للدُّنيا وَللدِّينِ[335]

2) مَنْ عاشَرَ النَّاسَ لَمْ تَسْلَمْ ديانَتُهُ وَلَمْ يَزَلْ بَيْنَ تَحْريكٍ وتَسْكينِ

ويتحرّى الصّدق في حديثه، ويحضُّ على تحرّيه، ولأجل اتصافه به وعدم المبالاة برضى الخلق ولا بسخطهم، كان لا يبالي بما يقول إذا كان حقا، ولو كره ذالك من كرهه، ولا يعتبر كيف يراه الخلق، ولا على أيِّ حالة يكون، شديدَ الإقدام على السُّلطان في الحق، كالنصيحة المأمور بها، وتعمير الثّغُور، والإحسان إلى ذوي العلم والأشراف، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيما يرتكبه الولاة من الجور على الرعايا. كلمته في ذالك كلّه مسموعة مقبولة، لا يُضاهي جاهُه الرَّفيع، ولا يكون مقبولا مثله عند الجميع.

وكان يُحِبُّ أولياء الله الصالحين، من المجذوبين والسّالكين، ويستنزل الرحمات بذكرهم في المحافل، غير أنه لا يكتفي منهم بمجرد الدعوى عن ثبوت الفضائل، إذ لم يكن ممن يُخدَع بحال، ولا بإمّعة في الرِّجال. لقي من أكابر الأولياء الآتي ذكر بعضهم عِدَّة، ممن كانوا في الوقت لمداواة القلوب عُمدَة، فألقى إليهم السَّلم، وآوى إليهم في الاِغتراف من بحر الكرم، فعرفوه ولم يجهلوه، وقبلوه وعمّموه بالفضل والإحسان، وشفعوا علمه بالعرفان، حرصا على كمال إنسانيته بالجمع بين صلاح سِرّه وعلانيته، حتى كان الإنسان الكامل الذي لا يُؤثِّر فيه العلل.

---

[331]- محو في الأصل. عوضناه من الإيقاظ: 27.

[332]- محو في الأصل. عوضناه من الإيقاظ: 27.

[333]- نسب البيتان عرضا في الورقة الأولى من المجموع 504 بالمكتبة العامة بتطوان إلى من يسمى ابن عقبة.

[334]- محو بالأصل. والبيتان في: الإيقاظ: 27. تحفة الإخوان: 260، وبهما انتهى ما في الطرة.

[335]- تحفة الإخوان: 260: في الدنيا وفي الدين.

إذا رأيتَه ذكرت اللّه، وأُنسيتَ ما سواه، واستيقظت لأول وهلة، وانقشعت عنك سحائب الغفلة، ووجدت بقلبك تعظيما وإجلالا وتكريما، فإذا جالسته تداركتك لمحاته، وسَرَت إليك نفحاته، وعَلِقَ بك طيبُه الفائح، وعلمتَ أنه الجليس الصالح. لا يخيب من فوائد أو حِكَمٍ جليسُه، ولا يعدم شيئا من الخيرات أنيسُه[336]. وكان يحب السُّنَّة واتّبَاعها، وعدم الخروج عنها في شيء من الأشياء، ولو دعت إليه الضرورة، والاقتداء بالرسول (ص)، في جميع موارده ومصادره، ويذكر قول الجنيد[337]: «الطرق كلُّها مسدودة على الخلق، إلا من اقتفى أثر رسول الله (ص)»، وقول ابن عطاء الله: «من ألزم نفسه آداب الشريعة، نوَّر الله قلبه بنور المعرفة. ولامقام أشرف من متابعة الحبيب في أوامره وأفعاله».

[فوائد تعليم السيرة النبوية عنده]

ومن أجل هذا، كان كثيرا ما يَحضُّ على تعليم علم السِّيَر، بمطالعة كتبه وممارستها، ويذكر أن له فوائد:

منها أن معرفة صفته، صلى اللّه عليه وسلّم، تهدي إلى الطريق، لقول الغزالي[338] في كتاب الأربعين[339] «اعلم أن مفتاح السَّعادة [في] اتِّباع السُّنَّة، والاقتداء برسول اللّه، صلى اللّه عليه وسلم، في موارده ومصادره، وحركاته وسكناته، حتى في هيئة أكله وقيامه وكلامه. فَبِهِ يحصل الانتفاع المطلوب، كما قال تعالى: «قُلْ إِنْ كُنْتُم»[340] إلخ... وقال: «ما أتاكمُ

---

[336]- بعدها في ميم عبارات مضروب عليها، غير أنها ما تزال مقروءة وهي: «وكثيرا ما كان يرى النبي (ص) في عالم نومه، ويستمد من [مدده]. ومرائيه له (ص) كثيرة كان أخذ يقيدها في مبدأ الظهور. ثم كمن ذلك بعد أن قيد منها جملة وافرة. قال رضي الله عنه: «رأيت النبي (ص) مرارا. وأما».
وفي الطرة عبارات مضروبة تكمل ما سبق هي: «وكان لا يرى رؤيا إلا ظهر مصداقها ولو بعد حين. لأن رؤيا الإنسان الصادق تدل على ما ينتهي إليه أمر[ه] في الغالب، كما قالت عائشة: «أول ما بدئ به رسول الله (ص)، من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم. وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح».

[337]- أبو القاسم الجنيد بن محمد. الصوفي المشهور. (ت 297 أو 298هـ) ترجمته في: الوفيات: 1/373-375. رقم 144. الطبقات الكبرى: 1/84-85. رقم 164. الرسالة: 18-20.

[338]- ينقل المؤلف هذه الفوائد من شرح العقود: 1/23-24، مع بعض الاختصار.

[339]- كتاب الأربعين: 89-90، مع تصرف كبير في النقل بالاختصار.

[340]- سورة آل عمران: 31.

الرَّسولُ فخذوهُ»[341]. فعليك أن تتسرول قاعدا، وتتعمَّم قائما، وتأكل بيمينك، وتُقَلِّم أظفارك، وتبتدئ بمسبحة يدك اليُمنى، وتختم بإبهامها، وفي الرِّجل تبتدئ بخِنصَرِك اليُمنى، وكذلك في جميع حركاتك وسكناتك، فقد كان محمد بن أسْلَم[342] لا يأكل البِطيخ، لأنه لم تُنقل كيفية أكل رسول الله (ص). فلا ينبغي أن يتساهل في مثل ذلك فيقول: هذا ما يتعلق بالعادات فلا اتِّباع فيه، فإنَّ ذلك يُغلِق عنك بابا عظيما من أبواب السَّعادة».

ومنها[343] أنَّها تملأ القلوب بعظمته، (ص)، لما تُطلع عليه من محاسن الخَلق والخُلُق، وجميع الأفعال، وبسط جاهه عند الكريم المتعال، واستعظامُه سبب لاِستعظام الشرع، الأصل منه والفرع، [لأن حرمة الكلام عند المخاطب، على قدر حرمة المتكلِّم به][344]، واستعظامُ الشَّرع موجِب للجري على ما يقتضيه، وتقديمه على ما تشتهيه النفس وترتضيه. وهو معنى الاِنقطاع إلى الله، الَّذي لأجله خلق الإنسان وسَوَّاه. وذالك من فوائد ذكر تنويه الله بقدره، في غير ما آية من مُحكَم ذِكره. وهذا من فوائد افتتاح الكتاب العزيز بالفاتحة، المتضمِّنة للثناء عليه بما هو أهله من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وأن منه، تعالى، المبدأ، وإليه المرجع والمنتهى، وبه البقاء، حتى يكون لأوامره ونواهيه تعالى موقع عظيم في القلوب، وتأثير عجيب في النفوس، فإن تعظيم الأمر والنهي على قدر معرفة عظمة الآمر والناهي.

ومنها[345] تضمُّنها معرفة كيفية الاِرتقاء إلى حضرة القدس، على سُلَّمَي الصَّبر والشُّكر، الرَّافعي الرأس. وذالك أنها تُطلع على بعض ما أدَّبه به مولاه من جميل صبره، في المواطن التي تنحلُّ فيها العُرى، وجزيل شكره، التي لا يحيْط به خُبرا. وذالك من فوائد ذكر ما لَقِيَ من المشركين منذ بعثته إلى هجرته، وما لقوا منه بعد هجرته إلى حلوله بروضته، ولو حمل ذلك

---

[341]- سورة الحشر: 7.

[342]- الطوسي. صوفي مشهور. (ت 226هـ) ترجمته في: الوافي: 2/204. رقم 583. الطبقات الكبرى: 1/63. رقم 112.

[343]- النص في: شرح العقود: 1/25. مع بعض الاختصار.

[344]- زيادة من المؤلف.

[345]- النص في: شرح العقود: 1/25-26. مع بعض الاختصار للأسانيد.

على طريقتي الغزالي والشاذلي، لكان لذالك وجه وجيه.

ومنها[346] تضمُّنها معرفة حُسنه وإحسانه، وذالك وسيلة إلى محبته، لأن أسباب المحبة، وإن تكاثرت، فمدارها على أمرين: الحُسن والإحسان، لأن النفس مجبولة على الميل إلى الحسن، كما أنها مجبولة على حب المحسن إليها، ولا حُسْن ولا إحسان يماثلان حُسنه وإحسانه، (ص)، إذ كلّ نعمة وبركة، قلّت أو جلّت، فمنه حصلت، وعلى يديه وصلت، ومنه كانت محبته شرطا في الإيمان، وكمالها شرطَ كمال له. والمحبة له، (ص)، سبب للنجاة من النار، وللمَعيَّة، لخبر: «ما اختَلَطَ حُبّي بِقَلْبِ أحَدٍ فأحَبَّني، إلا حَرَّمَ اللّهُ جَسَدَهُ عَلى النّار». وخبر: «المرءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ». قال تعالى: «وَمَنْ يُطِعْ» إلخ[347]، وعلامة حب الله.

رُوي عن الحسن[348] أن قوما قالوا: يا رسول الله، إنا نحب الله، فأنزل الله: «قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ»[349]، أي ليس الشأن أن تكونوا مُحِبِّين، بل أن تكونوا محبوبين. واتباعه، صلى الله عليه وسلم، يثمر المحبوبية للعبد من الله، تعالى، كما قال: «يُحْبِبْكُمُ اللّهُ»[350]، وهي أشرف المقامات وأعلاها. قال بعضهم: ظهرت هنا منزلتان لكريمين. قال إبراهيم: «فَمَنْ تَبِعَني فَإنَّهُ مِنِّي»[351]. وقال سيدنا محمد: «فَاتَّبِعوني يُحْبِبْكُمُ اللّهُ»[352] وذالك من فوائد خَلْقه وخُلُقه، وامتنان الله ببعثته، والأمر بالاقتداء به.

ومنها[353]، وهو ثمرة ما قبله، تشخُّص صورته الشريفة، وطلعته المنيفة، لأن الطالب إذا عَظُمت رغبته في شيء، يكثر تصوُّرُه إياه، فربما يُخيَّل إليه حاصلا، لما تقرر أن الاتصال

[346]- النص في: شرح العقود: 1/25-26. مع بعض الاختصار للأسانيد.

[347]- سورة النساء: 13.

[348]- أبو سعيد، الحسن البصري. الفقيه الزاهد. (ت 110هـ) ترجمته في: الوفيات: 2/69-73. رقم 156. الطبقات الكبرى: 1/29-30. رقم 33.

[349]- سورة آل عمران: 31.

[350]- سورة آل عمران: 31.

[351]- سورة إبراهيم: 36.

[352]- آل عمران: 31.

[353]- شرح العقود: 1/26.

الروحاني كثيرا ما يُتَوَهَّم أنه جسماني، وذالك معين على رؤيته نوما ثم يقظة، فيحصل لمشاهده بفكره من الأسرار والأنوار ما لا يُكَيَّف.

قال الشيخ أبو الفيض في شرح الميمية[354]: «بل نقول: النبي (ص) جليس ذاكره، لأنه متخلِّق بخُلُق مولاه. وفي الصَّحيحَين من حديث أبي هُرَيرة: «هُمُ القَومُ لا يشقى جَليسُهُم بِهِم» وما نالوا ذالك إلاَّ بمدده السَّاري فيهم. وفي صحيح مُسلم: «لَوْ تَدومونَ كمَا تكونونَ عِندي، لَصافَحَتْكُمُ الملائِكَةُ في الطُّرُقِ».

ولنا[355] في هذا[356]:

[البسيط]

1) لِذاكِري اللّهِ والرَّسولِ أيُّ غِنى	يُغني وَلِلغافلين أيُّ إفلاسِ
2) ألَلّهُ، جَلَّ عُلى، جَليسُ ذاكِرِهِ	كَما أتى في الحَديثِ الثَّابِتِ الرَّاسي
3) وَحاجِبٌ لَهُ مِنْ شَرِّ القَرينِ كَما	بِسورَةِ «النَّاسِ» فاحَ فَوْحَةَ الآسِ
4) وَمَنْ يَكُنْ رَبُّهُ هُوَ الجَليسَ لَهُ	أنَّى لإبليسَ سَوْمُهُ بِوَسْواسٍ؟!
5) كَذالِكَ المُصطفَى جَليسُ ذاكِرِهِ	وحاجِبٌ لَهُ مِن دونِ الباسِ
6) أليسَ ذاكِرُهُ مُسْتَحْضِراً لَهُ في	ذِكْرٍ يَراهُ جَليسًا بَيْنَ جُلاَّسِ
7) "وَلَوْ تَدومونَ صافَحَتْ مَلائِكَةٌ"	إيناسُ حَجْبٍ لَهُ، وأيُّ إيناسٍ؟!
8) بلْ ذِكْرُهُ عينُ ذِكْرِ اللّه لا تَكُ في	ذِكْرٍ لَهُ بالغافِلِ النَّاسي
9) وَقُلْ: «أعوذُ بِرَبِّ النَّاسِ» أيْ مَلِكِ الـ(م)	نَّاس، إلاهِهِمْ مِنْ شَرِّ وَسْواسِ
10) وَسْواسٍ خَنَّاسٍ الَّذي يُوَسْوِسُ في	صُدورِ ناسٍ مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ

ومنها: وهو نتيجة الثَّمرة قبله، أخرج التِّرمذي وقال: حسن، عن زيد بن ثابت رفعه: «نَضَّرَ اللّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا[357] حَديثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ غَيْرَه، فَرُبَّ حامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقيهٍ».

[354]- شرح العقود: 26/1.

[355]- ما يزال المؤلف ينقل من شرح العقود: 27/1. والقصيدة في ديوان حمدون: 325.

[356]- ما يزال المؤلف ينقل من شرح العقود: 27/1. والقصيدة في ديوان حمدون: 325.

[357]- شرح العقود: 27/1: «مني».

وقوله: «مِنّا» لا يستلزم المشافهة، بل يشمل ما كان بواسطة، بدليل رواية أبي داوود وغيره عنه، ورواية التِّرمِذي وغيره عن ابن مسعود: «نَضَّر اللهُ عبداً سَمِعَ مَقالَتي فَوَعاها، وَحَفِظَها ثُمَّ أدّاها إلى مَنْ لَمْ يَسْمَعْها». الحديث.

وقد دلَّ على المفازة بهذه الدَّعوةِ الجليلة المبشِّرة بما في قوله، تعالى: «تَعْرِفُ في وُجوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعيمِ»[358] وقوله تعالى: «وُجوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ»[359] إلخ..

وفي نَفْح الطِّيب[360]: «قال القاضي أبو بكر ابن العربي[361]: قال علماء الحديث: ما من رجل يطلب الحديث إلاّ كان على وجهه نَضْرة».

وإلى هذا أشار أبو العباس العَزَفي[362] بقوله:

[الكامل]

1) أهلُ الحَديثِ عِصابَةُ الحَقِّ[363]	فازوا بِدَعْوَةِ سَيِّدِ الخَلْقِ
2) فَوُجوهُهُمْ زُهْرٌ مُنَضَّرَةٌ	لألاؤُها كَتَلألُؤِ البَرْقِ
3) يا لَيْتَني مَعَهُمْ فَيُدْرِكَني	ما أدْرَكوهُ مِنَ السَّبْقِ

وهذا من أجل حُدوثه من تلك اللذات المنيرة، فما بالك مما كان من متعلَّقاتها وخصائصها ووقائعها الشهيرة؟!

ومنها[364]، أنها تُنَعِّم القلب واللِّسان والسَّمع بأوصاف الحبيب (ص). وذالك ضرب من

[358]- سورة المطففين: 24.

[359]- سورة القيامة: 22.

[360]- النفح: 36/2.

[361]- الفقيه المالكي الإشبيلي المشهور. (ت 543هـ). ترجمته في: الرايات: 44. المُغرب: 1/254-255. المرقبة: 105-107. الأزهار: 3/86-95. بغية الملتمس: 82-88. رقم 79. النفح: 1/25-43. الدّيباج: 2/252-256. الوفيات: 4/296-297. رقم 226.

[362]- فقيه مُحَدِّث سبتِيّ. (ت 633هـ). ترجمته في: النَّيل: 63. الوافي: 7/349. رقم 3339، ومواضع متفرقة في الأزهار وبرنامج التُّجيبي ومَلء العَيْبة والنَّفح وتاريخ ابنِ خلدون.

[363]- القطعة في: النفح: 36/2. الأزهار الطيبة: 149. نفحة المسك: 35.

[364]- شرح العقود: 1/28.

الوصال، ووجه من وجوه القرب والاتصال، وجابرٌ لشيء مما فات من رؤية البصر، واجتماع الصُّوَر.

قال في الشّفاء[365]:

«ومن علامة محبة النبي (ص)، كثرة ذكره له، فمن أحب شيئا أكثر من ذكره»[366].

قال الشاعر[367]:

[البسيط]

1) يا وارداً مِنْ أُهَيْل الحيِّ يُخبِرُني   عَن جيرتي، شَنِّف الأسماعَ بِالخَبَرِ

2) ناشَدتُكَ اللّهَ ياراوي حَديثِهِمو   حَدِّثْ، فَقَد نابَ سَمعي اليَوْمَ عَنْ بَصَري

[368]وقال البوصيري[369]:

[الخفيف]

1) فَتَنَزَّهْ في ذاتِه وَمَعانيـ   ـهِ اسْتِماعًا، إنْ عَزَّ مِنْها اجْتِلاءُ

2) وامْلإِ السَّمْعَ مِنْ مَحاسِنَ يُمْليها   عَلَيْكَ الإنشادُ والإنشاءُ[370]

وقال الشيخ أبو مَدْيَنَ الغَوث، رضي اللّه عنه[371]:

[الطويل]

1) وَنَحْيَى بِذِكراكُم[372]، إذا لَمْ نراكُمُ   ألا إنَّ تَذكارَ الأحِبَّةِ يُنْعِشُنا

2) فَلَوْلاَ مَعانيكُمْ تَراها قُلوبُنا   إذا نَحْنُ أيْقاظٌ، وفي النَّومِ، إنْ غِبْنا

---

[365]- الشفا، 572/2.

[366]- الشفا: 572/2. «أكثر ذالك».

- قطع المؤلف النقل عن شرح العقود مؤقتا.

[367]- البيتان في: شرح جَسّوس: 7. والنقول الشعرية الآتية تنظر عموما إلى شرح جسوس: 8.

[368]- انتهى الاستطراد. وعاد النقل إلى: شرح العُقود: 28/1.

[369]- ديوانه: 57.

[370]- انقطع النقل عن شرح العقود.

[371]- الأبيات في: تُحفة الإخوان: 10. شرح جَسّوس: 7.

[372]- تحفة الإخوان: 10: ذكركم.

3) لَمُـتْنَا أَسَى مِنْ بُعـدِكُمْ وَصَـبـابَةً   وَلَكِنْ في الـمَعنى مَـعانيكُم مَـعْنا

وقال[373] ابن الجَزَرِي[374] في كتاب الشَّمائِل[375]:

[الطَّويل]

1) أَخِـلَّايَ، إن شَطَّ الحَـبيبُ ورَبعُـهُ   وَعَــزَّ تَلاقــيــهِ، وناءَتْ مَنازِلُهْ

2) وَفــاتَكُم أن تَنظُرُوهُ بِعَــينِكُمْ   فَـمـا فـاتَكُم بِالسَّمْعِ هذي شَمـائِلُهْ

وقال بعضُهم فيه أيضا[376]:

[الكامل]

1) يا عينُ، إن بَعُــدَ الحَـبيبُ ودارُهُ   ونَأَتْ مَـرابعُــهُ وَشَطَّ مَـزارُهُ

2) فَلَقَدْ ظَفِرْتُ مِنَ الحَبيبِ[377] بِطائِلٍ   إنْ لم تَـرَيْهِ، فَــهــذِهِ آثارُهُ[378]

وقال العارف باللّه، الشَّهيد سَيِّدي عبد السَّلام جَسّوس[379]:

[الكامل]

1) عَلِمَتْ مَـحاسِنُ أحـمـدَ لَمّا اخْتَـفَتْ   فَـقْـدَ التَّـصَـبُّـرِ مِنْ رَقـيقٍ مـائِلِ

2) فَـبَـدَتْ وأَبْدَتْ لِلْعِـيـانِ شَـمـائِلاً   فَـإذا الـمَـحـاسِنُ كُلُّها بِشَـمـائِلِ

وقال ابن الفارض[380] رضي اللّهُ عنه[381]:

373- رجع النقل إلى شرح العقود: 28/1.

374- شرح جسّوس: 7. ابن الجزيري. شرح العقود: 28/1. ابن الجزري.

375- البيتان في: الأزهار الطّيّبة: 189. شرح العقود: 7.

376- البيتان في: الأزهار الطّيّبة: 195. فتح المتعال: 190 (منسوبان إلى جلال الدين ابن خطيب داريا عن بدائع الزهور).

377- فتح المتعال: 190: الزمان.

378- انتهى الاستطراد، ورجع النقل إلى شرح العقود: 28/1.

379- البيتان في شرح جسوس: 7.

380- أبو حفص، عمر بن علي. شاعر صوفي. (ت 632هـ) ترجمته في: الوفيات: 454/3-456. رقم 500. الشذرات: 140/5-150.

381- شرح العقود: 28/1. «ولله ابن الفارض إذ قال».

[البسيط]

1) حَـديثُـهُ أو حَـديثٌ عَنْهُ يُطرِبُني[382] هذا، إذا غـابَ، أو هذا إذا حَـضَـرا

2) كِـلاهُـمـا حَـسَنٌ عِندي أُسَـرُّ بِـهِ لكنَّ أحـلاهُـمـا مـا وافَقَ النَّظَرا

وقال أيضا[383]:

[الطويل]

1) أدِرْ ذِكْـرَ مَنْ أهْوَى، وَلَوْ بَمَلامِ فَـإِنَّ أحـاديثَ الحَـبِـيـبِ مُـدامي[384]

وأصل هذا المعنى لبشار إذ قال[385]:

[البسيط]

1) يا قَـوْمِ أُذْني لِبَعْضِ الحَيِّ عـاشِقَـةٌ وَالأُذْنُ تَعْـشَقُ قَـبلَ العَـيْنِ أحـيـانا

2) قالوا: بِمَنْ لا تَرى تَهْذي، فَقُلْتُ لَهُمْ: الأُذْنُ كَالعَيْنِ توفي القَلْبَ ما كانا[386]

وهذا أيضا يجري بالنِّسبة إلى الرب، عز وجل. وفي الحِكَم[387]: «أمَرَك في هذه الدّار». ومنها أن سعينا فيها، الذي هو من نتائج حُبِّه وعلامتُه، إذ من علامة حُبِّه التَّجَسُّس على أخباره:

[الطويل]

1) وَمـا شَـرِبَ الإيمانَ إلاَّ فُـؤادُ مَنْ بِأخـبـارِ خـيـرِ الخَلْقِ قَـدْ مَـلأَ الأُذْنا

ثناء عليه، وتحبُّب إليه، وذلك تَعَرُّض لنفحات إحسانه، واستمطار لسحائب امتنانه، إذ لا ريب في أن مدح الأفاضل تَعَرُّض لإحسانهم الهاطل[388].

---

[382]- ديوانه: 183. الأزهار الطيبة: 196.

[383]- شرح العقود: 1/28: «وقال».

[384]- ديوانه: 162. الأزهار الطيبة: 196. وقد انقطع نقل المؤلف مؤقتا.

[385]- ديوانه: 217-218.

[386]- انتهى الاستطراد، ورجع النقل إلى شرح العقود: 1/28.

[387]- شرح الحكم: 1/89. الإيقاظ: 167-176. 465.

[388]- بعده في شرح العقود: 1/28: «ولأمية بن أبي الصلت: أأذكر حاجتي» إلخ. ولم يذكر البيتين.

قال أُمَيَّة بنُ أبي الصَّلت، رضي اللّه عنه[389]:

[الوافر]

1) أأذْكُرُ حاجَتي، أمْ قَدْ كَفاني[390] حَيـاؤُكَ، إنَّ شيـمَـتَكَ الحَيـاءُ

2) إذا أثنى عَلَيْكَ الـمَـرْءُ يَوْمًـا كَـفـاهُ مِن تَعَـرُّضِـهِ الثَّناءُ

وفيه أيضا انتساب له، صلّى اللّه عليه وسلم، واستناد إليه، واحتماء به، وتَمنُّع وتحصُّن[391].

قال الشَّيخ العارف باللّه، سيِّدي عبد الوهّاب الشَّعرانيّ [رضي الله عنه][392] «ما في الوجود من جعل الله تعالى، له الحَلّ والرَّبط، دُنيا وآخرة، مثل النَّبيّ (ص)، فمن خدمه على المحبَّة والصِّدق والوفاء، دانت له رقاب الجبابرة، وأكرمه جميع المؤمنين، كما ترى ذالك فيمن كان مُقَرَّبا عند ملوك الدُّنيا. ومن خدم السَّيِّد، خدمته العبيد. وكما أن غلام الوالي لا يُتَعَرَّضُ له إذا سَكِر مثلا، إكراما للوالي، فكذا خُدَّام النَّبيّ، (ص)، لا تتعرَّض له الزَّبانية يوم القيامة، إكراما لرسول الله (ص)، فقد فعلت الحماية مع التقصير، ما لا تفعله كثرة الأعمال الصالحة، مع عدم الاِستناد لرسول الله (ص)، ألاِستناد الخاصّ». انتهى.

وللشيخ ابن زكري في همزيته[393]:

[الخفيف]

1) وإذا مـا الجَنابُ كـانَ عَظيـمـاً مُـدَّ منْهُ لِخَـادِمـيـهِ لِواءُ

2) وإذا عَظُمَت سِيـادَةُ مَـتبـو عٍ أجَلَّ أتبـاعَـهُ الكُبَـراءُ[394]

وله أيضا من قصيدة[395]:

---

[389]- شاعر جاهليّ ترجمته في: الشّعر والشعراء: 2/369-372. طبقات ابن سلام: 66-68.

[390]- البيت الأول في طبقات ابن سلاّم: 67.

[391]- أسقط المؤلف، بعدما سبق، نصّا صغيرا ورد في شرح العقود: 1/28.

[392]- زيادة من المؤلف.

[393]- البيتان في: الأزهار الطّيّبة: 197. شرح جَسّوس: 7.

[394]- البيتان الواردان بعدُ من زيادات المؤلف.

[395]- البيتان في: الأزهار الطّيّبة: 197.

[الوافر]

1) حَـــبـــيبُ اللّٰهِ أوصلنا إلَيْـــهِ   وَخُـــدّامُ الحَـــبـــيبِ مُـــقَـــرِّبونا

2) وإنَّ عِـنـايَـةَ المَـمْـلـوكِ تَـعْـلـو   بِقَـدْرِ عُـلا الـمَـوالي المالِكينا[396]

ومنها أنها تُحَرِّك الحبَّ السّاكن، والشَّوق الكامِن، وتُنعش الأرواح، وتُطرِب الأشباح، وتُقَوّي داعِيَ الإقبال، وتُغَيِّب فيه البال، وبالغيبة فيه تحصل حلاوة الإيمان، واستحلاء الطاعات، والبعدُ عن أسباب العصيان. وما أحسنَ قولَ أبي مَدْيَن[397]:

[الطويل]

1) يُحَـرِّكُنا ذِكْـرُ الأحـاديثِ عَنْكُمُـو   وَلَوْلا هواكُمْ في الحَشا ما تَـحَرَّكْنا

وقولَ الآخر[398]:

[الوافر]

1) إذا ذُكِـرَتْ شَـمـائِلُ مَنْ إلَيـهِ انـ(م)   تَمَتْ بينَ الوَرى أسْـمَى الشَّـمـائِلْ

2) رَأيْتَ العـاشِـقِينَ[399] تَمـيلُ وجْـداً   كَـأغْـصـانٍ تُحَـرِّكُـهـا الشَّـمـائِلْ

وإذا كان ذالك يحصُل عند ذكر مطلق المحبين لمُطلق المحبوبين، حتّى قال الشّاعر[400]:

[الطويل]

1) وَإنّي لَتَـعْـروني لِذِكْـراكِ هَزَّةٌ   كَـمـا انْـتـفَضَ العُـصـفورُ بَلَّلَهُ القَطْرُ

فما الظن بأشرف المحبوبين الكُمَّل، وقد تكاملت فيه أسباب المحبَّة على الكمال؟! ولله البُرَعِيُّ إذ قال[401]:

[396]- انتهى ما زاد المؤلف، وعاد إلى شرح العقود: 1/29.

[397]- البيت من قصيدة في شرح جسوس: 7. شرح المباحث: 58. تُحفَة الإخوان: 10.

[398]- شرح العقود: 1/29. «وقد أحسن القائل» والبيتان في: شرح العقود: 1/29. الأزهار الطيبة: 197. شرح جسّوس: 1.

[399]- شرح جسّوس: 1: السّامعين.

[400]- أبو صَخْرٍ الهُذَليّ. والبيت من شواهد الألفية. شرح ابن عَقيل: 2/20.

[401]- عبد الرحيم البُرَعِيُّ اليمني. شاعر مَدّاح من أهل القرن الخامس. والأبيات في: ديوانه: 48-49. الأزهار الطَّيِّبة: 197. المجموعة النَّبهانيَّة: 1/121-122. والبيت الأول في شرح العقود: 2/53.

[الوافر]

1) نَبِيٌّ مـــا رَأَتْـهُ الشَّــمْسُ إلاّ — وكَلَّتْ عَنْ مَـحـاسِنِه حَـيـاءَ[402]

2) نَحِنُّ لِـذِكْـرِهِ طَرَبًا وَشَـوقًـا — فَـتَـحْـسَـبُنا تَعـاطَيْنا الطِّلاءَ

3) وَمـالي لا أحِنُّ إلى حَـبـيبٍ — ثَمِلْتُ بِراحِ مِـدْحَـتِـهِ حَـيـاءَ

وقال[403]:

[الطويل]

1) وَتَأْخُـذُ قَلبِي نَشْـوَةٌ عِندَ ذِكْـرِكُمْ — كَمـا ارتاحَ صَبٌّ خامَرَتْهُ خُمُورُ[404]

2) أصُـومُ عَنِ الأغـيـارِ قَطْعًا وذِكْـرُكُمْ — سُحورٌ لِصَـوْمٍ في الهَـوَى وفُطُورُ[405]

3) وَمَدْحُ رسُولِ اللّهِ أَصْلُ[406] سَعَادَتِي — أفُـوزُ بِهِ يَوْمَ السَّـمـاءُ تَمـورُ

4) نَقِيٌّ تَقِيٌّ أرْيَحِيٌّ مُـهَـذَّبٌ — بَشِـيـرٌ، لِكُلِّ العـالَـمِينَ نَذيرُ

5) إذا ذُكِـرَ ارتاحَتْ قُلوبٌ لِذِكْـرِهِ — وَطابَتْ نُفـوسٌ، وانْشَـرَحَتْ صُـدُورُ

وبالجملة، فذِكْر محاسنه، (ص)، يُحرِّك ما في القلُوب من الحُبِّ والشَّوق، ويُحصِّل من انشراح الصَّدر، وتفريج القلب، ما يناسب إجلاء تلك المحاسن[407]. «ولاسيما إذا كان القارئ حسن الصَّوت، وكانت قراءته على وجه يُثير الخشوع، ويرقِّق القلوب، كما هو المطلوب عند قراءة القرآن».

[فوائد تعليم السِّيرة في ميميّته]

وإلى هذه الفوائد التِّسع الَّتي ذكرنا لعلم الشمائل والسِّيَر، أشار الشيخ أبو الفيض حمدون بقوله[408]:

402- ديوانه: 49. انتشاء.

403- الأبيات في: ديوانه: 76. شرح جسوس: 8. المجموعة النبهانية: 2/93-94.

404- ما بعده من إضافات المؤلف.

405- ديوانه: 76: «لصَومي سُحورٌ في الهوى وفُطور».

406- ديوانه: 76: فأل.

407- ما بعده من شرح العقود: 1/31.

408- شرح العقود: 1/23-29.

[البسيط]

1) أطيب[409] بها سيرةً مِنْ نَشْرِها عَبَقَتْ شَمائلُ لَهُ تَهْدينا إلى اللَّقَمِ
2) شَمائِلُ لِعَظِيم الجاهِ مُطْلِعَةٌ عَلى الّذي يَمْلأ القُلوبَ مِنْ عِظَمِ
3) شَمائِلُ عَرَفَتْ كَيْفَ العُروجُ عَلى مِعْراجِ صَبْرٍ وشُكْرٍ رافِعَيْ حِكَمِ
4) شَمائِلُ صَبَغَتْ حُبَّ القُلُوبِ عَلى حُبٍّ لَهُ مُثْمِرِ النَّجاةِ مِنْ ضَرَمِ
5) وَمُثْمِرٍ لِمَعيَّةِ الرَّسُولِ وَحُبِّ (م) اللَّهِ، حَيٍّ على حُبٍّ لِذي القِدَمِ
6) شَمائِلُ أشْهَدَتْنَا ذاتَهُ طَلَعَتْ شَمْسًا بِقَلْبٍ، تُزيلُ سُدْفَةَ الظُّلَمِ
7) شَمائِلُ تَشْمَلُ الُمحَدِّثِينَ بِها والسَّامِعِينَ لَها نَضارةُ الإِمَمِ
8) شَمائِلُ مَرُّها بِنُطْقٍ اَو أُذُنٍ ضَرْبٌ مِنَ الأُنْسِ والوِصالِ وَالأَمَمِ
9) شَمائِلُ سَعْيُنا في عِلمِها قُرَبٌ وَخِدْمَةٌ لِجَنابٍ رافِعِ الخِدَمِ
10) شَمائِلُ حَرَكَتْ شَوْقًا وهَوى كَما تُحَرِّكُ أغصانًا على أكَمِ

[فوائد قراءة علم التَّصوُّف عنده]

وكان الشَّيخ أبو الفيض، رضي اللّه عنه، كثيرا ما يَحُضّ على قراءة علم التَّصوُّف، والإكباب على مطالعة كتبه، ويقول إنه يحصل للمُكِبّين عليه، وإن كانوا مُخَلِّطين، فوائدُ عظيمة.

- منها تقوية أنوار الإيمان واليقين، لأن لكلام القوم صولةً تُحِقُّ الحقّ، وتُبطِل الباطل، ونورا تامًا لبُروزه من قلوب مُنَوَّرة. وكلُّ كلام يبرز عليه كُسوة القلب الذي منه برز.

- ومنها معرفة آداب العبودية اللائقة بين يدي الربوبية، إذ التصوف كلُّه آداب، كما قال أبو حفص الحَدّاد[410]: «والتّصوُّف كلّه آداب، ولكل وقت أدب، ولكلّ حال أدب، ولكلّ مقام أدب، فمن لزم آداب الأوقات، بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيّع الأدب، فهو بعيد من حيث يظنُّ القُرب، مردود من حيث يظُنُّ القبول».

[409]- شرح العقود: 1/23. أكرم.

[410]- أبو حفص، عمر بن سالم الحداد النّيسابوري الصّوفي: (ت 270هـ). ترجمته في: الطبقات الكبرى: 1/ 82-83. رقم 156. الرِّسالة: 17.

- ومنها ما يحصل لمن سمع آدابهم وأخلاقهم الكريمة، ونظر في أوصاف نفسه الذَّميمة، من علمه أنه بمعزل عن الاستقامة، فيستصغر نفسه، ويحتقرها، فيتواضع وينتفي عنه الكِبْر والعُجْب، ويرى أنه مفلس من كلّ خير، فيقف بباب مولاه بالاضطرار، ومن فُتِح له باب الاضطرار، فُتِحَت له أبواب الجنة.

- ومنها ما تنتجه معرفة خصائصهم ومحاسنهم من جَذب القلب لتعظيمهم ومحبتهم، ومن أحبَّ المُحِبِّين لله، التحق بهم، وكان معهم لحديث: «اَلْمَرءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ». رواه الشَّيخان وغيرهما من حديث ابن مسعود وأنس بن مالك، وحديث: «هُمُ القومُ لا يَشْقَى جليسُهُم». رواه الشيخان والتِّرمِذِيّ من حديث أبي هُرَيْرَة.

- ومنها أنه يوصل إلى التَّصديق بهذا العلم، وذالك ولاية. قال الجُنَيد: «التَّصديق بعلمنا هذا ولاية، وإذا فاتتك المِنَّة في نفسك، فلا يفتك أن تُصَدِّق بها في غيرك». وقال أبو يزيد[411]: «إذا رأيتَ من يومن بكلام أهل الطريق، فقل له يدعو لك، فإنه مُجابُ الدَّعوة».

وقال الصِّقلِّيّ في كتابه: «أنوار القلوب، في علم الموهوب»: «كلّ من صدَّق بهذا العلم فهو من الخاصة. وكل من فهمه فهو من خاصَّة الخاصَّة. وكلُّ من عبّر عنه وتكلّم فيه، فهو النَّجم الّذي لا يُدرك، والبحر الذي لا يَنزَف».

وذكر بعضهم أنه رأى النبي (ص)، في المنام، قال: فقلت له: أنا المتطَفِّل في هذا العلم يا رسولَ الله. قال: اقرأ كلام القوم، فإن المتطفِّل على هذا العلم هو الوليّ. وأما العالِم به، فهو النَّجم الذي لا يُدرك.

وإلى هذا أشار أبو الفيض بقوله[412]:

[الطويل]

1) طُفَيْلِيُّ أَهْلِ اللّهِ خَيْرُ طُفَيْلي — وآتيهِمُ المَمْنوحُ أَحْسنَ نَيْلِ

2) إذا حَلِيَتْ أُذْناكَ مِنْ حِكَمٍ لَهُمْ — قَفَوتَهُمْ تَشُمُّ تُرْبَةَ ذَيْلِ

[411]- أبو زيد، طيفور بن عيسى البِسطامي الصوفيّ الكبير. (ت 261هـ). ترجمته في: الوفيات: 531/2. رقم 312. الطّبقات الكبرى: 76/1-77. رقم 148. الرسالة: 13-14.

[412]- القطعة في: الأزهار الطيّبة: 160. ديوانه: 168.

3) فَلا تَعْدُوَنْ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ولا تَقُلْ   تَأَخَّرْ عَنْ أبوابٍ لَهُمْ يا طُفَيْلِي

4) ولا تَحْقِرْنِي مِن ثِيابٍ تَدَنَّسَتْ   فَقَدْ يَذْهَبُ الفَجْرُ المُنيرُ بِلَيْلِ

[محبته لآل البيت]

وكان، رضي اللّه عنه، يُحبُّ أهل البيت المحبَّةَ العظيمة، ويودُّهم المودَّةَ الجسيمة، ويهتمُّ بأمورهم، ويعتني بشؤونهم. لا يزال حريصا على إيصال الخير إليهم، ويسعى في قضاء حوائجهم ما أمكنه، ويتضرع إلى اللّه فيما يُصلِحهُم، ويتواضع لهم أعظم التَّواضع، ويُكرِمُهم غايةَ الإكرام، ويَبَرُّ بهم أشدَّ البرور، ويذكر كثيرا إذا سمع حديث: «مَنْ أَوْسَعَ على أهلِهِ وَعِيالِهِ يومَ عاشوراء، أوسَعَ اللّهُ عَلَيْهِ سائِرَ السَّنَةِ»، أن عيال النَّبيِّ (ص)، وأهلَه مُقدَّمون على عيالنا وأهلنا. لا نُؤثِر عيالنا وأهلنا عليهم، إلاَّ لعظيم جهلنا بما له من الحقوق علينا، وهو في ذالك موافق لقول أبي بكر: «لَقرابةُ رسولِ اللّه (ص)، أحبُّ إليَّ من أهلِ قَرابتي». ويقول: إن محبتهم وإكرامهم مما تنفرج به الكُربات والشدائد المُدلَهِمات.

وإذا تلاقى مع واحد منهم، يُؤكِّد الرَّبط بينه وبينه، ويأخذ عليه العهد بأن يشفع له في عَرصات القيامة، وأن لا يُسلِمَه في تلك الشَّدائد، اقتداء بالسَّلَف الصَّالح، كمالكٍ وأضرابه. ويَعِظهُم ويُذكِّرُهُم ويُرشِدُهم إلى التخلق بأخلاق جَدِّهم، (ص)، والعمل بسُنَّتِه، ويبذُل لهم النُّصح بتعليم جاهلهم، وتنبيه غافلهم، وصرف وجوهِهِم عن الدّنيا، ورفع هِمَّتِهم إلى المراتب العُليا، واجتناب الثَّناء مشافهة عليهم، بمالهم من الخِصال الحميدة، والأفعال السَّديدة، لأنَّ ذالك ذريعة للاِغترار منهم والإعجاب، وارتكاب ما يُفيد البُعد عن الله والحِجاب، وَيحُضُّ الناس على محبتهم وتوقيرهم، والتَّواضع لهم والأدب معهم، واجتناب إذايتهم قولا وفعلا، ولا يُحِبُّ من يُخالطهم على حظٍّ دنيوي، أو يُخادعهم في شيء، أو يكتمُ عنهم نصيحة، ويرى أن التَّوانيَ في أمورهم ومحبَّتهم نقص في الإيمان. ولما وقف، رحمه الله، على قصيدة عبد الله بن المُعتزّ، التي يقول فيها مفتخرا على أهل البيت:

[قصيدة ابن المعتز[413] في الطَّعن[414] على آل البيت]

[المتقارب]

1) نَهَيْتُ بَني رَحِمي ناصِحًا[415] نَصيحَةَ بَرٍّ بِأنسابِها

2) وقَدْ رَكِبُوا[416] بَغْيَهُمْ وارتَقَوْا مَعارِجَ تَهْوي[417] بِرُكّابِها

3) فَدانَوْا[418] فَرائِسَ أُسْدِ الشَّرَى وَقَدْ نَشَبَتْ بينَ أنيابِها

4) دَعُوا الأُسْدَ تَفْرِسُ ثُمَّ اتَّبِعوا بِما تُفضِلُ[419] الأُسْدُ في غابِها

5) قَتَلْنا أُمَيَّةَ في دارِها[420] ونَحْنُ أَحَقُّ بِأسلابِها

6) وَلَمّا أبى اللّهُ أن تَمْلِكوا نَهَضْنا إلَيْها، وَقُمْنا بِها

7) وَنَحْنُ وَرِثْنا ثِيابَ النَّبِي فَكَمْ تَجْذِبونَ بِأهدابِها[421]

8) لَكُمْ رَحِمٌ يا بَني بِنْتِهِ ونَحْنُ[422] بَنو العَمِّ أولى بِها

9) فَمَهْلًا بَني عَمِّنا إنَّها عَطِيَّةُ رَبٍّ حَبانا بِها

10) وكانتْ تَزَلْزَلُ في العالَمينَ فَشُدَّتْ لَدَيْنا[423] بِأطنابِها

---

[413]- عبد الله ابن الخليفة المُعتزّ العبّاسي. أمير شاعر ناقد. (ت 296هـ) ترجمته في: الوفيات: 3/76-80. رقم 341. الأغاني: 1/286.

[414]- ديوانه: 1/221-222.

[415]- الديوان: نصحت بني رحمي لو وعوا.

[416]- الديوان: وقد عقدوا.

[417]- الديوان: بزلاء تنزو.

[418]- الديوان: وراموا.

[419]- الديوان: تدع.

[420]- الأبيات 5، 6، 7، 8 في: الأزهار الطيبة: 89. ديوان حمدون: 46.

[421]- الديوان: بهدابها.

[422]- الديوان: ولكن.

[423]- الديوان: إلينا.

[قصيدة صَفِيّ الدّينِ الحَلّي في الرَّدّ على ابن المعتَزّ]

ووقف على قول[424] صفيّ الدّين الحَلّيّ[425] في الرّدّ عليه من قصيدة[426]:

[المتقارب]

1) أأنتَ تُفـــاخِـــرُ آلَ النَّبي	وتَجْـحَـدُها فَـضْلَ أنسـابِهـا[427]
2) بِـكُمْ بِـأهـلِ المُـصـطَفـى أم بِـهِم	فَــرَدٌ الـعِــداةَ بِأوصـــابِهـــا ؟!
3) أعَـنْـكُمْ نَـفـى الـرِّجْـسَ أم عَـنْـهُـمُ	لِطُهْــرِ النّفُــوسِ وألبـابِهـا[428]
4) هُمُ الصّــائِمــونَ، هُمُ القــائِمــونا	هُمُ السّــاجِــدونَ بِمحْــرابِهــا
5) هُمُ الزّاهِدُونَ، هُمُ العـــابِدونا	هُمُ العـــالِمـــونَ بِآدابِهـــا
6) هُـمُ قُـطْـبُ مِـلَّـةِ ديـنِ الإلاهِ	وَدَوْرِ الرَّحـــاةِ بِأقـطابِهـــا
7) تَقــولُ[429]: وَرِثْنا ثيـــابَ النَّبي	فَكَمْ تَجْـــذِبونَ بِأهدابِهـــا
8) وعـندَكَ لا تـورَثُ الأنبـــيـــاءُ	فَكَيْفَ حَظِيــتُمْ بِأثوابِهـــا
9) [أبــوهُــمُ وَصِــيُّ نَــبِـيِّ الإلاهِ	وأهلُ الوصــيَّــةِ أولى بِهـــا][430]
10) أجَــدُّكَ يَـرْضى بِمـــا قُلْتَـــهُ	ومـــا كـــانَ يَوْمًـــا بِمُـــرتابِهـــا
11) وكـــانَ بِصِـــفّينَ مِنْ حِـــزْبِهِمْ	بِحَـرْبِ البُـغـاةِ تَواخَـوْا بِهـا[431]

424- ميم: «على قول قصيدة».

425- صفي الدين، عبد العزيز بن سَرايا الطائيّ. (ت 752هـ) شاعر مشهور. ترجمته في: الدُّرَة: 3/119-121. رقم 1060. الدُّرَر الكامنة: 2/369-371. نثيْر الفرائد: 221-227.

426- ديوانه: 92-94. مع تقديم وتأخير وتغيير.

427- ديوانه: أحسابها. والبيتان بعده في ديوان حمدون: 46.

428- بعده في رواية الديوان:

(9) هُمُ الزاهدون هم العابدون	هم الساجدون بمحرابها
(10) هم الصائمون هم القائمون	هم العالمون بآدابها

429- الديوان: 93: وقلت.

430- سقط البيت من رواية الديوان.

431- الديوان: 93: لحرب الطغاة وأحزابها.

12) وَصَلَّى مَعَ النَّاسِ طولَ الحَيَاةِ وحَيْدَرُ في صَدْرِ مِحْرابِها[432]

13) فَهَلاَّ تقَمَّصَها جَدُّكُمْ وَهَلْ كانَ مِنْ بَعْضِ خُطَّابِها[433]

14) وإِذْ جَعَلَ الأَمْرَ شورَى فَهَلْ[434] كانَ مِنْ بَعْضِ أَرْبابِها

15) وَقَولُكَ: أنتُمْ بَنو بِنْتِهِ وَلَكِنْ بَنو العَمِّ أولى بِها

16) بَنو البِنْتِ أيضاً بَنو عَمِّهِ وذالِكَ أدنَى لأنسابِها

17) وَقُلْتُمْ[435] بِأَنَّكُمُ القاتِلونا أسُودَ أُمَيَّةَ في غابِها

18) كَذِبْتَ، وَلَوْلا أبو مُسْلِمٍ[436] لَعَزَّت عَلى جَهْدِ طُلاَّبِها

19) وقَدْ كانَ عَبْداً[437] لَهُمْ لا لَكُمْ رَأى عِنْدَكُم[438] قُربَ أنْسابِها

20) وكُنْتُمْ أُسارى بُطونِ الحَبْسِ[439] وقَدْ شَقَّكُمْ[440] لَثْمُ أعتابِها

21) فأَخْرَجَكُمْ وحَباكُمْ بِها وقَمَّصَكُمْ فَضْلَ جِلبابِها

22) فَجازَيْتُموهُ أشَدَّ الجَزاءِ[441] بِطَغْوى[442] النُّفوسِ وإعجابِها

23) فَدَعْ في الخِلافَةِ فَضْلَ[443] الخِلافِ فَلَسْتَ[444] ذَلولاً لِرُكّابِها

24) وما أنتَ والفَحْصُ عَنْ شَأنِها وَما قَمَّصوكَ بِأثوابِها

---

[432]- في الأصل: وحيدر بمحرابها. والتصويب من الديوان: 93.

[433]- الديوان: 93: إذا كان إذ ذاك أحرى بها.

[434]- الديوان: 83: لذا جعل الأمر شورى لهم.

[435]- الديوان: 93: وقولك.

[436]- الديوان: 94. ولولا سيوف أبي مسلم.

[437]- الديوان: 94: وذالك عبد.

[438]- الديوان: 94: رعى فيكم.

[439]- الديوان: 94: ببطن الحبوس.

[440]- الديوان: 94: شفكم.

[441]- الديوان: 94: بشر الجزاء.

[442]- الديوان: 94: لطغوى.

[443]- الديوان: 94: فصل.

[444]- الديوان: 94: فليست.

25) وَمـا سـاوَرَتْكَ سِـوَى سـاعَـةٍ فَـمـا كُنْتَ أَهْلاً لأسـبـابِهـا

26) وَدَعْ[445] ذِكْرَ قَـوْمٍ رَضُوا بِالكَفافِ وَجـاءوا القَناعَـةَ[446] مِنْ بابِهـا

قال، رضي الله عنه، هذه القصيدة الغرّاء في أقرب من ساعة، وذالك مما يُحقّق به. اللّهُمّ أيِّده بروح القُدُس:

[قصيدة الشّيخ أبي الفيض حمدون في الرّدّ على ابن المعتزّ]

[المتقارب]

1) مُـعَـيِّـرَ أبناءِ فـاطِمَـةٍ[447] بِكَلْمَـتِـهِ الّتي أنْسى بِهـا[448]

2) وَمـا كـانَ عـالٍ بِغَـيْـرِ عُـلاها ومُـعْـتَـزٌ إلاّ بِأنسـابِهـا

3) ويا مُـبْـدِيَ الشُّـهْبِ مِنْ كَلِمـاتٍ لِنَفْسٍ لَهُ كـانَ أكْـوى بِهـا

4) وَمُـهْـدِيَ كَـأسٍ لَهُ أسْكَرَتْ وَعَـرْبَدَ مِنْ شَمٍّ أكْـوابِهـا

5) لَوَ انَّكَ تَعْـرِفُ مـا فُـهْتَ أصْـلاً بِهـا، لَمْ تَعِبْ أصْلَ أصـلابِهـا

6) لِحَـوْطَتِـهِ لِلنَّبيِّ وكـانَ بِنارِ أعـاديهِ أصلى بِهـا

7) لَعَـمْـرِي، لَوْ كـانَ يُفْـدى بِنَفْسٍ وأهْلٍ لَمـا كـانَ أوْدَى بِهـا

8) وَذالِكَ مِنْ شـيـمَـةٍ لِنُفـوسٍ مُـحِـبِّي مُـحَـمَّـدٍ اوْ دَأْبِهـا[449]

9) بِنِسـبَـتِكُمْ لَهُمْ قَـدْ رَأَسْـتُمْ وإلاّ لَكُنْتُمْ مِنَ اَذْنابِهـا

10) بِهـا لُحْـتُمْ قـابَ قَـوْسَيْنِ مِنْ ثُرَيّا السَّـمـاءِ أوْ أدْنى بِهـا

11) أبـوهُـمُـو قَـبْـلَكُمْ وارِثٌ لَهـا، وأحَقُّ وأرْبى بِهـا

12) وَفي «أجَـعَلْتُمْ»[450] شَـهـادَةُ رَبٍّ لَهُ أنّهُ خَـيْـرُ أرْبابِهـا

---

[445]- الديوان: 94: فدع.

[446]- الديوان: 94: الخلافة.

[447]- البيتان 1، 2 في الأزهار الطّيّبة: 90. والقصيدة في ديوانه: 46-49، وفيها 47 بيتا.

[448]- تسهيل الهمزة لإقامة الوزن كثير في هذا النص.

[449]- ديوان حمدون47:«محب محمد أودى بها» . ولا يستقيم به الشطر.

[450]- سورة التوبة:19.

13) وكــان ابنُهُ حَــسَنٌ بَعْــدَمــا تَوَلَّى، وقَــدْ كــانَ أقْــوى بِهــا

14) تَخَلَّف عَنْهــا ولَــوْلاهُ مــا تَخَلَّصَ قــابٌ مِنَ اقْــوابِهــا

15) ولَوْلا أخــوهُ لَكُمْ رَدُّ شــيــعَــةُ بَعْــدَ ذالكَ، وأوْصى بِهــا

16) لَـمــا جُــرَّتَ أذْيالُهــا لَكُمــو وَمــا ذُقْــتُمْ غَــيْــرَ أوْصــابِهــا

17) أبو مُــسْلِمٍ بِهِمْ قَــدْ دَعــا لَكُمْ، ثُمَّ كُنْتُمْ مِنَ اعْــتى بِهــا[451]

18) بِــهِــمْ نِــلْــتُــمُ أيَّ مَــنْــزِلَــةٍ تَخِــرُّ البُــدورُ بِأعــتــابِهــا

19) أتى بِمَــقــانِبَ أحْــيَــتْ مَنا قِبَ فــيكُمْ، وأعْــداد[452] اثْوى بِهــا

20) وأعْــراهُمُ مِنْ رِياسَــتِــهِمْ وألْبَــسَكُمْ حُــسْنَ أثْوابِهــا

21) وإنْ بِمَــلاءَتِكُمْ قَــدْ سُــتِــرتُمْ فَلَمْ تَهْــدِ نــارٌ لأنْقــابِهــا

22) فَــهُمْ بِالْكِســاءِ أجَلُّ وأعْلى وأغْلى وأتْقى وأنْقى بِهــا

23) وَإنْ قَدْ سَبَيْتُمْ[453] قُلوبًا بِقُرْبى[454] أبٍ لِلنَّبِيِّ وَأسْــبــابِهــا

24) فَــهُمْ بِقَــرابَتِــهِمْ مِنْ أبٍ وَأُمٍّ عَلَتْ قَــدْرًا اسْــبى بِهــا[455]

25) [وَإنْ كــانَ يُسليكُم أنْ سَلَبْــتُمْ مِنْ أمَــيَّــةَ بَعضَ أســلابِهــا

26) فَــهُم بِخِــلافَــتِــهِمْ باطِنًا أقَــرُّ عُــيــونًا وَأسلى بِهــا

27) وكُنتُمْ بِظاهِرِها تَعْــتَــنو نَ، وكــانوا بِظاهِرٍ أعْنَى بِهــا

28) وَقَــدْ قَطَفــوا[456] بِيَــدَيْ كَــرَمٍ جَنَى جَنَّتِــهــا[457] وأعنابِهــا

29) وَهَلْ فــيكُمْ مِــثْلُ إدريسَ فــيــهِمُ، أصــابَ، ومــا كــانَ أشــوى بِهــا

[451]- ديوان حمدون47: «كنتم أعتى بها».

[452]- ديوان حمدون47: أعداء.

[453]- الأزهار الطيبة: 90: سلبتم.

[454]- في الأصل: بالقربى.

[455]- ترك المؤلف في الأصل صفحة فارغة. وقد أتممنا النصّ لملء الفراغ من ديوان حمدون: 48-49. وقابلنا ثمانية من الأبيات على: الأزهار الطيّبة: 90، وهي الأبيات رقم 25-29،36،40،41.

[456]- الأزهار الطيبة: 90: قطعوا.

[457]- الأزهار الطيبة: 90: جناها.

30) وَأقْـبَلَ غَـرْبٌ وَشَـرْقٌ إلَيْـهِ مِنَ اوجَـهِـهـا وَمِنَ اشْـوابِهـا
31) أتى مَـغْـرِبًا فَـغَـدا مَـشْـرِقًـا بِمـا جَـرَّ فـيـهِ مِنَ اهْدابِهـا
32) بِهِ أرضُ زَرْهونَ تعْلو السَّـمـا ومـا أرضُ صَنْعـا مِنَ اتْرابِهـا
33) بِزَرهـونَ زُرْهُ تَـنَـلْ مـا تَمنَّى بِـزَوْرَتِـهِ كُـلُّ أتْـرى بِـهـا
34) وكَـابنِهِ مَنْ قَـدْ جَنى زَهْرَةَ الْـ خِـلافَـةِ يَنْأى عَنَ اجْنادِها
35) وكـانَ بإخْـلافِ أهْصَـرَ ها صِـرٍ لِلرَّعـايا، وأجنى بِهـا
36) وهَلْ فـيكُمُ كـابنِهِ ابنِ مَـشـيشٍ مُـديرِ الكُؤوسِ لأصحـابِهـا ؟!
37) وَقَـدْ ذاقَ كَـأسًـا دِهاقًـا ولَمْ يُعَـرْبِدْ بَلْ كـانَ أصْـحى بِهـا
38) وكـالشَّـاذِلِيِّ الَّذي قَـدْ جَـلا طَريقَـةَ الرَّبِّ، أحْـبَى بِهـا
39) طَريقَـةَ رَبٍّ، فَـسَـعْـداً لِمَنْ يَهـدي، وكـانَ مِنَ احْبـابِهـا
40) وَمِـثلَ أبي الفَـيضِ مِنْ دَوْلَةٍ لَـهُ كلُّ دَوْلَـةٍ اعْـرى بِـهـا
41) وَفَـوْقَ الرِّقـابِ لَـهُ قَـدَمٌ مِنِ اعـجامِـهـا وَمِنِ اعـرابِهـا
42) وَمِـثْـلَ الجَـزولي دَلائِـلُهُ مِنَ الدِّركـاتِ كَمَ انجى بِهـا
43) وكَـمْ لَـهُ مِنْ تابعٍ مُـرْشِـدٍ مِنَ اقْطابِهـا، ومِنَ انْجـابِهـا ؟!
44) وفي البَـدَوِيِّ شِـفـاءُ كُلومٍ لِـمَـرْضَى قُلوبٍ وأنْدابِهـا
45) يا مُنْيَـةَ الزائريـنَ حـيـاةً وَمَـوتًا مِنَ السُّحْبِ أندى بِهـا ؟!
46) وكَـمْ لاحَـتَ انْـوارُهُـمْ وَهَـدَتْ لَنا اللهُ أهدى وأقْـرى بِـهـا
47) ومَنْ خـاضَ في لُجَّـةٍ مَنْ هَدى فَـمـا خـاضَ إلاّ بأقْـرابِهـا][458]

[تتمة محبته لآل البيت]

ويُقابل ما يأتي من قِبَلهم من الإذاية بالعفو والصَّفح، ويقول: إذا كُنّا مأمورين بمقابلة ما يصدر في جانبنا من مُطلَق الناس من الإساءة والامتحان، بالعفو والصَّبر والإحسان، فما بالك بما يصدر من آل البيت الكريم، المحفوفين بالتَّبجيل والتَّكريم؟! فيحق على كل من كَمُل إيمانه،

[458]- انتهى ما ملأنا به الفراغ في الأصل.

أن يُقابل ما يأتي من قِبَلهم من الجَوْر والظُّلم، بالعفو والصَّبر والحِلْم، ويُنَزِّله، كما قال الشيخ زروق[459] منزلة القضاء الوارد من الله تعالى، كالغَرَق والحرق ونحو ذلك، إذْ لَهم من الحرمة ما (لسيدهم الذي نسبوا إليه، لأن للجزء منها ما للكلّ). وذالك مقتضى حقيقة المحبة وآيتها، كما أشار إليه القطب سيدي عليّ بن وفا[460] بقوله[461]:

[المتقارب]

1) وفي حـالَةِ السُّخْطِ لا في الرِّضى   بَيـــانُ الُمحِبِّ مِنَ المُبْـــغِضِ

ومن عظيم محبَّته إياهم، أنّه كان كثيرا ما يوصي بعدم المصاهرة لهم، بأن يُنْكَح منهم، مخافة أن يرى الإنسان نفسه أهلا لذالك، أو يُقَصِّر في شيء من الحقوق التي تجب لهم عليه، فيُغضِب بذالك فاطمة الزهراء، الموفي إلى غضب المصطفى، الموفي إلى الخسران الدنيويّ والأخرويّ، لحديث: «فاطمَةُ بِضْعَةٌ مِنّي، يُغضِبُني ما يُغضِبُها، ويَبْسُطُني ما يَبْسُطُها». أخرجه الإمام أحمد، والطبرانيّ والحاكم والبَيْهَقِيّ.

والحاصل أن محبَّته لأهل البيت النبويّ، وتعظيمَه إيّاهم، أمر عظيم. لم نَرَ مثله لأحد من زماننا، ولا رُؤِي في زمان من قَبلنا، بل هو شيء انفرد به، فاشتُهِر به اشتهارا، وامتاز به امتيازا، حتّى عُرِف به، وتحقَّق منه ذالك جملة الشرفاء. ثم لا يُعلَم أحد أطبق أهل البيت على تعظيم أمره، وترفيع قدره مثلُه. ولقد تواطأوا على محبَّته، وائتَلَفت قلوبهم على مودَّته، لما سرى من قلبه إليهم، وظهر من أثَرِه عليهم، والقلب مرآة القلب، ومظهر آثار رحمات الرب.

قيل لبعض العارفين: إنّي أحب آل البيت. فقال له: هيهات ذالك. لو كنتَ تُحبُّهم لاتَّبعوك من وراء. أي لأحبّوك وعَلِقوا بك، لِما عُلِم من سَرَيان المحبَّة عند ذوي القلوب السَّليمة، والطِّباع

[459]- أبو العباس، أحمد بن أحمد البَرْنُسِي. عالم صوفيّ كبير. (ت 899هـ) ترجمته في: الدُّرَّة: 1/90-91. رقم 126. النَّيل: 84-87. الشَّجرة: 1/267-268. رقم 988. الجذوة: 1/128-131. رقم 66. الدَّوحة: 48-51. السلوة: 3/183-184. الفكر السامي: 2/264. معجم المطبوعات: 141-149. رقم 334.

[460]- أبو الحسن، علي بن محمد بن وفا القُرَشِيّ الشاذليّ. (ت 807هـ). صوفيّ مصريّ. ترجمته في: الطبقات الكبرى: 2/22-65. رقم 315. الشّجرة: 1/240. رقم 860.

[461]- البيت في: تحفة الأكابر: 460. وفيه: «وفي ساعة السخط لا في الرضى».

المستضيمة. ومحبةُ آل البيت النبوي، رزقنا الله منها أوفر نصيب، من نتائج الإيمان الحقيقيّ وثمراته، وكذا سائر هذه السيرة المحمديَّة التي سار بها هذا الشيخ، مما في بيان آثارها، ونشر أخبارها، عبرة للمعتبرين، وتذكرة للمُذَكِّرين. رزقنا الله بركته، وضاعف لنا محبته.

[أخلاقه]

وأما أخلاقه، أي ما تكيَّف به من الأوصاف المسمّاة بمكارم الأخلاق، وهي الذكاء والفطنة والشّجاعة والنَّجدة، والحنانة والشفقة، والرأفة والرَّحمة، والصَّبر والاحتمال، والتَّواضع والأدب، وعُلُوُّ الهِمَّة، التي هي العفاف والصِّيانة والوفاء، والفتُوَّة التي هي الكرم والسَّخاء، والحِلم والأناة، والعفو والإيثار، والسَّعي في حوائج الأبرار، فقد جُبِل عليها في أصل فطرته. ولما فُتِح عليه، عادت قُربى إلى الله، وصِلَة لحضرته، فأنزل كُلاًّ منها بمحلِّه، ولما خُلِق لأجله، فصارت كُلُّها لله وفي اللّه.

وأما ذكاؤه وفطنته، فكان له منذ شبَّ عقل تامّ، وذكاء قويّ، وفهم نافذ، وفطنة سريعة، لا يفوته إدراك معنى من المعاني، ولا يسبقه أحد إلى فهم من الفُهوم، ولا يُخدَع في شيء من الأشياء إلاّ اتّفاقا. ولا يُعوِزُه أمر من الأمور، حتّى إنّه ليُدرِكُ الحِرَف والصِّناعات إذا توجَّه إليها دون تعلُّم. وإذا أراد الله تأهيل عبد وتهيِئَتَه لما خُلِقَ لأجله من إرادة خصوصيَّة، وفَضَّله، أكمل خُلُقه وسجاياه، ثم أظهر مزاياه ومفاخره، فيُكَمِّل له عقل التَّمييز، ليتهيأ به إلى عقل التَّخصيص. والأولِيات إشارة للأخرَيات، والبدايات عنوان النِّهايات.

وأما شجاعته ونجدته، فأمر شهير. لم يُجاوز قط قَرن من أقرانه حدَّه في شجاعة ولا نجدة، حسبما تشهد لذالك وقائع كثيرة، يطول إيراد النَّزر اليسير منها.

خرج يوما وهو متولي الأحكام بالغرب[462] لجباية زكاتهم وأعشارهم، فاصطف لقتله منهم نحو خمسين فارسا، فخرج فيهم، وهدَّدهم ووبخهم، وعصمه اللّه منهم.

وأما حنانته وشفقته، ورأفته ورحمته، فأمر عظيم. لا تجده إلاّ عطوفا رؤوفا، شفيقا رفيقا على المسلمين، ويَرِقُّ للمساكين، ويألَم لمُصابهم، ويُشفِق لما بهم، ويُلاطِف ذوي الحاجات،

[462]- المقصود العرائش وأعمالها.

ويُواسي ذوي الفاقات، ويودُّ ذوي الاغتراب، أكثر من ذوي الاقتراب، ويميل إليهم، ويتعطّفُ عليهم، ويُجالسهم ويؤانسهم، ويُنازلهم ويعاملهم. ما شكا له أحد ألما ومرضا إلا اهتمَّ له، وعَظُمت شفقته عليه. ولا يزال داعيا له، وسائلا عنه وعن مُصابه، حتّى يسمعَ خبر شفائه ومعافاته. وما أبصر ذا مصيبة، وإن لم يَشْكُ صاحبها إليه، إلا رقَّ له، وسَلاَّه وواساه، أو جمع بينهما، كأنما الناس كلُّهم أبناؤه وإخوانه وأوِدّاؤه. لا يزال حريصا على نفعهم وردِّهم إلى الله ودفعهم.

وأما صبرُه واحتماله، فعظيم. لا ترى أصبر منه للتّكاليف، ولا أثبتَ منه في الأمراض والمخاويف، كأنه الجبل لا يتزحزح، ولا يَبْرَح مكانه. قويٌّ في ذاته، غيرُ مَهينٍ ولا مُتَضعِّف، متحمِّل للمشاقّ، لا يتبين عليه أثر النَّصَب، ولا يظهر عليه كَرْب نفس ولا قَلَق. ولا يَنقُص من نوافله ووظائفه الدِّينيّة شيئا. وربما يبيت الليل ساهرا، فيصبح بالنهار على عمله. أو يظلُّ على عمله، فيبيت ساهرا. ويتحمل إذاية من آذاه، ولا ينتصر إلاّ لأخ في الله، أو أحد من آل البيت، أو حقّ من حقوق الله. ولقد أوذيَ في أشياء، فما سَئم ولا ضجر، ولا شَرَدَ ولا نَفَر. تمرُّ به أو بمن معه عظيم الدَّواهي، وحاله في الوقت كما هي، من الاستمرار على ما كان عليه من عادة أو عبادة، رُكونا واستسلاما لمن له القدرة والإرادة. وكثيرا ما يذكر أن الصبر مفتاح الفَرَج، وأن انتظار الفَرَج بالصَّبْرِ عبادة، ومع كل عُسْرٍ يُسر. ولكل بداية نهاية. ويُنشِدُ في ذالك قول عَليّ بنِ الجَهْم[463]:

[البسيط]

1) فَما تَجَرَّعَ كأسَ الصَّبْرِ مُعْتَصِمٌ   بِاللّهِ إلاّ أتاهُ اللّهُ بِالفَرَجِ[464]

وقولَ محمّد بن بَشّار:

---

[463]- شاعر عباسي. (ت 249هـ) ترجمته في: الوفيات: 3/355-358. رقم 462. طبقات ابن المعتزّ: 319-322.

[464]- لم أجد البيت في ديوانه. وهو في حاشية المؤلف: 2/170.

[البسيط]:

1) إنَّ الأمورَ إذا انسَدَّتْ مَسالِكُها فالصَّبْرُ يفتَحُ منْها كُلَّ ما ارتَتَجا[465]

2) لا تَيْأَسَنَّ، وإن طالَتْ مُطالَبَةٌ[466] إذا اسْتَعَنْتَ بِصَبْرٍ أنْ ترى فَرَجا

3) أخْلَقْ بِذي الصَّبْرِ أنْ يَحْظى بحاجَتِهِ وَمُدْمِنِ القَرْعِ لِلأبْوابِ أن يَلِجا!

وقولَ بدر الدّين الدَّماميني[467]:

[الطويل]

1) إذا عَضَّكَ الدَّهْرُ الخَؤونُ بِنابِهِ فَلا تَقْرَعَنَّ السِنَّ، واستَعْمِلِ الصَّبرا[468]

2) فَمَهْلاً، فحالُ الدَّهرِ ما قَدْ عَلِمتَهُ فَيَوْمًا تَرى عُسْراً وَيَوْمًا تَرى يُسْرا

وقولَ الآخر:

[البسيط]

1) إنّي رَأيتُ، وفي الأيّامِ تَجْرِبَةٌ لِلصَّبْرِ عاقِبَةً مَحْمودَةَ الأثَرِ

2) وقَلَّ مَنْ جَدَّ في أمْرٍ يُطالِبُهُ واستَصْحَبَ الصَّبْرَ، إلاّ فازَ بِالظَّفَرِ

وكان يقول: ينبغي للعبد أن يُوَطِّن نفسَه على المِحَن والمصائب، حتى يَهون عليه ما يلقاه، ويجد السُّلُوَّ عند فُقدان ما يهواه، وينشد في ذالك قولَ القائل:

[المتقارب]

1) يُمَثِّلُ ذو اللُّبِّ في لُبِّهِ[469] شَدائِدَهُ[470] قَبْلَ أن تَنْزِلا

[465]- الأبيات في: شرح الحِكَم: 25. حاشية المؤلف: 170/2.

[466]- في الأصل: مغالبة. والتصويب من شرح الحِكَم: 25. والحاشية: 190/2.

[467]- محمد بن أبي بكر المخزومي القرشي. فقيه أديب مصري (ت 827هـ). ترجمته في: البُغيَة: 1/66-67. رقم 113. الشُّجرة: 240/1. رقم 863.

[468]- البيتان في حاشية المؤلف: 170/2.

[469]- الأبيات في شرح الحكم: 24. الإيقاظ: 57.

[470]- شرح الحكم: 24. الإيقاظ: 57: شدائد. ولا يستقيم الوزن به.

2) فَــإنْ نَزَلَتْ بَغْــتَــةً لَمْ تَرُعْــهُ لِمــا كــانَ في ذِهْنِه[471] مَــثَّــلا

3) رَأى الأمْـــرَ يُفْــضِي إلى آخِـــرٍ فَـــصَـــيَّـــرَ آخِـــرَهُ أوَّلا

4) وَذو الجَــــهْلِ يَأمَنُ أيَّامَــــهُ وَيَنْسَى مَـصَـارِعَ مَنْ قَـدْ خَـلا

5) فَـإن دَهِمَـتْـهُ صُروفُ الزَّمـا نِ بِبَـعْضِ مَـصَـائِبِـهِ أعـوَلا

6) وَلَوْ قَـدَّمَ الحَـزْمَ في[472] نَفْـسِـهِ لَعَلَّمَــهُ الصَّــبـرَ عِنْدَ البَـلا

أمّا تواضعُه وأدبه، فكان يتواضع في نفسه لله، وفي ذات الله، لعباد الله، أهل النسبة إلى الله، وإلى البيت النبويّ، وكلّ ذي نسبة دينيّة، ومحبة إيمانيّة. أمّا في نفسه، فإنّه لا يرى لها قدرا، أو لا ينسب لها أمرا، ولا يرى في الأرض أحدا، ولو كان كافرا، أدنى منه منزلة، وأخفضَ منه عند الله مرتبة، لأن الخاتمة مُبهَمة. ويذكر في ذالك قول الشَّريسِي[473]:

[الطويل]

1) وَلَسْتَ تَرى في الأرْضِ دونَكَ مومِنًا وَلا كـافِراً حَتَّى تُغَيَّبَ في القَبْرِ[474]

2) فَـإنَّ خِـتـامَ الأمْـرِ عَنْكَ مُـغَـيَّبُ ومَنْ لَيْسَ ذا خُسْرٍ، يَخافُ مِنَ المَكْرِ

وقول أبي الحسن الشاذليّ: «وقد أبهمتَ الأمر علينا، لنرجُوَ أو نخاف».

وأما التواضُع في الله لعباد الله، فإنّه يخدُم بنفسه من والاه من الأصحاب وغيرهم في الحَضَر والسَّفَر. لا يُبالي بعناء نفسه في وُرودٍ ولا صدور. إذا ظهر أمر يحتاج الناس لمناولته، كان أوّل سابق إليه، ولا يترك أحدا يشتغل بتعظيمه، أو يُمَيِّزُه بشيء كتقبيل اليد أو نحوه، وكثيرا ما كان يحُضُّ عليه. ويذكُرُ أن من تواضع لله دون قدره، رفعه الله فوق قدره، ويُنشِد قول القائل:

---

[471]- الإيقاظ: 57: نفسه.

[472]- الإيقاظ: 57: من.

[473]- تاج الدّين، أبو العبّاس، أحمد بن محمد البكري الشّريسيّ السّلَويّ. عالم صوفيّ. (ت 640هـ) ترجمته في: التّكملة: 115/1. البُغية: 360/1-361. رقم 700. الإعلام: 143/2-144. رقم 170. الموسوعة: 128/3.

[474]- من رائيته المشهورة في التّصوُّف، أنوار السّرائر، وسرائر الأنوار.

[الطويل]

1) تَواضَعْ تَكُنْ كَالبَدْرِ لاحَ بِشَكْلِهِ — عَلى صَفَحاتِ الماءِ، وَهْوَ رَفيعُ

2) ولاتَكُ كَالدُّخانِ يَعْلو بِنَفْسِهِ — إلى دَرَجاتِ الجَوِّ، وَهْوَ وَضيعُ

نعم. كان يتكبَّر على أهل الكِبْر، ويهجُرُهم، ولا يرى لهم قدرا، ويذكر في ذلك قول أبي الحسن الشاذلِيِّ: «واهجُرهُم رحمةً بِهِم لا تَعَزُّزاً عليهِم».

وقد ورد أن التَّكَبُّر على المتكبرينَ تواضع. وما أحسنَ قولَ المَحَلِّيِّ[475]:

[البسيط]

1) لَمْ أَلْقَ مُسْتَكبِراً إلاَّ تَحَوَّلَ لي — عِندَ لِقائي لَهُ الكِبْرُ الَّذي فيهِ

2) ولا حَلا لي مِنَ الدُّنيا وزينَتِها — إلاَّ مُقابَلَتي لِلتِّيهِ بِالتِّيهِ[476]

وأما أدبه ظاهرا وباطنا في الشَّريعة المحمَّديَّة، ومع الله جلّ جلاله، فشيء بلغ فيه أقصى الغايات، وبرع فيه أهلَ البدايات والنهايات، حسبما عُلم ذالك من مقامه ومقاله، ويشهد له ما تقدَّم من خِلاله وفِعاله.

[استطراد عن الأدب عند الفقهاء وعند الصوفية]

والأدب عند الفقهاء، عبارة عن القيام بما بعد الواجبات، والسُّنَن من الفضائل والرَّغائب المتعلقة بأحوال الإنسان، من نوم ويقظة، وأكل وشرب، ودعاء ونحو ذالك.

وعند الصوفية، عبارة عن جمع خصال الخير، وأوصاف البرّ. فهو وصف جامع لأوصاف مَجيدة، وأخلاق حميدة، تُناسِب وصف العبودية، وحال الرُّبوبيَّة. من جَمَعَها فقد اتَّصف بالأدب، وكان أديبا متأدِّبا مع الله ورسوله.

والأدب بالمعنى الفقهي مندرج في هذا. فمن أدبه الظاهر، مواظبته على ما ورد في السُّنَّة من الآداب الشرعية المتعلقة بأحوال الإنسان، ومحافظته عليها بقدر الطّاقة والإمكان، في

---

[475]- محمد بن أحمد المَحَلِّيّ المصريّ. عالم فقيه كبير (ت 864 هـ). ترجمته في: الضَّوء اللاّمع: 7/39-40. الفكر السّاميّ: 2/351. الدرّة: 2/243-244. رقم 711. معجم المطبوعات: 319-320. رقم 711.

[476]- البيت في: تُحفَة الأكابر: 471. وقد نُسِب فيه إلى الشافعي.

قيامه وقُعوده، واضطجاعه ومشيه وجلوسه مع الناس، وقد تقدم كثير من ذلك أثناء هذا الباب.

ومن أدبه الباطن، الّذي دلّت عليه أقوالُه وأفعاله، أنه كان لا يختار مع اللّه ولا يريد مع تدبيره شيئا، ويذكر قول أبي الحَسَن[477]: «إن كان ولابُدَّ من التَّدبير، فدبِّروا ألاّ تُدبِّروا، لأنه إذا كان لا يقع إلا ما أراده اللّه، أحبَّ العبد أم كَرِه، لقوله تعالى: «وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ»[478]. فالتدبير مجرَّدُ تعب، وكَدٌّ بلا طائل.

ولله دَرُّ الوليّ الصّالح الكامل، سَيِّدي ياقوت العَرْشِي[479] في قوله:

[مجزوء الكامل]

1) ما ثَمَّ إلاّ ما أرادْ   اِطْرَحْ هُمومَكَ وَانْطَرِحْ

2) وَاتْرُكْ شَواغِلَكَ الّتي   شَغَلَتْكَ عَنْهُ تَسْتَرِحْ

وفي الحديث «أنَّ اللّهَ جَعَلَ الرَّوْحَ والرّاحَةَ في الرِّضى واليَقين». وفي حديث آخر: «ذاقَ طَعْمَ الإيمانِ مَنْ رَضِيَ باللّه ربًّا، وبالإِسلامِ دينًا، وبِمُحَمَّدٍ (ص) رَسولاً».

والرِّضى برُبوبيَّتِهِ، تعالى، يقتضي الاِستسلام لأحكامه، وتركَ التدبير معه. وممّا يحملُك على تركه، علمُك بسابق تدبيره، وكونِه لك قبل أن تكون لنفسك. ولذلك قال الحلاّج[480]:

[مجزوء البسيط]

1) كُنْ لي كما كنتَ لي إذْ لَمْ أكُن   شيئًا في[481] حين لم أكُنِ[482]

[477]- المقصود أبو الحسن الشاذلي.

[478]- سورة القَصَص: 68.

[479]- ياقوت بن عبد الله الحَبَشيّ الشاذلي. (ت 732هـ). صوفيّ مصريّ. ترجمته في: الدُّرَر الكامنَة: 4/ 408. رقم 1127. الطبقات الكبرى: 20/2. رقم 311. والبيتان في: حاشية المؤلف: 176/2. الإيقاظ: 18.

[480]- أبو مُغيث، الحُسَين بن منصور. الشاعر الصوفيّ. (ت 304هـ) ترجمته في: الوفيات: 140/2-157. رقم 189. الطّبقات الكبرى: 107/1-109. رقم 209. مقدّمَة ديوانه.

[481]- سقط من الأصل. والتعويض من شرح ديوانه: 392.

[482]- شرح ديوانه: 392. (ويليه بيت آخر. وقد يُنسبان إلى سُمنون المـُحِبّ). وحاشية المؤلف: 177/2. برواية أخرى. ويُلاحظ أن الشّطر الثاني ساقط الوزن.

وإليه أشار الشيخ أبو الفيض بقوله[483]:

[البسيط]

1) كُنْ لي كَما كُنْتَ لي إذْ لَمْ أَكُنْ شَيًّا ... يا مَنْ بِهِ، لَيْسَ إلاَّ، قامَتِ الأشيا

2) يا رَبِّ يا حَيُّ يا قَيُّومُ يا أحَدُ ... بذِكْرِه طابَتِ المَماتُ والمَحْيا[484]

3) غَيِّبْ بِفَضْلِكَ كُلَّ الخَلْقِ عَنْ نَظَري ... حَتَّى أراكَ ولا أراهُمْ شَيًّا

4) واجْعَلْ حِجابَك، روحَ الخَلْقِ، سِرَّهُمُ ... حَياةَ روحي، وَسِراً لي بِهِ أحْيا[485]

5) بِسِرِّ أحْمَدَ ثُمَّ سِرِّ فاطِمَةٍ ... وَسِرِّ رَيْحانَتَيْهِ النّاشِرِ الطَّيّا[486]

6) كُنْ لي كَما كُنْتَ لي إذْ لَمْ أَكُن شَيًّا[487] ... يا مَنْ بِهِ طابَ لي[488] المَماتُ والمَحْيا

7) رَضيتُ بِاللَّهِ رَبّاً لَيْسَ لي مَعَهُ ... أمْرٌ وَما أنا إلاَّ مَيْتَةُ[489] الأحْيا

8) يا رَبِّ هَيِّئْ لَنا مِنْ أمْرِنا رَشَداً ... وكُنْ لَنا حَيْثُ كُنَّا، واكْسُنا هَدْيا

9) وَغَيِّبِ الفِكْرَ عَنْ فِكْري وَعَنْ نَظَري ... حَتَّى أراكَ، وكُلٌّ انْطَوى طَيّا

ومن حسن تدبيره السابق، ما أشار إليه ابن جابر الغَسَّانِي[490] في قوله:

---

[483]- القصيدة في: حاشية المؤلف: 2/177. ديوان حمدون: 346.

[484]- حاشية المؤلف: 2/177: طاب لي الممات.

[485]- في الأصل: إلى به أحيا. والتصويب من حاشية المؤلف: 2/177.

[486]- في الأصل: الضيا. والتصويب من حاشية المؤلف: 2/177. وبعده في ديوان حمدون: 346: «وقال رضي الله عنه»، للدلالة على أن النص اللاحق مستقل.

[487]- في الأصل: أك. والتصويب من حاشية المؤلف: 2/177.

[488]- في الأصل: يا من طابت به. والتصويب من حاشية المؤلف: 2/177. وفي ديوان حمدون: 346: يا من به طابت».

[489]- حاشية المؤلف: 2/177. ديوانه: 346: ميت.

[490]- أبو عبد الله محمد بن جابر الغَسَّانِيّ المكناسي. عالم أديب (ت 827هـ) ترجمته في: الروض الهتون: 56-57. الدرة: 2/278-279. رقم 790. النيل: 286-287.

[قصيدة ابن جابر الغساني في الموعظة والحكمة]

[مجزوء الخفيف]

1) قُـلْ لِـلْـحَـــــــرِيصِ تَـفَـكَّـرْ	إذْ كُـنْـتَ فـي بَـطْـنِ أُمِّـكْ[491]
2) أَكُـنْـتَ أَعْـــــدَدْتَ رِزْقًـــا	يُـقـيـمُ نَـشْـأَةَ جِـسْـمِـكْ؟!
3) وَعِـنْـدَ خَـلْـقِـكَ لَـمَّـــا	أَصْـبَـحْـتَ أَضْـعَـفَ قَـوْمِـكْ
4) هَـلْ قُـمْـتَ تُـنْـشِـئُ ثَـدْيًـا	يُـدِرُّ رِزْقًـا بِـرَسْـمِـكْ
5) حَـتَّـى فُـطِـمْـتَ فَـأَضْـحـى	أبـوكَ يَـسْـعـى لِـطُـعْـمِـكْ
6) والأُمُّ تَـجْـهَـدُ مَـعْـهُ فـيـ	ـهِ إلـى وَقْـتِ حُـلْـمِـكْ
7) فَـحِـيـنَ صِـرْتَ قَـوِيًّـا	أخـا احْـتِـيـالٍ بِـزَعْـمِـكْ
8) خِـفْـتَ الـضَّـيَـاعَ، فَـأَضْـحَـتْ	دُنْـيَـاكَ أَكْـبَـرَ هَـمِّـكْ
9) هذا، لَـعَـمْـرِي، سَـفَـاهٌ	قَـضَـى بِـهِ سُـوءُ فَـهْـمِـكْ

وقال بعضهم[492]:

[الطويل]

1) تَذَكَّرْ جَميلي فيكَ، إذ كُنْتَ نُطْفَةً	وَلا تَنْسَ تَصْويري لِشَخْصِكَ في الحَشا
2) وَسَلِّمْ لِيَ[493] التَّدْبيرَ واعْلَمْ بِأَنَّني	أُصَرِّفُ أحكامي، وأفعلُ ما أشا
3) وكُن واثِقًا بي في أُمورِكَ كُلِّها	سَأَكْفيكَ مِنْها ما يُخافُ ويُخْتَشَى

[عودة إلى أخلاقه]

ومن أدبه أنه كان غيرَ مهتمٍّ بالرِّزق، مع الانقطاع عن أسبابه في آخر عمره جملة، وعدم الاكتراث بتغيُّر الأحوال والأسعار.

وكثيرا ما كان يحُضُّ على ترك الاجتهاد والحرص فيه، ويذكر أن الاجتهاد في ذالك، مع

[491]- القصيدة في حاشية المؤلف: 177/2.

[492]- الأبيات في حاشية المؤلف: 177/2-178. ولها تخميس في: الأنيس: 43. (مع تبديل في الرواية) الإيقاظ: 139.

[493]- الإيقاظ: 139: إلي. ولا يستقيم به الوزن.

التّقصير في الحقوق الشرعيّة، دليل على انطماس البصيرة، لأنّ الرزق إذا كان موكولا إلى القسمة الأزلية، فهو لا يزيد ولا ينقص، ولا يُنال بحيلة. فما كُتب منه لكلّ أحد، لابد وأن يصل إليه، بين صغير وكبير، وشريف وحقير، وقويّ وضعيف، حتّى قيل[494]:

[البسيط]

1) لَوْ كانَ عَنْ قُوَّةٍ[495] أو عَنْ مُغالَبَةٍ   طارَ الْبُزاةُ بِأرزاقِ الْعَصافيرِ

وللإمام الشافعِيّ، رضي اللّه عنه[496]:

[الكامل]

1) لَوْ كانَ بالحِيَلِ الْغِنى، لَرَأَيْتَني[497]   بِنُجومِ أقطارِ السَّماءِ[498] تَعَلُّقي[499]

2) لكِنَّ منْ رُزِقَ الحِجا، حُرِمَ الغِنى   ضِدَّانِ مُفْتَرِقانِ أيَّ تَفَرُّقِ

3) ومِنَ الدّليلِ على القَضاءِ وكَوْنِهِ   بُؤْسَ اللّبيبِ وطيبَ عَيْشِ الأحْمَقِ

ولبعضهم[500]:

[البسيط]

1) يا طالِبَ الزِّيْدِ، وَالأرزاقُ قَدْ قُسِّمَتْ   بَيْنَ الْخَلائِقِ، لَمْ تَنْقُصْ، ولَمْ تَزِدِ

2) أتْعَبْتَ نَفْسَكَ، فيما لَسْتَ مُدْرِكَهُ   وَضاعَ عُمْرُكَ في هَمٍّ وفي نَكَدِ

3) لَوْ طِرْتَ بَيْنَ السَّما[501] والأرضِ مُجْتَهِداً   في شُرْبَةِ الْماءِ، فَوْقَ الرِّزْقِ لَمْ تَزِدِ

4) هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنَّ الرِّزْقَ عَنْ قَدَرٍ   يَأتي، ولَوْ أنَّهُ في جَبْهَةِ الأسَدِ

---

[494]- البيت من قطعة في: تحفة الإخوان: 68. (عن كتاب الوعظ لابن فرحون).

[495]- في الأصل: قلق. والتصويب من تحفة الإخوان: 68.

[496]- ديوانه: 104. من قصيدة زهدية.

[497]- ديوانه: 104. لوجدتني.

[498]- ديوانه: 104. بأجلّ أسباب السماء.

[499]- في الأصل: أتعلق. والتصويب من ديوانه: 104.

[500]- القطعة في: حاشية المؤلف: 2/152-153.

[501]- في الاصل: السماء. والتصويب من حاشية المؤلف.

[استطراد في قضية قسمة الأرزاق]

ومما يوضّح لك أمر القِسمة الإلاهية، حرمان كثير من الأقوياء الأذكياء، وسمحُه وإفاضتُه على كثير من الضعفاء والأغبياء، لِتَعْلَم أن «ذالك تَقْديرُ العَزيزِ العَليمِ[502]»، وتدبير الملك الرّحيم. وفي ذالك قيل[503]:

[البسيط]

1) كَمْ مِنْ قَـوِيٍ قَـوِيٍّ في تَقَلُّبِـهِ مُهذَّبِ الرَّأي، عَنْهُ[504] الرِّزْقُ يَنْحَرِفُ

2) وكَمْ ضَعِيفٍ ضَعِيفٍ في تَقَلُّبِـهِ كَـأنَّهُ مِنْ خَلِيجِ البَحْرِ يَغْتَرِفُ

3) هـذا دَلِـيلٌ عَـلى أنَّ الإلاهَ لَـهُ في الخَلْقِ سِرٌّ خَفِيٌّ لَيْسَ يَنْكَشِفُ

وتقدم قول الشّافعِيّ: «ومن الدّليل» إلخ. وقال بعضهم:

[السريع]

1) كَمْ مِن عَلِيمٍ فَـهِمٍ بالُـهُ مُـسْتَكْمِلِ الْعَـقْلِ، مُـقِلٌّ عَـديمْ

2) وَمِنْ جَـهُـولٍ مُكْثَـرٍ مـالُـهُ «ذالِكَ تَقْـديرُ الْعَـزيزِ العَليمْ»[505]

أوحى الله إلى موسى، عليه السّلام: أتدري لماذا رزقتُ الأحمق ؟ قال: لا. يارب. قال: ليعلم العاقل أن طلب الرّزق ليس بالاحتيال.

فإن قلت: الاهتمام بالرزق مما عمّت به البلوى، وشمل دؤاه العُضال أكثر الخلق، فقلّما شكوتَ لأحد بذالك، إلاّ شكا لكَ بمثله، كما قيل[506]:

[الرمل]

1) كُلَّمـا رُمْتُ لأشْكو عِلَّتي لَمْ أجِدْ لي غَيْرَ[ذي] قَلْبٍ قَريحْ[507]؟

[502]- سورة ياسين: 38.

[503]- الأبيات في: ديوان الشافعي:98. منهاج العابدين: 134. تُحفة الإخوان:68. (مع خلاف في الرواية).

[504]- في الأصل عند. والتصويب من ديوان الشافعي:98.

[505]- سورة ياسين:38.

[506]- البيتان في : الرسائل الكبرى:155.

[507]- ما بين معقوفتين زيادة ليستقيم الوزن. وفي الرسائل الكبرى: 155. « لا أرى غير ذوي قلب قريح» و«لم أجد غير ذي قلب جريح».

2) كُلُّهُمْ يَشْكو الَّذي أشْكو بِهِ		يا لَقَومي، ما عَلَيْها مُسْتَريحْ؟

فهل له من دواء يُستَعان بهٖ على دفعه؟ قلت: دواؤه، بتوفيق من الله، استحضارُ وقوع القسمة الإلاهية، والفراغِ منها، كما قيل:

[مجزوء الرمل]

1) قُلتُ قَولاً باخْتِصارِ		وَهْوَ صِدْقٌ لا مَحالَةْ

2) مَنْ لَهُ في الغَيْبِ شَيْءٌ		لَمْ يَمُتْ حَتّى يَنالَهْ

فإن من استحضر ذالك لم يهتمّ.

قيل لراهب: من أين تأكل؟ فأشار إلى فيهِ وقال: الّذي خلق الرّحى، يأتيها بالطَّحين.

وسأل رجل سَهْل بن عبد الله[508] عن القوت فقال: هو الحيُّ الذي لا يموت. فقال: إنما سألتك عن الغذاء. قال: الغِذاء هو الذِّكر. قال : إنما سألتك عن طُعمَة الجسد. فقال: مالك وللجسد؟ دع من تولاه أولاً، يتولاّه آخراً.

«وروي[509] أن قوما من العرب زرعوا زرعًا، فلما بلغ، أصابته آفة، فاشتدّ ذالك عليهم، فخرجت أعرابيّة منهم فقالت: مالي أراكم مُتَغَيِّرَةً ألوانُكم، مَيِّتَةً قلوبُكم؟ هو ربُّنا، فليفعلْ بنا مايشاء، ويرزُقْنا حيث شاء. ثم قالت[510]:

[البسيط]

1) لَوْ أنَّ في صَخْرةٍ، في البَحْرِ راسبَةٍ[511]		صَمًّا مُلَمْلَمَةٍ مَلْسًا نَواحيها

2) رِزْقًا لِعَبْدٍ بَراهُ اللهُ لانْفَلَقَتْ		حَتّى تُؤَدّي إليهِ كُلَّ ما فيها

3) أوْ كان فَوْقَ طِباقِ السَّبْعِ مَسْلَكُها		لَسَهَّلَ اللهُ في المَرْقى مَراقيها

4) حَتّى يَنالَ الّذي في اللَّوْحِ خُطَّ لَهُ		فإنْ أتَتْهُ، وإلاّ، سَوْفَ يَأتيها

[508]- سهل بن عبد الله التُّستُريّ. صوفيّ مشهور. (ت283هـ)ترجمته في: الوفيات: 2/429-430. رقم281. الطبقات الكبرى: 1/77-79. رقم149. الرِّسالة:14-15.

[509]- الحكاية في تُحفَة الإخوان:68-69.

[510]- الأبيات في:حاشية المؤلف:2/153. تُحفَة الإخوان:68-69.

[511]- في الأصل: راسية. والتَّصويب من حاشية المؤلف:2/153.

وقال رجل لأعرابيّ في فلاة: من أين معيشتُك؟ فقال: لو كنّا لا نعيش إلا من حيث نعلم، لطال جوعنا ».

فهذا كله من استحضار القسمة الأزلية، والوثوق بالضّمان. وفي التنزيل: «نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعيشَتَهُمْ»[512]. الآية. قدّم المُسنَد إليه على الفعل، ليتكرّر الإسناد، ويتقوّى ويفيدَ قَصرَ القَلْب والإفراد. أي نحن وحدنا، لاغيرنا وحده، أو معنا. وفيه أنَّ القسمة في غاية الإحكام، وإصابة الصواب، وأنه لا محلّ للحسن، إذ ليس إلا تخطئة لمن هو عين الحكمة والصواب، وإساءة الأدب على ربّ الأرباب. ولقد أحسن من قال[513]:

[المتقارب]

1) ألا قُلْ لِمَنْ باتَ لي حاسِداً	أتَدْري عَلى مَنْ أسَأْتَ الأدَبْ؟
2) أسَأْتَ على اللّهِ في حُكْمِهِ	لأنّكَ لَمْ تَرْضَ لي ما وَهَبْ
3) فَجازاكَ عَنّي بِأنْ زادَني	وَسَدَّ عَلَيْكَ وُجوهَ الطَّلَبْ

وأنه إذا كان هو القاسم، لم يكن إلا ما أراد، فمن رضي، فله الرِّضى، ومن سخِط، فله السُّخط.

وفي الآية بيان حكمة التَّفاوت في الرِّزق، وأنها تَعاوُنهم وتَوافُقهم، واستسخار بعضِهم بعضًا، فيستعمل الأغنياء الفقراء في الأعمال الشاقّة بالأجرة، والفقراء الأغنياء في متاعب الأسفار، وجلب السِّلع التي يحتاج إليها الفقراء من بعيد الأقطار.

[عودة أخرى إلى أخلاقه]

ومن أدبه، أنه لا يُريد الخوض في شيء من تصاريف أقدار الحق، سبحانه، ولا التَّعرُّض للكلام فيما وقع، ولا تمنّيَ زوال ما هو واقع منها. ويَعُدُّ الخوض في ذالك كلّه، اعتراضًا على الحق،[و][514] سوءَ أدب معه. وينسب القصور للنّفس، ويرى النقص منها فيما يُبتلى به العبد من القضاء، بعد الاعتراف أنّه من اللّه، تخلُّقا بأخلاق الشريعة المحمدية، وتحقُّقًا بأن الكمال لا

---

[512]- سورة الزُّخرُف:32.

[513]- الأبيات في: حاشية المؤلف:156/2. تُحفة الإخوان: 238.

[514]- زيادة ليستقيم التركيب.

يُنسب إلاّ إليه.

وأمّا كرمه وسخاؤه، فعظيم. ليس على سَنَن ما يُؤلَف. جعله الله له وصفًا طبيعيًا، ثم صرَّفه فيه تصريفًا شرعيًا، فكانت وقائعه في ذالك عظيمة، وأياديه فيه جسيمة. يُعطي عطاءَ من لايخاف الإفقار، ولايبالي بإفراط ولا بإكثار:

[البسيط]

1) لا يَألَفُ الدِّرْهَمُ المَضروبُ صُرَّتَهُ[515] لَكِنْ يَمُـرُّ عَلَيْـهـا، وَهْوَ مُنْطَلِقُ

وكيف يُبالي من تخلّى قلبُه عن العرض الفان، ورَقِيَ مقام الإحسان والعرفان؟ إذ من عين الوجود يُنفق، وبوابِل فضله يَدْفَق. ومن عادته في ذالك، المبالغة في الإخفاء جِدّاً، حَتّى لا يشعُر في الغالب المعطَى (بالفتح)، فضلاً عن غيره، بمن وصل له منه ذالك، طلبًا للوجه الأكمل، الذي فضّل اللّه في كتابه بقوله: «فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ»[516]، وحرصاً على رفع هِمَّة الْمُعْطى له، ليشكر نعمة مولاه، ولايتشوَّف للّذي جرت المِنحَة على يده. وقد قال في بعض خطبه:

[من كلام له]

«إنَّ أهمَّ وأفضل ما له العبد تَدَرَّع، أن يتثبَّت فيما يدَّخره، ليوم يحصد فيه الزَّارع ما زرع، فيخلِّصَه من الرِّياء والسمعة ابتداء، ومن المَنِّ والأذى انتهاء، ولِيلاَّ يُضيعَ ماله في لا شيء، ولا يكون له ظِلّ ولا فيء، بل يُنقَل من أنفس الدَّرجات، إلى أخسِّ الدَّركات، وأن يجتهد في أن يُنفِق من حلال، فبقدر حِلِّه يزكو عند ذي الجلال، وأن يُؤثر بالأحب الأجْود على نفسه، لينجح ثَمَّ غرسُه».

وكثيرا ما كان يَحُض على الجود ويقول: «إن من أراد أن يتيسَّرَ له، بإذن الله ما تَعَسَّر، وينفعل له الوُجود، وتنهلّ عليه سحائب الخيرات، دنيا وأخرى وتجود، فليتخلَّ عن رذيلة الشُّحِّ، ويتحلَّ بفضيلة الجود، ويتعوَّدْ بَسْط اليدين، وبذل الموجود».

ويقول، كما قال أبو العَبّاس المُرسِيّ: «أصل الخير في الدنيا والآخرة الإحسان، وأصل

[515]- البيت في: نزهة الأنظار: 342/2. جواهر المعاني: 32/1.

[516]- سورة البقرة: 271.

الشر في الدنيا والآخرة البخل».

ويقول: «الإحسان هو قطب رحى التَّوحيد، وشمس ضُحى العبادات، وسعد سُعود التَّجريد، وقمر كواكب المجاهدات، الهادية إلى حضرات الأنس والشهود. لم لا؟! وهو خُلُق الله، وخُلُق أكرم رسول للّه[517]، وخُلُق صحابته الَّذين بذلوا في اتِّباعه المجهود».

هذا، ومن جملة جزئيات قضاياه، وبعض ما شوهد من وافر إحسانه وعطاياه، أن عمد إلى جنان له كبير بالمَرْج، فباعه غَيْرَ محتاج إلى بيعه، بألفَيْ مثقال (بالتَّثنية)، وأنفقه كُلَّه أو جُلَّه في سبيل اللّه، وخصوصا أهل البيت، إذ كانت عادة بعض القبائل منهم قبل هذه السِّنين، لا يلبسون إلا الحُيَّك[518] المنسوجة بالحرير، فاشترى بذلك حُيَّك[519] كثيرة من المُحَرَّبَل[520] والقطن، [وأرسل بها][521] إلى كلّ واحد منهم إلى موضعه، ويُذَكِّرُه بآيات وأحاديث، وأقاويل العلماء، ويدفع له حائكا من ذالك، ومن الدَّراهم ما يُناسبه، ويأخذ عليه العهد أن لا يعود إلى لبس الحرير أبدا، لا هو ولا من تلزمه نفقته، فلم يَعُدْ واحد منهم إلى لَبْسِه أبدا، فضلا من الله ورحمة.

وأمّا فُتُوَّتُه، فقد تقدَّم ما يُنبِئ عن شيء منها، عند التَّعَرُّض للكلام عن بعض أخلاقه، والمروءةُ شُعبة منها. والفُتُوَّةُ من الأخلاق الجامعة لأنواع الأصناف الحميدة، كالحِلْم والعَفْو، والسَّخاء والوفاء، والسَّتر على عُيوب الناس، وإعانتهم ومعاملتهم بجميل الإحسان. ومرجعها إلى الإيثار، والسَّخاء الأعظم، أي السَّخاء بالنفوس. وأصلها كما قال القُشَيْرِيّ[522]: «أن يكون ساعيا في أمر غيره دائما»[523].

---

[517]– باء: رسول الله.

[518]– جمع حائك. وهو ضرب من الجلاليب المغربية القديمة.

[519]– كذا بالأصل وغيره. ويلاحظ بعض الاضطراب في هذه الفقرة.

[520]– ضرب من الثِّياب.

[521]– بياض في الأصل، قدره كلمتان أو كلمة، ملأناه بما ناسب.

[522]– أبو القاسم، عبد الكريم بن هَوازِن، صوفيّ مشهور. (ت 465هـ) ترجمته في: الوفيات: 3/205-208. رقم 394. طبقات المفَسِّرين: 61-63. رقم 64. طبقات الداودي: 1/344-352. رقم 302.

[523]– الرِّسالة: 102.

وقد بيّنها أهل الطريق بتفسيرات أوردها في «الرِّسالة»[524] وعبّروا عنها بعبارات، كُلٌّ بِحَسَب ما غلب عليه، وبِحَسَب نوع من أنواعها، ففسّروها بِكفٍّ الأذى، وبذل النَّدى. وهي عبارة الجُنَيد[525].

وبالصَّفح عن عثرات الإخوان، بأن تُنْصِف ولا تَنتَصِف، وبأن إذا أُعطيْتَ آثَرْت، وإذا مُنِعْتَ شَكَرْت. وبأن لا ترى نفسك فيها، وبِحُسْنِ الخُلُق، وباتِّباع السُّنَّة.

وأكثر ما يُستَعمل عندهم في المساواة، والعِفَّة عند الإساءات. قال سَيِّدي أبو مدين، رضي اللّه عنه، في قصيدته الرَّائِيَّة[526]:

[البسيط]

1) وبالتَّـفَـتّي على الإخـوان جُـدْ أبداً ... حِسّاً ومَعْنى، وغُضّ الطَّرْفَ، إن عثرا

وللشيخ أبي الفيض من هذه الأوصاف أعظم نصيب، والسَّهم الذي ما عثر عليه في وقته مُصيب.

وأما سخاؤه بنفسه، الذي هو أعظمها، فإنه إذا كان وقتُ خوف من لصوص وغيره، رأيته يتقدَّم بنفسه، ويدفع بها عن غيره، إيثارا له بنفسه.

ويندرج فيه ما عُلِمَ من شِدَّة إقدامه على مولانا السُّلطان، في الصَّدَع بالأمر بالمعروف، والنَّهي عن المُنْكر، فيما يرتكبه الولاة من الجَوْر على الرَّعايا. ولُبِّس عليه، كما تقدَّم، حَتَّى لَقِيَ منه في ذالك مكاره، عَتْبا مرة، وهِجرانا أُخرى.

وقد أمَرَ يوما بسَلٍّ لسانه، فنجّاه اللّه منه. وقال له مرَّة: أتعرف الحالة التي قُتِلَ عليها ابنُ زَمْرَك؟ ولم يكن يرده ذالك في الغالب عن مخاطبته بما ذُكِر، لصدق نِيَّته، وحُسْن طَوِيَّتِه. وربَّما تقاعس. وأنشد يوما لنفسه[527]:

---

[524]- الرِّسالة: 103-105.

[525]- الرِّسالة: 104.

[526]- القصيدة في: تُحفة الإخوان: 56. رماح حزب الرحيم: 1/25-26.

[527]- البيتان في: النوافع: 438.

[المجتث]

1) دعِ الأمـــيـــرَ وســـوقَـــهْ فَـــإنَّـمَـــا نَحْنُ ســـوقَـــةْ
2) يَـلْـقَ جَـــــزاءَ هُـداهُ أو جَـــوْرَهُ وفُـــسُـــوقَـــهْ

وأما حِلْمه وعفوه، فشأنُه الصفح عمَّن اشتغل بإذايته، وعدم المؤاخذة له، والنَّظرُ فيه بعين الحقيقة، والتماس المعذرة له، لأن من نظر إلى ما يجري على الناس من الأقدار، عَذَرَهُم، وإنما يجيء الملام من عدم شهود أمر الله النافذ فيهم[528]. وكان يُنشِد قول ابن عطاء الله[529]:

[الكامل]

1) لا تَشْـتَـغِلْ بِالعَـتْبِ يَوْمًـا لِلْورى فَـيَـضِـيعَ وَقْـتُكَ، والزَّمـانُ قَـصِـيرُ
2) وَعَـلامَ تَعْـتِـبُـهُـمْ، وأنتَ مُـصَـدِّقٌ أنَّ الأمُـــورَ جَـرى بِهـــا المقْـدُورُ؟
3) هُمْ لَمْ يُوَفُّـوا لِلإلاهِ[530] بِحَـــقِّـــهِ أتُريدُ تَوْفِـيَـةً، وأنتَ حَـقِـيـرُ؟
4) فَاشْهَدْ[531] حُقُوقَـهُمُ عَلَيْكَ وقُمْ بِها واسْـتَـوْفِ مِنْكَ لَهُمْ، وأنتَ صَـبـورُ
5) وإذا فَعَلْتَ، فأنْتَ أنْتَ بِعَيْنِ مَنْ[532] هُوَ بِالخَـفـايا عـالِمٌ وبَصِـيـرُ[533]

ومع ذالك، كـان يَمُـرُّ على المُسيء إليـه[534]، ويُشـفق من حـالهم، ويُعـاملهم ويُهـاديهم، ويُلاطفهم قولا وفعلا، حتَّى يستحي ذالك المُسيء ويخجل، وخصوصا من كانت له قرابة.

أخبرني الشَّريف العالم الأديب، أبو العباس، أحمد بن إدريسَ العلميُّ العبدُ السَّلامِيّ، أحد تلامذة الشيخ، أنه كان هجا [الشيخ][535] بأبيات. ولما وصلت إليه، قال له بطلاقة وجه وبشاشة: عندك على وجه نسامحك. أعني قرابته بمولانا رسول الله، صلى الله عليه وسلّم.

[528]- ما بعده ساقط في باء.
[529]- الأبيات في: التَّنوير: 44.
[530]- في الأصل: الإلاه. والتَّصويب من: التَّنوير: 44.
[531]- في الأصل: واشهد. والتَّصويب من: التَّنوير: 44.
[532]- التنوير: 44: «وإذا غفلت فاشهد بعين من» ولايستقيم به الوزن.
[533]- التنوير: 44: خبير.
[534]- انتهى ما سقط من باء.
[535]- بياض في الأصل، وزيادة من باء.

وهذا[536] في صُغرى أمة من إمائه تقول: «شتَّتَ الله شملك بالماء والشَّطَّابَة إلى قاع البحر». ولم يُغَيِّرها بشيء. وبالجملة حاله في ذالك كما قيل[537]:

[الطويل]

1) صَفوحٌ عنِ الزلَّات[538] حَتَّى كَأنَّهُ ... منَ العَفْوِ لَمْ يَعْرِفْ منَ النَّاسِ مُجرما

2) ولَيْسَ يُبالي أن يَكونَ بِهِ الأذى ... إذا الأذى لَمْ يَغْشَ في النَّاسِ مُسلما

وأما وفاؤه فعجيب. إذا استسلف شيئا قضاه بسرعة، ومنه الوفاء بمعاملة الإخوان، وحِفْظُ عهودهم في كلّ أوان. ما جاءه أحد يلتمس قضاء حاجته منه، أو من غيره بواسطة، إلاّ قضاها له لا محالة، وسعى في تحصيلها ما أمكن. وكثيرا ما كان ينشد في ذالك لنفسه في الحضّ على الوفاء بالعهد[539]:

[البسيط]

1) كُنْ مِثْلَ صورَةِ بدْرٍ وافيًا أبداً ... بِوَعدِهِ مُبْهِجاً لَنا بِإسعادِ

2) لا مِثْلَ صورَةِ بَدْرٍ في تَفَرُّدِها ... بِحَذْفِ ميعادها لِسرِّها البادي[540]

3) إذْ كان ميعادَ خَلْفٍ، لا ثَباتَ لَهُ ... لا خالفُ غَيْرَ حاذقٍ لِميعادِ

ومما يندرج في هذا الوفاء أيضا، توفيتُه في معاملة مولاه، وعبادته له، وقيامُه لِلّه في سائر حركاته، ولا يرجع عن شيء لِلّه عزم عليه. وأعظِمْ بذالك وفاءً ومنَّة من الله وعطاء!

وأما إيثارُه للغير على نفسه، فممّا لاحتْ للعيان دلائله، وأوضحت مآثره وفعائله. وكم له فيه من مآثر غريبة، ومنقبة عجيبة! أُعطِيَت له بدرب جَنْيارة من فاس، دارٌ مُناصفةً بينه وبين العلاّمة المحقِّق البليغ، أبي عبد الله، محمَّد بن عمرو الزَّروالي، المُتَوَفَّى عن غير عَقِب، في صبيحة يوم الأحد، ثاني عشر ذي القِعْدَة، عام ثلاثين ومئتين وألف (1230-1815)، فآثره

[536]- هنا ينتهي تماما نص المخطوطين ميم وباء، وبعده وارد في خاء، ثم في روضة النَّيْلوفَر.

[537]- البيتان في: شرح جسوس: 204.

[538]- شرح جسوس: 204. الاجرام.

[539]- الأبيات في ديوانه: 96.

[540]- خاء: بياض سطرين.

على نفسه في حَظِّه، وسلَّم له فيه لِلّه.

وأما رفع هِمَّته، أي الحالة العارضة للقلب، وهي قوة إرادة، وغلبة انبعاث إلى نيل مقصودها، وتكون عالية، إن تعلَّقت بمعالي الأمور، وسافلة، إن تعلقت بأدناها. قال الشّاعر[541]:

[المتقارب]

1) وقائلةٍ: لِمْ عَلَتْكَ الهمومُ	وأمْرُكَ مُمْتَثلٌ في الأمم
2) فقُلْتُ: ذريني على حالتي	فإن الهمومَ بقدر الهِمَمْ

فإنه لا تعلُّقَ له بغير الله، ولا تعريج له على ما سواه. مَصونُ السِّرِّ عن الالتفات إلى الأغيار، أو عدم تأميلهم في نفع أو إضرار، اكتفاء بالمولى، وتحفُّظا باسمه الأعلى. وكثيرا ما كان يُنشِد قولَ ابن عطاء الله[542]:

[الكامل]

1) اَللهُ يَعْلَمُ أنّي ذو هِمَّةٍ	تَأبَى الدَّنايا عِفَّةً وتَظَرُّفا
2) لِمَ لا أصونُ عَنِ الورَى ديباجَتي	وَأُريهِمُ[543] عِزَّ المُلوكِ وأشْرَفا ؟!
3) أأُريهِمُ أنّي الفَقيرُ إليهِمُ	وَجَميعُهُمْ لا يَسْتَطيعُ تَصَرُّفا ؟!
4) أم كَيفَ أسألُ رِزْقَهُ مِنْ خَلْقِهِ[544]	هذا لَعَمْري، إنْ فعَلْتُ، هُوَ الجَفا
5) شَكوى الضَّعيفِ إلى الضَّعيف مِثْلِهِ[545]	عَجْزٌ أقامَ بِحامِليهِ عَلى شَفا
6) فَاسْتَرْزِقِ اللهَ الَّذي إحسانُهُ	عَمَّ البَرِيَّةَ مِنَّةً وتَلَطُّفَا[546]

[541]- البيتان في: السّلوة: 139/3.

[542]- الأبيات في: التّنوير (من قصيدة): 54-55. لطائف المِنن: 76. تحفة الإخوان: 43. شرح جَسّوس: 286.

[543]- خاء: فأريهم.

[544]- تحفة الإخوان: 43: من غيره.

[545]- خاء: ضعيف إلى ضعيف مثله. وفضلنا رواية التّنوير: 55.

[546]- خاء: تعطفا.

7) والجأ إِلَيْهِ تَجِدْهُ[547] فيما ترْتَجي لا تَعْدُ عَنْ أبوابِهِ مُتَحَرِّفا

وقولَ الآخر:

[الخفيف]

1) مُذْ عَرَفْتُ الإلاهَ لَمْ أرَ غَيْرَهُ[548] وكَذا الغَيْرُ عِنْدَنا مَمْنوعُ

2) مُذ تَجَمَّعْتُ ما خَشيتُ افْتِراقًا فَأنا اليَوْمَ واصِلٌ مَجْموعُ

وأمّا ورعُه، فرجل لا ينطق إلا بالله، ولا يدُلُّ إلاّ عليه، ولا يُعَرِّجُ على مخلوق سواه، مع شِدّة الاحتياط في سائر مُعاملاته ومُناولاته، وسائر تصرُّفاته، فيما يتعلّقُ به وبأولاده، ومن له ارتباط به، بالغا في ذالك الغاية، واصلا فيه النِّهاية.

وأما زهدُه، فقد أحرز قصبات السَّبق في مراتبه الثلاث: ترك المنهِيّات، الّذي هو زُهد العوامّ، وتركُ فُضول الحَلال، الّذي هو زهد الخَواصّ، وتركُ ما يشغل القلب عن الله، الذي هو زُهد العارفين.

والنَّوع الأوّل منه مندرج في السِّيرة. والمقصود هنا الزُّهد الخاصّ الّذي هو باقي النَّوعين، وهو أمر باطنيّ، ووصف قلبيّ. لكن تظهر في الأفعال نتائجه وثَمَراته، وتلوح على الظاهر أماراته. وهو على قسمين: ما يتعلق بالأمور الظّاهرة. فمنه الزُّهد في المال والجاه، والرِّياسة والظُّهور، وثناء الخلق ومَحْمَدَتِهِم، ومُوالاتهم ومَوَدَّتهم. ويندرج في هذا القسم المرتبة الثّانِيَة كلُّها، وبعض الأخيرة. وباقيها يندرج في القِسم الثاني، وهو ما يتعلق بالباطن، إذ هو زهد العارفين خاصة.

أما زهدُه في المال، فيُعْلَم بتفرقته إيّاه على الدوام والاِستمرار، كما تقدَّم. وكثيرا ما كان يتولّى عَدَّه وإنفاقه غيرُه، ممن يباشر عملا من أعماله.

وأما الزُّهد في الجاه والظُّهور، فاعلم أنه بعد أن كان في أول أمره، غُرَّة في جبين المُلك، ودُرَّةً لا تصلح إلا لذلك السِّلك، وباهت به الأيام، وتاهت في يمينه الأقلام، واشتملت

547– خاء: تجد له. ولا يستقيم به الوزن.

548– البيتان في: الإيقاظ: 136. رسائل الدَّرقاوي: 50. 71. 86.

عليه الدَّولة السُّليمانيَّةُ اشتمال الأكمام على النَّوْر، وانسربت إليه الأماني انسِرابَ الغَمام إلى الغَوْر، وانتظم في سلك الرِّياسة وارتبط، وحُكِّم ما شاء فحَكَّم اختصاصه بها وربط، تَخَلَّى عن ذالك تَخَلِّيَ العِقْدِ عن عنق الحسناء، وأعرض عنها إعراضَ النَّسيم عن الرَّوضة الغَنَّاء، فانقبض عن أنواع الناس وأجناسهم، واستوحش من إيناسهم، وأنِس بنتائج أفكاره، وهام بعُونِ العلم وأبكاره، وصرف وجهه تجاه البِرِّ والتَّقوى، وترك رَبْع الحَظوة عافيا قد أقوى، وصار يلتمس الخفاء والإخمال، ويُلقي نفسه في زوايا الإغفال والإهمال.

وكان، قبل ذلك، جَبَرَهُ مولانا السُّلطان[549] على تولية خطة الأحكام بجميع نواحي الغَرب، لَمَّا تحقق أنه البحر النقيّ السَّاكن العذب، وأقعده في ثغر العرائش على كلّ المنصة، وبوَّأه المراتب اللائقة به المختصة، فقبلها، على رغم منه، في طاعة الله بطاعة أميره، وأقالها ووضع في يد التَّقوى عقالها، وحماها بأسنَّةٍ من العدل وشِفاره، وأراها وجه الديانة[550] عند الإسفار. لا يُسْتَنْزَلُ في حقيقة، ولا يتنزَّل عنها بملك النعمان ذي الشقيقة[551]، فحَيِيَت به الرَّعايا، ولويت إلى ألسُن البقا والسعايا، وطار بعدله طائر الاشتهار، في سائر النواحي من القرى والأمصار. ثم زهد في ذلك، واستعفاه بقصيدة غرّاء فأعفاه. نَصُّها:

[رائية أبي الفيض حمدون، في استعفاء المولى سليمان ومدحه][552]

[مجزوء الكامل]

1) قَـدْ كِـدْتُ مِنْ فَـرَحِي أطيـرْ	لَـوْ أنَّ إنســانًا يطيـــرْ
2) لَمَّـا شَـمَـمْتُ نَسِيـمَـهـا	وبُـروقَ عِطْفٍ لي تُشـيـرْ

549- السلطان المقصود هو المولى سليمان.

550- كلمة مدمجة تشبه أن تكون: الفح.

551- خاء: بن الشُّقيقة. وهو تصحيف. والمقصود النُّعمان بن المنذر، ملك العرب بالحيرة، وإليه تنسب الشقائق، وهي نَوْرٌ أحمر.

552- القصيدة في النَّوافح: 370-374. وهي مؤرخة بأول عام 1219هـ/1804م. وهي عموما تنظر إلى قصيدة المنخل اليشكريّ المشهورة. الأصمعيات: 58-61.

3) هيَ يوسُفُ، وكَأنَّني ... يَعقُوبُ إذ جاءَ البشيرْ
4) زِدْ مِنْ حَديثِكَ يا نَسيـ ... ـمُ، فأنتَ لي الأنَسُ[553] السَّميرْ
5) وأدِرْ مُدامَةَ ذِكْرِها ... لِلّهِ دَرُّكَ مِنْ مُديرْ!
6) فَالقَلْبُ منِّي في لَظَى ... وَالطَّرْفُ منِّي في غَديرْ
7) لَمْ أنْسَ إذ زارَتْ، ومِنْ ... ألحاظِها كَأسي أُديرْ
8) لَمْ يَنْكَسِرِ لَحْظٌ لَها ... إلاّ غَدا قَلبي كَسيرْ
9) حَصَرَتْ لَنا ما في الفَلا ... فَغَدا الغَزالُ فيها حَسيرْ
10) وتَمايَلَتْ في رَوْضَةٍ ... كَتَمايُلِ الغُصْنِ النَّضيرْ
11) وَشَمَمْتُ زَهْرَةَ ثَغْرِها ... ما المِسْكُ مِنْها وَما العَبيرْ
12) ولَمَسْتُها كَأنَّني ... لامَسْتُ طاقاتِ الحَريرْ
13) وَضَمَمْتُها فاهْتَزَّ مِنْ ... فَرْطِ السُّرورِ بِها السَّريرْ
14) ولَثَمْتُها فَتَنَفَّسَتْ ... كَتَنَفُّسِ الظَّبْيِ العَقيرْ
15) فَسَألتُها عَنْ حالِها ... فَتُجيبُ: إنَّ أبي حَصيرْ
16) مازالَ في سِجْنِ العَرا ... ئشِ لا يُجيبُ ولا يُجيرْ
17) ولأنتَ أشْعَرُ شاعِرٍ ... تُنْسي الفَرَزْدَقَ، بلْ جَريرْ
18) بِاللّهِ قُلْ لي: هَلْ تَرى ... في الدَّهْرِ مِثْلَكَ في نَثيرْ
19) أو في نِظامِ قَلائِدٍ ... مِنْها العَرائِسُ تَسْتَعيرْ
20) ما ردَّ مِثْلَكَ شافِعًا ... مَلِكٌ، ولَوْ هُوَ أزْدَشيرْ
21) لَوْ قَدْ رَثَيْتَ لِحالَتي ... لَشَفَعْتَ لي عِنْدَ الأميرْ
22) عِنْدَ الأميرِ أبي الرَّبيـ ... ـعِ، أبي السُّعودِ المُسْتَنيرْ
23) اَلصَّفْحُ مِنْ صَفَحاتِ وجْـ ... ـهِهِ طالِعٌ[554] بَدْراً مُنيرْ

[553]- النوافع: 370: أنيس.

[554]- في الأصل: طالعا.

24) أوَ مـــا تَراهُ قَـــدْ عَـــفـــا عَــمَّنْ جَنى الذَّنْبَ الكَبــيــرْ

25) عَـنْ بَربَرٍ قَـــدْ طالَـمـــا ظَنُّوا بِأنَّ لَـهُـمْ نَـصــيــرْ

26) حَـــتَّـى إذا لَـمْ يَـعْـــرِفُـــوا دَهَشًـــا قَـــبـــيــلاً مِنْ دبيــرْ

27) مَنْ كـــانَ في عــيــرٍ ومَنْ قَـــدْ كـــانَ مِنْهُمْ في نَفـــيــرْ

28) مَـــــدُّوا لَـهُ أعـنـاقَـــــهُـمْ وبَدَا الكَبــيــرُ هُوَ الصَّــغــيــرْ

29) حَـــتَّـى إذا كـــانوا بِـأسْــ رِهِمْ أســـيـــراً لا يَســـيــرْ

30) قَـــــدْ عَفَّ عَنْهُمْ وابْتَـــغى مِنْ رَبِّـهِ العَـــفْـــوَ الغَــزِيرْ

31) مِنْ بَعْـــدِمـــا حَلُّوا لَظى مِنْ بأسِـــهِ لَهُمْ زَفــيــرْ

32) امْـــــتَنَّ فَـــدَخَّلَهُمْ جِنا نَ العَـــفْـــوِ والفَـضْلِ الكَثــيــرْ

33) وَرِثَ السَّـــمـــاحَـــةَ مِنْ أبٍ لأبٍ، إلى الشَّـــرَفِ الأثيـــرْ

34) الزَّمْـــزَمِيُّ المُسْـــتَـــجِيــ بِ لِمُـسْـتَـجِـيـرٍ مِنْ سَعـيـرْ

35) وكَـــــأنَّـهُ في مُـلْـكِـهِ رَبُّ الخَـــورْنَقِ والسَّــدِيرْ

36) لا وَالَّذي أحْــيـــا بِهِ الْـ(م) ـعُـمَـرَيْنِ مـــالَهُ مِنْ نَظيــرْ

37) هُو في السِّــيـــادَةِ مُــفْــرَدٌ مـــا إن لَـهُ فـــيــهـــا وَزِيرْ

38) وَمَـــتـى سَــألْتَـــهُ عَنْ عُلو مٍ، لَمْ تَبِنْ تَسْـــألْ خَـــبــيــرْ

39) [وَمَـــتى سَـــألْتَـــهُ أن يَمــيــ رَ، تَسَلْ بِهِ بَحْــراً يَـمــيــرْ][555]

40) وَمَـــتى انْتَــصَــرْتَ بِهِ لِحـا دِثَةٍ، تَجِـــدْ نِعْمَ النَّصــيـــرْ!

41) وَمَـــــــتى هَـزَزْتَـهُ لِـلنَّـدى تَنْـــقَفْ بِـهِ ريحًــا تُـثــيــرْ

42) إنْ كـــانَ ريحًـــا فـي نَـدى هُـوَ في رزانَـتِـــهِ ثَـبــيــرْ

43) وإذا رأيْـــتَ، رأيْــتَ ثَـــــ(م) ـمَّ نَعــيــمًـــا أو مُلكًا كَـبــيــرْ

44) لا وَالَّـذي رَفَـعَ السَّـــمـــا ءَ، وفَـجْـرُهُ فـيـهـا يُنيــر[556]

---

[555]- سقط من الأصل. والتعويض من: النَّوافح: 374.

[556]- النوافح: 374: منير.

45) مـــا إن رأيتُ ولا سـمِـعْـ — تُ بِمِثْلِ فَـجْـرِهِ يَسْـتطيـرْ
46) ولَـهُ الجَـزائِرُ تَـمْـتَطِي — كَيْ تَسْـتَـضيءَ وتَسْـتَنِيـرْ
47) اَللّـهُ يُؤْتيـهـا كَـمـا — آتى السُّـوى، وَهُوَ البَـصـيـرْ
48) وَيُديمُ نَشْـرَ كَـمـالِهِ — مـا دامَ نَشْـرٌ مِنْ عَـبـيـرْ
49) ويُطيلُ كَـحْلَ جُـفـونِنا — بِهِ، لا كَـجَـفْنٍ مِنْ غَـريرْ
50) حَـتَّى يعـودَ الكُلُّ مِنْ — فَـيْضٍ يُمَـدُّ بِهِ قَـديرْ

[تتمّة عن سيرته]

وأما فيما يتعلق بالأمور الباطنية، كالزُّهد في المقامات والأحوال، بترقّي الإنسان عنها شيئا فشيئا، وانتقاله من مقام إلى مقام، بالزُّهد فيما هو فيه، فينقله اللّه إلى ما هو خير منه، أو التّخلّي عنها دفعة، والمحْوُ عنها رأسا، إلى ما لا يُعبِّر عنه ولا يظفر به إلا من منَّ عليه اللّه سبحانه. وقد رَقِي الشيخ أبو الفيض حمدون، في آخر عُمره من هذا، فكان مكينا، ولاح في سمائه بدرا مُبينا، كما يُعلم ذلك من إشاراته وكلامه.

وأما حديثُه، فحسبُك دليلا عليها ما تقدم من عُلُوّ همته في كلّ شيء، وعظيم زهده ظاهرا وباطنا، وكثرة إيثاره سِراً وإعلانا، إلى ما اتّصف به من وافر العلم والمعرفة، وخالص التوحيد، الدالَّيْنِ على كمال عبوديّته، الدالّة على تمام حُريته، والحرِّيّة حاصلُها الخلوص والاعتبار. قال القُشَيْرِيّ[557] «هي أن لا يكون العبد بقلبه تحت رِقّ شيء من المخلوقات، لا من أعراض الدنيا، ولا من أعراض الآخرة، فيكون فَرْدَ الفَرْد، لم يسترقّه عاجلُ دنيا ولا آجل، ولا سؤالٌ ولا قصد، ولا حَظٌّ ولا أرب». اهـ. وإنما أرَبُه مولاه، وحظُّه حُبُّه ورضاه.

هذا ما تيَسَّر من سيرته السَّنيّة، والجُمَل من أخلاقه السُّنّيّة، ولنختِمْ هذا الباب بقصائد ثلاث له في التّحلّي بالفضائل، والتّخلّي عن الرّذائل، كلٌّ واحدة منها اشتملت على أمثال وحِكَم، بما تَقْصُر دونه الهِمَم، الأولى لامية من بحر الرَّمل، المحذوفة العروض والضَّرب، المقيَّدة

[557]- الرسالة: 100. (مع بعض الاختصار).

القافية، عارض بها قصيدة الشيخ أبي حفص، عُمَرَ ابن الوردي[558] الشهيرة. نَصُّها:

[لامية حمدون ابن الحاجّ][559]

[الرمل]

1) أَلْبِسِ النَّفسَ حَلْيًا وحُلَل[560] مِنْ زكيِّ الخُلْقِ في خَيْرِ المِلَلْ
2) إنَّما المرْءُ بِنَفْسٍ شَرُفَتْ وكَذا السَّيْفُ بِنَصْلٍ وَعَمَلْ
3) قُلْ لِمَنْ يَرفُلُ في حَلْيٍ وَفي حُلَلٍ: هَيهاتَ، ما الكُحْلُ كَالكَحَلْ!!
4) فَأَعِرْ أُذْنَيْكَ مِنْ حَدَثٍ لا تُولِهِ وَصْمَ التِفاتٍ وَمَلَلْ
5) وتَذَلَّلْ في مَقامِ الذُّلِّ لا تَتَذَلَّلْ، رُبَّما ذاكَ أَذَلْ
6) وَتَواضَعْ تَعْلُ، فَالماءُ جَرى في عُروقٍ فاعْتَلى حَتَّى وَصَلْ
7) وَدَعِ الكِبْرَ ولا تَهْدِمْ بِهِ رُكْنَ مَجْدٍ في عُلاهُ الطَّرْفُ كَلْ
8) زَهْرُ الأَغْصانِ مِنْ إعْجابِهِ بِمَعالِيهِ تَرَدَّى وَنَزَلْ
9) حَلَّ في الأصدافِ والحَيَّةِ ما صارَ لُؤْلُؤاً وسُمًّا قَدْ قَتَلْ
10) واتْرُكِ الغادِرَ، والغالِبَ خَفْ وَتَصَدَّقْ بِمُداراةِ السَّفَلْ
11) واحْتَمِلْ ضَرَّ المُسيئينَ فَما أَعْقَلَ المرْءَ، إذا الضُّرَّ احْتَمَلْ!
12) كَمْ مُسيءٍ صَدَّنِي عَنْ جُرمِهِ جُبْنُ حِلْمي، وَهْوَ في الجُرْمِ بَطَلْ!!
13) زادَ طيبُ النَّدِّ من إحراقِهِ فَأَزِيدُ الحِلْمِ، إن زادَ، دَغَلْ
14) فَاعْفُ عَنْ مِثْلِكَ واعْرِفْ قَدْرَ مَنْ قَدْ تَعَلَّى، واتَّئِدْ عَمَّنْ سَفَلْ
15) إنْ يُضِعْ حَقَّكَ ذو نَقْصٍ فَلا يَعْرِفُ الكامِلَ إلا مَن كَمَلْ
16) أنا لا أرضى مُجازاتي لَهُ إنَّما يَجْزي الفَتى لَيْسَ الجَمَلْ

[558]- زين الدين، أبو حفص، عمر بن مظفَّر البكري. شاعر من العصر المملوكي. وهو صاحب اللامية المسماة: «نصيحة الإخوان، ومرشد الخلاَّن»، وسوف يورد المؤلف نَصَّها. (ت 749هـ) ترجمته في: الدُّرر الكامنة: 3/ 195. رقم 472. البُغية: 2/226-227. رقم 1858.

[559]- القصيدة في ديوانه: 175-181.

[560]- الأبيات الثلاثة الأولى في: حاشية المؤلف: 2/33. شرح العقود: 2/43.

17) وَتَغـــافَلْ تُـكْفَ أحْـــزانًا ، وإِنْ أَسْـرَعَ الأوغــادُ فَــاذْهَبْ ذا قَــزَلْ

18) لا تَضِقْ ذَرْعًـــا بِأعــداءٍ فَكَمْ جَنَّبــوا المَرءَ وُقــوعــاً في الزَّلَلْ

19) إنَّ ســوءَ الظَّنِّ مِنْ حَـزْمِ الفَـتى لا تُـصَـدِّقْ واشِـيًـا فـيـمـا نَقَلْ

20) وَاكـتُمِ السِّـرَّ، فـإِنْ أفـشَـيْـتَـهُ مـا على مُـفـشـيـهِ مِنْ بَعْـدُ عَـذَلْ

21) واخْـتَـصِـرْ نُطْقَكَ، لا تَنْطِقْ بما فيـهِ سوءٌ، «وَلْيُقَسْ ما لَمْ يُقَلْ»[561]

22) فَـحـيــاءُ الـمَـرْءِ خَـيْـرٌ كُلُّهُ مــــا أتى إلاّ بِخَـــيْــــرٍ ونَـفَلْ

23) وإذا لَمْ تَسْـتَحِ[562] اصْنَعْ مـا تَشَـا كلُّ شَيْءٍ تَـرْتَضِـــيــهِ الآن حِلّْ

24) شــاوِرِ الألبــابَ تأمَنْ ندمًـــا لا يرى الطَّرْفُ مُـحِـبّا فـيـه حلّْ

25) بـالتَّـــأنّي يُدْرِكُ المَرْءُ، وكَمْ فـازَ مِـقْـدامٌ وأصـحـابُ العَـجَلْ!!

26) إن تُرِدْ شَــراً فَـــأمْـــهِلْ، وإذا مـا أرَدْتَ الخَـيْـرَ لا تَصْـحَبْ مَـهَلْ

27) وتَـفَكَّرْ آخِـــرَ الأمْـــرِ لِكَيْ تَسْـــتَـريحَ النَّفسُ، إن خَطْبٌ نزَلْ

28) لا تَجُــرْ، لو دكَّ ظُلْمًــا جَـبَلٌ جَـبَــلاً، لانْدَكَّ في الحينِ الجَــبَلْ

29) واحْـذَرْ أنْ تَحْـسُدَ مَنْ أصبَحَ في أكـمَلِ الحـالِ، عَلى عَـيْشٍ خَـضَلْ

30) خَـوْفَ أن تُحْـرَمَ، إذ في ذاكَ مـا فــيــهِ مِنْ رَدٍّ على مَــوْلاكَ الأجَلْ

31) يَـكْمُلُ العَـــيْشُ لِنَقْصٍ، وإذا كَـمُلَ البَـدْرُ، فَلِلنَّقْصِ اكْـتَـمَلْ

32) وَهْوَ كـالعُنّابِ فـيـهِ مُـشْـتَـهًى مُـسْـتطابٌ، مَعْ شَـوكٍ يُعْـتَـزَلْ

33) فَـإذا مـا عَـضَّكَ الدَّهْرُ فَـلا تَقْـــرَعَنَّ السِّنَّ مِنْ خَطْبٍ جَلَلْ

34) إنَّ لِلخَــيْــرِ ولِلشَّــرِّ مَــدى وكـــلا ذالِكَ وَجْــهٌ وَقَـــبَلْ

35) هذهِ الدُّنيـــا ، ومِنْ عــادَتِهـــا تُبْـعِـدُ العـالي، وتُدني مَنْ سَـفَلْ

36) إن سَــهَتْ يَومًــا فَــزارَتْكَ فَــلا تَسْـتَـغـرَنَّ بفـانٍ مُـخْـتَـزَلْ

37) واشْكُرِ اللّهَ، تُزَدْ إنعـــامَـــهُ وبِقَـيْـدِ الشُّكْرِ يَبْـقى مـا حَـصَلْ

[561]- من ألفية ابن مالك في النحو: شرح ابن عقيل: 216/1.

[562]- في الأصل تستحيي. ولا يستقيم به الوزن.

38) وَأنِلْهـا المُسْـتَـحِـقِّينَ، فَـإنْ ... لَمْ يُصِــبْــهُمْ وابِلٌ مِنْكَ فَطَلْ
39) إنْ تَعُـدْ، أعْطيتَ، أو دِنْتَ، فَـدَعْ ... عَنْكَ شَيْنَ الدِّيْنِ، لا تَصْحَبْ بَخَلْ
40) وإذا[563] وَلَّتْ، فَـصَبْراً، واقْتَنِعْ ... إنَّمـا لِلمَـرْءِ مـالُ مـا انخَـزَلْ
41) إنَّ حُسْنَ الشَّمْسِ في صَحْوَتِها ... لَمْ يَزُلْ عَنْهـا بِإطبـاقِ الطَّفَلْ
42) أرِحِ القَلْبَ بِزُهْدٍ عـازِمًـا[564] ... إنما الكُلُّ قَـضـاءُ اللّهِ جَلْ
43) وَانْظُرِ الأكْـثَـرَ دينًا وتُقَى ... واهْجُـرِ الأدْوَنَ دينًـا والأقَلْ
44) كَمْ عَليمٍ لَمْ تُفِـدْهُ حِـيلَةٌ ... وجَـهولٍ نالَ مِنْ غَـيْـرِ حِيَلْ!
45) يُبْـذَلُ المالُ لإصـلاحِ الفَـتى ... لا تَنَلْ ذاكَ بِعِـرْضٍ مُـبْـتَـذَلْ
46) واقْطَعِ الآمـالَ إذا مـا بَسَـقَتْ ... ذِلَّـةً إلاّ عَـلـى بَـدْرٍ أفَـلْ
47) واعْـتَـصِمْ بِاللّهِ واسـألْهُ فَـمـا ... خـابَ، حـاشـا، مَنْ لِمـوْلاهُ سَـألْ
48) لا تُـجـاوِزْهُ إلى ذي بَـخَـلٍ ... فـالكريمُ مـا تَـخَطّاهُ الأمَلْ
49) بَلْ طِلابُ اللّهِ فـيـهِ غُنْيَـةٌ ... وَطِلابُ الغَـيْـرِ مِنْ فَـقْـدِ الخَجَلْ
50) فَـتَـشَـوَّفْ لِعُـيـوبٍ بَطَنَتْ ... فـيكَ، واقْطَعْـهُ بِمَـا عَنْكَ أفَلْ
51) هادِ مَنْ أحْـبَـبْـتَـهُ مـا يَشْـتَـهي ... فَــالهَـدايا تورِثُ الحُبَّ الرَّفَلْ
52) وأنِـلْهُ كُـلَّـمــا يَـرْضى بِـهِ ... غَـيْـرَ مُـعـتـاضٍ، وإلاّ فَـتَـخَلْ
53) وإذا أحْـبَـبْـتَ أو أبْغَـضْـتَ لا ... تَتَـوَغَّلْ، رُبَّمَـا الأمْـرُ انـتَـقَلْ
54) وإذا خـالَفَ خِلٌّ في الّذي ... مِلتَ عَنْهُ، أو إليْـهِ، قَـدْ أخَلْ
55) كَمْ لَئيمٍ خـالِصِ البُـغْضِ عَلى ... نَـعْتِ خِـدْنٍ لَمْ تُرِدْ عَنْـهُ بَدَلْ
56) وكَـريمٍ لَسْتَ تَرْضَى قُـرْبَهُ ... ولَدَى الحـاجـاتِ يَشْـفي مِنْ عِلَلْ
57) لا يَغُـرَّنَّكَ قُـرْبُ مِنْ فَـتَى ... فَـاقْـتِـرابُ الشَّـمْسِ يَدْنو بِالأجَلْ
58) أو تَكُنْ تَغْـتَـرُّ بِالحُسْنِ فَـمـا ... كُـلُّ زَهْرِ الـرَّوْضِ لِـلشَّمِّ يَحِـلّ[565]

[563]– في الأصل: فإذا. وفضلنا رواية ديوان حمدون: 177.

[564]– في الأصل: عارفا. وفضلنا رواية ديوانه: 177.

[565]– في الأصل: يحل. وفضلنا رواية ديوان حمدون: 178.

59) نَعَمْ، إن حَقَّقْتَ وُدّاً مِنْ فَتَى ... لَمْ يُخالِفْ بينَ قَوْلٍ وَعَمَلْ

60) فاحْفَظِ الميثاقَ في غَيْبَتِهِ ... واشْدُدِ المَرْموقَ مِنْهُ بالخَلَلْ

61) واخْتَبِرْ صِدْقَهُ إنْ شِئْتَ، بِما ... قالَهُ في شَأْنِ أصحابٍ أُوَلْ

62) لا تَخَلْ تُلْفي خَليلاً وافِيًا ... أيُّ خِلٍّ قَدْ تَخَلَّى عَنْ خَلَلْ!!

63) لا تَكُنْ تَفْحَصُ عَنْ أحوالِهِ ... فَهْوَ كالنُّورِ لِعَرْكٍ ما احْتَمَلْ

64) وإذا ما زَلَّ، سامِحْهُ فَكَمْ ... مِنْ خَليلٍ قَدْ تَجافى مِنْ عَذَلْ

65) وإذا أبْدَى اعْتِذاراً ظالِمًا[566] ... لم يَدَعْ لِلَّوْمِ والعَتْبِ مَحَلْ

66) زُرْ قَليلاً تَحْظَ بالقُرْبِ وَلا ... تَكُ كالشَّمْسِ طُلوعًا فَتُمَلْ

67) قَدِّمِ الجارَ على الدَّارِ وخُذْ ... مَنْ بِعَلْيائِهِ ذو النَّقْصِ اكتَمَلْ

68) فإذا جاوَرَ ريحٌ طَيِّبًا ... طَيَّبَ الأرْجاءَ مِنْ طيبٍ حَمَلْ

69) واحْمِهِ مِنْ كُلِّ ما شاءَ ولا ... تَخَفِ المَكْروهَ جُبْنًا فَتُذَلْ

70) فابْذُلِ[567] النَّفْسَ ولا تُحْجِمْ فَما ... يَدْفَعُ الإحجامُ مَقْدورَ الأزلْ

71) إنْ تَمُتْ، فالذِّكْرُ حَيٌّ دائِماً ... فَلَكَ السَّعْدُ أو القَبْرُ مَحَلْ

72) وانْتَقِلْ عَنْ مَوْضِعٍ لا يُرْتَضَى ... تَلْقَ ما تَرضى [بأذيالِ][568] النَّقَلْ

73) نَقْلَةُ الدُّرِّ عَنِ البَحْرِ ارْتَقَتْ ... بِهِ للنَّحْرِ[569]، وفي التِّيجانِ حَلّْ

74) وإذا ما شِئْتَ أنْ تَخْطُبَ في ... مِنْبَرِ المَجْدِ، وتَعْلُو وتَجِلْ

75) شَمِّرِ السَّاقَيْنِ، وانْهَضْ قائِمًا ... بِقُوى العَزْمِ، ودَعْ عَنْكَ الكَسَلْ

76) عَجَباً لِلْمَرْءِ يَبْغي رِفْعَةً ... جِدُّهُ فيها «عَساني ولَعَلْ»

77) إبَرٌ دونَ جَنَى الشَّهْدِ ومَنْ ... خَطَبَ الحَسْناءَ يَحْقِرْ ما بَذَلْ

78) لا تَقُلْ أصْلي وفَرْعي، إنَّهُ ... لَقَصيرٌ مَنْ على هذا اتَّكَلْ

---

[566]- في الأصل: ظالم. وفضلنا رواية ديوانه: 178.

[567]- في الأصل: وابذل. وفضلنا رواية ديوان حمدون: 179.

[568]- بياض في الأصل، ملأناه من ديوانه: 179.

[569]- في الأصل: للخير. وفضلنا رواية ديوانه: 179.

79) [مَعْ أنِّي مِنْ أُناسٍ شَــيَّــدُوا رُتَبــاً، عَلْيــاءَ أرْبَتْ بِزُحَل[570]
80) مِنْ بَني مِــرْداسٍ لكِنّي فَــتَى ما اعْـتَـمَـدْتُ منهُمْ فَـضْـلاً وَصَلْ]
81) إنَّ أُصْـلَ المِـسْـكِ نَـجْـسٌ وَدَمٌ وبَهِيُّ الوَرْدِ مِنْ شَــوْكٍ حَــصَلْ
82) وَاشْـتَـغِلْ بالعِلْمِ والفِـقْـهِ وخُـذْ ثاقِبَ الذِّهْنِ فَـتَـحْـيَـا ما انقَـفَلْ
83) وانْشُـرِ الأوراقَ، واقْطِفْ ما طوَتْ مِنْ أزاهيــرَ تَحــاشَتْ عَنْ مَــثَـلْ
84) واعْنَ بالإنصافِ فَـالإنصافُ مِنْ شِــيَمِ الأشــرافِ، مِنْ دونِ الجَــدَلْ
85) واسْـتَـفِـدْ مِنْ كُلِّ ذي عِلْمٍ ولا تُفِــدِ الجــاحِـدَ، تَسْلَمْ مِنْ غُلَلْ
86) وَبِأسـحـارِ اللَّيـالي فَـاجـتَـهِـدْ جــاهِدِ الكافِــرَ تَظْفَــرْ بالنَّفَلْ
87) واتَّقِ اللّهَ، فَــبِــالعِلْمِ الفَـتَـى يتَــــحَلَّى بِرَجــــاءٍ ووَجَـلْ
88) جَــهْـلُـهُ أنْجَى لَهُ مِنْ عِـلْـمِــهِ إن تَخَلّى عَنْ صَــلاحٍ وَعَــمَلْ
89) فـيـمـا يَعْنيكَ فـاعْـمَـدْ تارِكًا «قـالَ» أو «قـيلَ» إذا شِـئتَ تَجِلْ
90) واركَبِ الجِـدَّ، ولا تَحْـفَلْ بِمـا فـيـه لَهْــوٌ مِنْ أغـانٍ أو غَــزَلْ
91) واكْـفُفِ الألحــاظَ عــمَّن لَوْ بَدا أفْـــزَعَ الظَّبْيَ، وأزْرَى بـالأسَـلْ
92) ســاحِــرُ اللُّبِّ بِطَرْفٍ بابِلي سَــيْــفُــهُ جَنَّةَ خَــدَّيْه أظَلْ
93) [إن تَـزِدْهُ نَـظَـراً، زِدْتَ بِــهِ ما سبَى اللُّبَّ وأدْهى مَنْ عَقَلْ][571]
94) وَاسْلُ عَـمَّنْ خـالَجَ الأحْـشـاءَ إنْ يُسَــتَطَلْ وَصْلٌ، وإن لَمْ يُسْــتَطَلْ
95) وإذا لَمْ تَسْــــتَطِعْ ذاكَ فَكُنْ ذا عــفــافٍ يَتَــأبّى عَنْ دَخَلْ
96) آفَـةُ الدينِ الهَـوى فَـاحْـذَرْ، فَـمَنْ أُمَّـــهُ واتَّبَعَ الصَّــيْــدَ، غَــفَلْ
97) قَـدْ ذَوى غُـصْنُ شَـبابي سَـفَـهًا ولَذيذُ العَـيْشِ مـا عَنّي انْفَـصَلْ
98) صاحِبي حَـتَّى مَـتى نَحْنُ على آلةِ اللَّهْـــوِ وَتَطْويلِ الأملْ؟!
99) عَـدَمُ الحُـزْنِ عَلَى مـا فـاتَ مِنْ مَــوْتِ قَلْبٍ، وَالتَّــراخي مِنْ زَلَلْ

[570]– سقط البيتان من الأصل. والزيادة من: ديوان حمدون: 179.
[571]– سقط البيت من الأصل. والزيادة من ديوان حمدون: 180.

100) قُمْ إلى رَوْضِ الأحبَّاءِ لِكَيْ تَجْتَنِي مِنهُ أزاهيرَ العَمَلْ

101) والتَزِمْ مَنْ يُنْهِضُ المرْءَ إلى نَفَحاتٍ، وَعَلى مَولاهُ دَلّْ

102) وَاشْرَبِ الرّاحَةَ مِنْ راحَتِهِ وَتَحاشَ عن مُواخاةِ الهَمَلْ

103) لاتَسَلْ أصْلاً على حالِ الفَتى وَعَلى حالِ أخِلاَّئِه سَلْ

104) رُبَّما كُنتَ مُسيئًا فَأرَتْ صُحْبَةُ الأسواءِ إحسانًا جَلَلْ

105) واحْذَرْ أن تَرْضى عَنِ النَّفْسِ فَفِي عَدَمِ الرِّضوانِ عَنْها الخَيْرُ حَلّْ

106) فَسَيُجْزَى فاعِلٌ عَنْ فِعْلِهِ وسَيَلقَى رَبَّه، عَزَّ وجَلّ

ونصّ قصيدة الشّيخ ابن الورديّ:

[لامية ابن الوردي][572]

[الرَّمَل]

1) اِعْتَزِلْ ذِكْرَ الأغاني وَالغَزَلْ وقُل الفَصْلَ وجانِبْ مَنْ هَزَلْ

2) ودَعِ الذِّكْرَى لأيّامِ الصِّبا فَلأيَّامِ الصِّبا نَجْمُ أفَلْ

3) إنّ أحلى عيشَةٍ قَضّيْتُها ذَهَبَتْ لَذّاتُها، والإثْمُ حَلّ

4) واتْرُكِ الغادَةَ لا تَحْفَلْ بِها تُمْسِ في عِزٍّ وتُرْفَعْ وتَجِلّ

5) وَالْهُ عَنْ آلاتِ لَهْوٍ أطْرَبَتْ وعَنِ الأمْرَدِ مُرْتَجِّ الكَفَلْ

6) إن تَبَدَّى تَنْكَسِفْ شَمْسُ الضُّحى وإذا ما ماسَ يُزْري بِالأسَلْ

7) زادَ، إن قِسناهُ بِالشَّمْسِ سَنَىً أو عَدَلْناهُ بِغُصْنٍ فاعْتَدَلْ

8) وافْتَكِرْ في مُنْتَهى حُسْنِ الّذي أنتَ تَهْواهُ تَجِدْ أمراً جَلَلْ[573]

9) واهْجُرِ الخَمْرَةَ، إن كُنْتَ فَتى، كَيْفَ يَسْعَى في جُنونٍ مَنْ عَقَلْ؟!!

10) واتَّقِ اللّهَ، فَتَقْوى اللّهِ ما جاوَرَتْ قَلْبَ امْرِئٍ إلاّ وَصَلْ

11) لَيْسَ من يَقْطَعُ طُرْقًا بَطَلاً إنّما مَنْ يَتَّقِي اللّهَ البَطَلْ

572- القصيدة في ديوانه: 435-439. وعليها قابلنا النّصّ.

573- البيت تأخر في رواية الديوان: 435، إلى مكان البيت الحادي عشر.

12) صَــدِّقِ الشَّــرْعَ، ولا تَرْكَنْ إلى رَجُلٍ يَرْصُــــدُ في اللَّيْلِ زُحَلْ

13) حــارَتِ الأفكارُ في قُــدرَةِ مَنْ قَــدْ هَدانا سُـبْلنا[574] عَــزَّ وجَلْ

14) كَـــتَبَ الموتَ عَلى الخَلْقِ فَكَمْ فَلَّ مِنْ جَـــمْعٍ، وأفْنى مِنْ دُوَلْ

15) أيْنَ نَمْـــرودُ وكَنْعـــانُ ومَنْ مَلَكَ الأرضَ، وَوَلَّى وَعَـــزَلْ؟!

16) [أين عــادُ، أينَ فِــرْعَـونُ ومَنْ رَفَعَ الأهرامَ، مَنْ يَسْمَعْ يَخَلْ][575]؟!

17) أيْنَ مَنْ ســادُوا وَشــادُوا وبَنَوا هَلَكَ الكُلُّ فَلَم[576] تُغْنِ القُلَلْ؟

18) أيْنَ أربابُ الحِــجا، أهْلُ النُّهى أيْنَ أهْلُ العِلْمِ والقَـــوْمُ الأوَلْ؟!

19) سَـيُـعِـيـدُ اللّهُ كُـلاً مِنْهُمُ وسَـيَـجْزِي فـاعِـلاً مـا قَـدْ فَـعَلْ

20) أيْ بُنَيَّ اسْمَعْ وَصـايَا جَـمَـعَتْ حِكَمًـا خُـصَّتْ بِهـا خَـيْـرُ المِلَلْ

21) واطْلُبِ العِلْمَ، ولا تَكْسَلْ فَـمـا أبْعَـدَ الخَـيْـرَ عَنْ أهْلِ الكَسَلْ!

22) واحْـتَـفِلْ لِلْفِـقْـهِ في الدِّينِ ولا تَشْـتَـغِلْ عنهُ بِمـالٍ أو خَـوَلْ

23) واهْجُـرِ النَّوْمَ، وَحَـصِّلْهُ فَـمَنْ يَعْـرِفِ المَطْلوبَ، يَحْـقِـرْ مـا بَذَلْ

24) لا تَـقُـلْ قَـــدْ ذَهَـبَتْ أرْبـابُهُ كُلُّ مَنْ ســارَ عَلى الدَّرْبِ وَصَلْ

25) في ازدِيادِ العِلْمِ إرغـامُ العِـدى وَجَـمـالُ العِلْمِ إصلاحُ[577] العَـمَلْ

26) جَـمِّلِ المَنْطِقَ بِالنَّحْـوِ فَـمَنْ يُحـرَمِ الإعـرابَ في النُّطْقِ اخْـتَـبَلْ

27) انْظِمِ الشِّـعْـرَ، ولازِمْ مَـذْهَبي فَـاطِّراحُ الرِّفْـدِ في الدُّنْيـا أقَلْ

28) فَـهْـوَ عُنْوانٌ على الفَـضْلِ، ومـا أحْـسَنَ الشِّـعْـرَ، إذا لَمْ يُبْـتَـذَلْ!

29) مـاتَ أهلُ الجـودِ، لَمْ يَبْقَ سِـوى مُـقْـرِفٍ، أو مَنْ عَلى الأصلِ اتَّكَلْ

30) أنا لا أخْـتـارُ تقْـبـيلَ يَدٍ قَطْعُـهـا أجْـمَلُ من تِلْكَ القُبَلْ

574- ديوان ابن الوردي: 436. سبلا.

575- سقط البيت من الأصل. والزيادة من ديوان ابن الوردي: 436.

576- ديوان ابن الوردي: 436. ولم.

577- ديوان ابن الوردي: 436: يا صاح.

31) إن جزَتْني[578] عَنْ مَديحي صِرْتُ في رِقِّـهـا، أوْلا، فَـيَكْفي الخَـجَلْ

32) أعْـذَبُ الألفـاظِ قَـوْلي لَكَ: خُـذْ وأمَـرُّ اللَّفْظِ نُطْقي[579] بِلَعَلْ

33) مُلْكُ كِسْرى تُغني عَنْهُ كِسْرَةٌ[580] وَعَنِ البَحْـرِ اجْـتِزاءٌ[581] بالوَشَلْ

34) اعتَبِرْ: «نَحْنُ قَسَمْنا بيْنَهُمْ»[582] تَلْقَـهُ حَـقّـاً، وَبالحَقِّ نَزَلْ

35) لَيْسَ ما يَحْوي الفَتى مِنْ عَزْمِه[583] لا ولا مـا فـاتَ يَوْمًـا بالكَسَلْ

36) فـاطْرَحِ الدُّنْيـا، فَـمِنْ عـادَتِها تَخْـفِضُ العـالي، وتُعْلي مَنْ سَفَلْ

37) عـيشَـةُ الزّاهِدِ في تحصيلِها عـيشَـةُ الجاهِدِ، بَل هَذا أذَلّ[584]

38) كَمْ مِنْ جَهولٍ، وهوَ مُثْرٍ مُكثِرٌ وَعَليمٍ[585] مـاتَ مِنْهـا بِالعِلَلْ

39) كَمْ شُجاعٍ لَمْ يَنَلْ مِنْها المُنى[586] وَجَـبـانٍ نالَ غـاياتِ الأمَلْ!!

40) فـاترُكِ الحيلَةَ فـيـهـا واتَّئِـدْ إنَّمـا الحـيلَةُ في تَرْكِ الحِـيَلْ

41) أيُّ كَفٍّ لَمْ تُفِـدْ مِـمّـا تُفِـدْ[587] فَـرَمـاها[588] اللّهُ مِنْهُ بِالشَّلَلْ

42) لا تَقُلْ أصْلي وفَـصْلي أبَداً إنما أصْلُ الفَـتى مـا قَـدْ حَـصَلْ

43) قَـدْ يَسـودُ المرءُ مِنْ غَـيْـرِ أبٍ وَبِحُسْنِ السَّبْكِ قـد يُنفَى الزَّغَلْ

44) وكَـذا الوَرْدُ مِنَ الشَّوْكِ ومَـا يَـنْبُـتُ النَّـرْجِسُ إلا مِـنْ بَـصَـلْ

45) مَعَ أنّي أحْـمَـدُ اللّهَ على نَسَـبي، إذ بِأبي بَكْرٍ اتَّصَلْ

---

[578]- ديوان ابن الوردي: 437: تجزني.

[579]- ديوان ابن الوردي: 437: وأمرّ القول قولي.

[580]- ديوان ابن الوردي: 437: عنه تغني كسرة.

[581]- ديوان ابن الوردي: 437: ارتشاف.

[582]- سورة الزخرف: 32.

[583]- ديوان ابن الوردي: 437: عن عزمه.

[584]- ديوان ابن الوردي: 437: أزل.

[585]- ديوان ابن الوردي: 437: وحكيم.

[586]- ديوان ابن الوردي: 437: عنى.

[587]- ديوان ابن الوردي: 437: أي كف لم تنل منها الغنى.

[588]- ديوان ابن الوردي: 437: فبلاها.

46) قيمةُ الإنسانِ ما يُحسِنُهُ أكْثَرَ الإنسانُ منْهُ أو أقَلْ

47) أكتُمِ الأمْرَيْنِ: فَقْراً أو غِنى[589] واكْسَبِ الفَلْسَ، وحاسِبْ من بَطَلْ

48) وادَّرِعْ جِداً وكَداً واجْتَنِبْ صُحْبَةَ الحَمْقَى وأرباب الخَلَل[590]

49) بَيْنَ تَبْذيرٍ وبُخْلٍ رُتْبَةٌ وكِلا هَذَيْنِ، إن زادَ، قَتَلْ

50) لا تَخُضْ في سَبِّ ساداتٍ مَضَوْا إنَّهُمْ لَيْسوا بِأهْلٍ لِلزَّلَلْ

51) وتَغافَلْ عَنْ أمورٍ، إنَّهُ لَمْ يَفُزْ بالحَمْدِ[591] إلاّ مَنْ غَفَلْ

52) لَيْسَ يَخْلو المَرْءُ مِن[592] ضِدٍّ، وإن حاوَلَ العُزْلَةَ في رأسِ جَبَلْ

53) مِلْ[593] عَنِ النَّمَّامِ واهْجُرْهُ فَما بَلَّغَ المَكْروهَ إلاّ مَنْ نَقَلْ

54) دارِ جارَ الدَّارِ، إن جارَ، وإن لم تَجِدْ صَبْراً، فَما أحْلى النُّقَلْ!!

55) جانِبِ السُّلْطانَ، واحْذَرْ بَطْشَهُ لا تُعانِدْ[594] مَنْ إذا قالَ فَعَلْ!!

56) لا تَلِ الحُكْمَ، وإن هُمْ سَألوا رَغْبَةً فيكَ، وخالِفْ مَنْ عَذَلْ

57) إنَّ نِصْفَ النَّاسِ أعداءٌ لِمَنْ وَلِيَ الأحْكامَ، هَذا إنْ عَدَلْ

58) فَهْوَ كالمَحبوسِ عَنْ لَذّاته وكِلا كَفَّيْهِ في الحَشْرِ تُغَلْ

59) إنَّ لِلنَّقْصِ[595] والاسْتِثْقالِ في لَفْظَةِ القاضي، لَوَعْظاً[596] ومَثَلْ

60) لا تُوازى لَذَّةُ الحُكْمِ بِما ذاقَهُ المَرْءُ، إذا المَرْءُ انْعَزَلْ

61) فالوِلاياتُ[597]، وإن طابَتْ لِمَنْ ذاقَها، فالسُّمُّ في ذاكَ العَسَلْ

---

[589]- ديوان ابن الوردي: 437: وغنى.

[590]- ديوان ابن الوردي: 437: البخل.

[591]- ديوان ابن الوردي: 438: بالرفد.

[592]- ديوان ابن الوردي: 438: عن.

[593]- ديوان ابن الوردي: 438: غب.

[594]- ديوان ابن الوردي: 438: لا تخاصم.

[595]- ديوان ابن الوردي: 438: إنما النقص.

[596]- ديوان ابن الوردي: 438: لوعظ.

[597]- ديوان ابن الوردي: 438: والولايات.

62) نَصَبُ المَنْصِبِ أوْهى جَلَدي وَعَنائي مِنْ مُداراةِ السَّفَلْ

63) قَصِّرِ الآمالَ في الدُّنيا تَفُزْ فَدَليلُ العَقْلِ تقْصيرُ الأمَلْ

64) إنَّ مَنْ يَطْلُبُهُ المَوْتُ على غِرَّةٍ مِنْهُ، جَديرٌ بِالوَجَلْ

65) غِبْ وزُرْ غِبّاً، تُزَدْ حُبّاً، فَمَنْ أكْثَرَ التَّرْدادَ، أضناهُ المَلَلْ

66) خُذْ بِنَصْلِ السَّيْفِ، واترُكْ غِمْدَهُ واعْتَبِرْ فَضْلَ الفَتى دونَ الحُلَلْ

67) لا يَضُرُّ الفَضْلَ إقْلالٌ كَما لا يَضُرُّ الشَّمْسَ إطباقُ الطَّفَلْ[598]

68) حُبُّكَ الأوْطانَ عَجْزٌ ظاهِرٌ فاغْتَرِبْ تلْقَ عَنِ الأهْلِ بَدَلْ

69) فَبِمَكْثِ الماءِ يَبْقى آسِنًا وسُرى البَدْرِ بِهِ البَدْرُ اكْتَمَلْ

70) أيُّها العائِبُ قَوْلي عَبَثًا إنَّ طيبَ الوَرْدِ مُؤْذٍ بِالجُعَلْ

71) عَدِّ عَنْ أسْهُمِ لَفْظي واسْتَتِرْ لا يُصيبَنَّكَ سَهْمٌ مِنْ ثُعَلْ

72) لا يَغُرَّنَّكَ لينٌ من فَتى إنَّ لِلحَيّاتِ لينًا يُعْتَزَلْ

73) أنا مِثْلُ الماءِ سَهْلٌ سائِغٌ وَمَتى سُخِّنَ آذى وقَتَلْ

74) أنا كَالخَيْروزِ صَعْبٌ كَسْرُهُ وَهْوَ لينٌ[599] كَيفَما شِئْتَ انْفَتَلْ

75) غَيْرَ أنّي في زَمانٍ مَنْ يَكُنْ فيهِ ذا مالٍ، هُوَ المَوْلى الأجَلْ

76) واجِبٌ عِنْدَ الوَرى إكْرامُهُ وقَليلُ المالِ فيهِمْ يُسْتَقَلْ

77) كلُّ أهلِ العَصْرِ غُمْرٌ وأنا مِنهُمْ، فاترُكْ تَفاصيلَ الجُمَلْ

القصيدة الثانية، لاميّة من الضَّرب الثاني للعروض الأول، من بحر البسيط، وهي هذه[600]:

1) عَقيلةُ المَجْدِ بينَ البيضِ والأسَلِ وَلَيْسَ يَخْطُبُها ذو جُبْنٍ أو كَسَلِ

2) [ومَا تُشامُ ثناياها الّتي ابْتَسَمَتْ بَرْقًا إلى أن يُشامَ البَرْقُ من نُصُلِ

[598]- البيت ساقط في ديوان ابن الوردي.

[599]- ديوان ابن الوردي: 439: لدن.

[600]- أورد المؤلف البيت الأول من هذه القصيدة فقط، وترك ما بعده بياضا في الأصل. وقد عمّرنا الفراغ من ديوان حمدون: 181-184.

3) وَمـا يُعـانِقُ ذابِلٌ بِقـامَـتِـهـا ... حَـتّى يُعـانِقَ قـامـاتِ القَنا الذُّبُلِ

4) وَدونَ قَطْفِكَ مِنْ وِرْدٍ بِوَجْنَتِـهـا ... شَوكٌ مِنَ الصُّدْغِ، فَذي حَمَّةُ الأَجَلِ

5) وَدونَ رَشْفِكَ مِنْ شَهْدٍ بِمَبْسَمِها ... رَشْقُ الفُؤادِ بِوَخْزِ الأَعْيُنِ النُّجُلِ

6) فَانْهَضْ لِخِطْبَتِها بِهِمَّةٍ سَبَقَتْ ... مُجِدَّةٍ غَيْرِ نَهْضِ الشّارِبِ الثَّمِلِ

7) وَلا تَمْلِكْ ظِلالَ راحَةٍ عَرَضَتْ ... فَلَيْسَ يَرْتاحُ جانٍ زَهْرَةَ الأَمَلِ

8) هَيْهاتَ، لا أَمَلٌ إلاّ وَأَحْرُفُهُ ... تُصاغُ مِنْ أَلَمٍ، واللَّسْعُ في العَسَلِ

9) فَاصْبِرْ عَلى عَضٍّ أَعْداءٍ بُليتَ بِهِمْ ... فَذُو المَفاخِرِ قِدْمًا بِالكِلابِ بُلي

10) لَمْ يَنْجُ مِنْ وَخْزِ أَلْسُنِ العَقارِبِ مِنْ ... أَقارِبٍ، كَيْفَ حالُ الأَبْعَدِ السَّفِلِ

11) ولا تَأْسَفْ على مَيْلِ الزَّمانِ إلى ... وَغْدٍ، فَمِنْ طَبْعِهِ مَيْلٌ لِذي مَيَلِ

12) وَلا عَلى عَدَمِ الإِنْصافِ مِنْ رَجُلٍ ... فَلَسْتَ تَنْشُرُ مَيْتَ الأَعْصُرِ الأُوَلِ

13) إن كُنْتَ تَأْسى مِنَ الحُسّادِ إن شَمَتُوا ... فَأَيُّ يومٍ تَكونُ فيهِ ذا جَذَلِ؟!

14) وَغُضَّ عَنْ عَثَراتِ مَنْ تُخالُّهُ ... فَما خَليلٌ تَخَلّى اليَوْمَ عَنْ خَلَلِ

15) سَأَلْتُ دُنْيايَ خِلاًّ لا أَغَصُّ بِهِ ... قالَتْ: سَأَلْتَ الَّذي مِنْهُ الزَّمانُ خَلي

16) فَإِن تَكُنْ مِنْ أُناسٍ طابَ خيمُهُمُ ... فَاصْبِرْ لَهُ، واشْدُدِ المَرْموقَ بِالحُلَلِ

17) أَوْ عِشْ بِظِلٍّ انْفِرادٍ، تَسْتَرِحْ وتُرِحْ ... وتَبْتَهِجْ يَوْمَ يَأْتي اللَّهُ في ظُلَلِ

18) وَامْسِكْ لِحاظَكَ، لا تُرْسِلْ أَعِنَّتَها ... فَما زِنادُ الهَوى إلاّ مِنَ المُقَلِ

19) وَاشْكُلْ لِسانَك، لا تَلْدَغَنْكَ صَمْتَةٌ ... فالصَّمْتُ أَنْفَعُ في كَثيرٍ مِنْ رُسُلِ[601]

20) وَحَلِّ بِالصِّدْقِ جيدَ ما نَطَقْتَ بِهِ ... يَزِنْكَ صِدْقُكَ زَيْنَ الطَّرْفِ بِالمُقَلِ

21) وَإِن تَشَأْ راحَةً ما شانَها نَصَبٌ ... فاعْمَدْ لِما أَنْتَ عَنْهُ الدَّهْرَ في شُغُلِ

22) افْتَحْ عُيونَك في عُيوبِ نَفْسِكَ ذا ... جِدٍّ، وَديباجَةُ الشَّبابِ لَمْ تَحُلِ

23) وَداوِ قَلْبَكَ مِنْ ضَنًى أَضَرَّ بِهِ ... فَمُعْضِلُ الداءِ ما في القَلْبِ مِنْ عِلَلِ

[601]- البيت مضطرب الوزن.

24) لا تُبْدِ يا رَجُلُ العِلاَّتِ مُعْتَذِراً | فَلَيْسَ تَعْجِزُ خَرْقًا عَنِ العِلَلِ[602]
25) وَجِدَّ سَيْراً، وإن أعْيَى البَعيرُ فَزِدْ | نَوْطًا على حَمْلِه، يَزِدْكَ مِنْ رَمَلِ
26) لا عِطْرَ بَعْدَ عَروسٍ. بِالشُّبيبَةِ طِبْ | واعْمَلْ، فَعُمرُكَ في النُّقصانِ ذا عَمَلِ[603]
27) وابْغِ الخُمولَ، تَرُقْ لَكَ الخَمائلُ مِنْ | مُناكَ، لَيْسَ لها في الرَّوْضِ مِنْ مَثَلِ
28) وفي مَوارِجِ خَفْضِ الجانبِ ارْتَقِ عَنْ | مَعارِجِ الرَّفْعِ، فَهْيَ أَوْثَقُ الوَصَلِ
29) أما تَرى الغَيْثَ مُنْصَبًّا إلى صَبَبٍ | يَسْقي مَنابِتَهُ مِنْ قُنَّةِ الجَبَلِ
30) وَاجْرُرْ عَلى رافِعٍ أنْفًا ذُيولَكَ ذا | تيهٍ، كَأَنَّكَ عِزاً مِنْ فُروعِ عَلي
31) ودَعْهُ يَنْشَلُ مِنْ عُجْبٍ ومِنْ غَلَطٍ | لي أُسْوَةٌ بانحطاطِ الشَّمْسِ عَنْ زُحَلِ[604]
32) وَلا تَكُنْ حاسِداً أخاكَ، إنْ خَضَلَتْ | رِياضُ أنعُمِهِ، وابتَلَّ بِالبَلَلِ
33) وَسَلْ إلاهَكَ ما تَشاءُ تَحْظَ بِهِ | مِنْ غَيْرِ مَنٍّ، وَغَيْرَ اللَّهِ لا تَسَلِ
34) وَحَيْثُ لم يَكُ بُدٌّ مِنْ سُؤالِكَ صُنْ | ديباجَةَ الوَجْهِ عَنْ إبْلاءِ مُبْتَذَلِ
35) إنَّ البَخيلَ، إذا أتَيْتَ تَسْأَلُهُ | يَراكَ أثْقَلَ في عَيْنَيْهِ مِنْ جَبَلِ
36) وَلا تَشِحَّ، وَجُدْ ولَو بِطَلٍّ يَدٍ | إنْ لم يُصَبْ مِنْكَ وَبْلُ الصَّيِّبِ الهَطِلِ
37) وَالحُرُّ لَمْ يَتَغَيَّرْ ثَرْوَةً وغِنَى | «والشَّمْسُ رأْدَ الضُّحَى كَالشَّمْسِ في

الطَّفَلِ[605]

38) وَالفَقْرُ أَفْضَلُ حُلاَّتٍ كَساكَ بِها | رَبٌّ لَطيفٌ خَبيرٌ، جَلَّ عَنْ بَخَلِ
39) وَفي الزَّهادةِ راحَةٌ وَمَزْرَعَةٌ | لِحُبِّ رَبٍّ، وَما لِلرَّبِّ مِنْ بَدَلِ
40) إيَّاكَ وَالطَّعْمَ مِنْ حَبٍّ فَطاعِمُهُ | عَديمُ رُشْدٍ، وَلا يَزالُ في وَحَلِ
41) الزَّرْعُ كَالبَذْرِ ما بَدَوْتَ تَحْصُدُهُ | وَلَم يَطِبْ غَيْرُ نَدْبٍ طَيِّبِ الأُكُلِ
42) بِهِ اجْتَنَى ثَمَراتٍ مِنْ سَوابِقِهِ | بَواسِقَ ذاتَ طَعْمٍ غَيْرِ مُنْبَتِلِ

602- الشطر ساقط الوزن.

603- لعل الصواب. ذو عمل.

604- الشطر مضمن من لامية الطغرائي.

605- الشطر مقتبس من لامية الطغرائي.

43) تَخالُهُ بَيْضَةَ الأنُوقِ، أصْعَبَ مِنْ	مَناطِ عَيُّوقٍ، والمُحالُ لَمْ يُنَلِ
44) ولَيْسَ ذاكَ كَذاكَ مَنْ يَعفُ يَصِلْ	لَهُ فَجَرِّبْ، ولا تَعُدْ إلى حَوَلِ
45) ياذا مُقارَعَةٍ عَلى الوُصولِ لَهُ	بِلا مُسارَعَةٍ لِلمُقْتَضى الجَلَلِ
46) لا تَخْدَعَنَّكَ ذي الدُّنيا بِزَهْرَتِها	فَإنَّها ذاتُ شَوْكٍ موهِنِ البَطَلِ
47) سُرورُها بالشُّرورِ شيبَ، تَقْطَعُ عَنْ	رَبٍّ، وَعَنْ ضَرَّةٍ أُخْرى ولَمْ تَطُلِ
48) نَصَحْتُ غَيْري، وابْني غَيْرُ مُنْتَصِحٍ	وَرُبَّ ناصِحِ جَيْبٍ، جَدَّ في عَذَلي
49) يا عاطِلَ الجيدِ إلاّ مِنْ قَبائِحِهِ	مُقَلَّداً جيدَ قافٍ، قَولُهُ بَخَلي:
50) ظَلَمْتَ نَفْسَكَ ظُلْمَ الخَيْفَقانِ تَرى	نوراً، وَأَنْتَ بِذاكَ النّورِ في شُغُلِ
51) يا ذا مُجالَسَةٍ لِلعِلْمِ تَنْشُرُهُ	بِلا مُجانَسَةٍ لِلقَولِ والعَمَلِ
52) هَلْ نَوْطُ حِلْيَتِهِ إلاّ بِلَبَّةِ مَنْ	في طاعَةِ اللهِ، لَجَّ غَيْرَ ذي ثِقَلِ؟!
53) قَدْ طالَ سالِفُ لَيْلٍ بِتُّ أظفُرُهُ	بِخَيْطِ شَجْوي، لِما قَدَّمْتُ مِنْ زَلَلِ
54) لكِنَّ مَنْ بَدَأَ الوَرى بِنِعْمَتِهِ	أَرْجوهُ يَعْفو بِجاهِ خاتِمِ الرُّسُلِ
55) صَلّى عَلَيْهِ إلاهُهُ وَسَلَّمَ ما	حَلَّتْ بِساحَتِهِ نَجائِبُ الأمَلِ]

ومن هذا المعنى والبحر والرّويّ، قصيدة الطُغرائي[606] الشّهيرة الذّكر:

[لاميّة الطُّغرائي][607]

[البسيط]

1) أصالةُ الرّأيِ صانَتْني عَنِ الخَطَلِ	وحِلْيَةُ الفَضْلِ زانَتْني لَدى العَطَلِ
2) مَجْدي أخيراً ومَجْدي أوّلاً شَرَعٌ	والشَّمْسُ رأْدَ الضُّحَى، كَالشَّمْسِ في الطَّفَلِ
3) فيمَ الإقامةُ بِالزَّوراءِ لا سَكَني	بِها، ولا ناقَتي فيها ولا جَمَلي

[606]- فخر الكتاب، أبو إسماعيل، الحسين بن علي (ت 513 أو 514 هـ). ترجمته في الوفيات: 2/185-190. رقم 197.

[607]- القصيدة في ديوانه: 301-309، وعليها قابلنا النص.

4) ناءٍ عنِ الأهْلِ، صِفْرُ الكَفِّ مُنْفَرِدٌ ... كَالنَّصْلِ[608] عُرِّيَ مَتْناهُ عَنِ[609] الخَلَلِ

5) فَلا صَديقٌ إلَيْهِ مُشْتَكى حَزَني ... وَلا أنيسٌ إلَيْهِ مُنتَهى جَذَلي

6) طالَ اغْتِرابي حَتَّى حَنَّ راحِلَتي ... وَرَحْلُها، وقَرى العَسَّالَةِ الذُّبُلِ

7) وَضَجَّ مِنْ لَغَبٍ نِضْوي، وَعَجَّ لِما ... ألقى[610] رِكابي، وَلَجَّ الرَّكْبُ في عذَلي

8) أُريدُ بَسْطَةَ كَفٍّ أستَعينُ بِها ... على قَضاءِ حُقوقٍ لِلعُلى قِبَلي

9) والدَّهْرُ يَعْكِسُ آمالي ويُقْنِعُني ... مِنَ الغَنيمَةِ بَعْدَ الكَدِّ بالقَفَلِ

10) وَذي شَطاطٍ كَصَدْرِ الرُّمْحِ مُعْتَقَلٍ ... بِمِثْلِهِ غَيْرِ هَيَّابٍ وَلا وَجِلِ

11) حُلْوُ الفُكاهَةِ، مُرُّ الجِدِّ قَدْ مُزِجَتْ ... بِشِدَّةٍ[611] البَأسِ مِنْهُ[612] رِقَّةُ الغَزَلِ

12) طَرَدْتَ سَرْحَ الكَرَى عَنْ وِرْدِ مُقْلَتِهِ ... واللَّيْلُ أغْرى سَوامَ النَّوْمِ بالمُقَلِ

13) والرَّكْبُ ميلٌ عَنِ الأكوارِ، مِنْ طَرَبٍ ... صاحٍ، وآخَرُ مِنْ خَمْرِ الكَرى ثَمِلِ

14) أقْبَلْتُ[613] أدعوكَ لِلجُلّى لِتَنْصُرَني ... وَأَنْتَ تَخْذُلُني في الحادِثِ الجَلَلِ

15) تنَامُ عَيْني، وَعَيْنُ النَّجْمِ ساهِرَةٌ ... وتَسْتَحِيلُ وَصِبْغُ اللَّيْلِ لَمْ يَحُلِ

16) فَهَلْ تُعينُ عَلى غَيٍّ هَمَمْتُ بِهِ ... وَالغَيُّ يَزْجُرُ أحْياناً عَنِ الفَشَلِ

17) إنّي أُريدُ طُروقَ الحَيِّ مِنْ إضَمٍ ... وَقَدْ حَماهُ رُماةٌ مِنْ بَني ثُعَلِ

18) يَحْمونَ بِالبيضِ وَالسُّمْرِ اللِّدانِ بِهِ ... سودَ الغَدائِرِ، حُمْرَ الحَلْيِ والحُلَلِ

19) فَسِرْ بِنا في ذِمامِ اللَّيْلِ مُعْتَسِفاً[614] ... فَنَفْحَةُ[615] الطِّيبِ تَهْدينا إلى الحُلَلِ

20) فَالحُبُّ حَيْثُ العِدى، وَالأُسْدُ رابِضَةٌ ... حَوْلَ الكِناسِ لَها غابٌ مِنَ الأسَلِ

---

[608]- ديوانه: 302: كالسيف.

[609]- ديوانه: 302: من.

[610]- ديوانه: 302: يلقى.

[611]- ديوانه: 303: بقسوة.

[612]- ديوانه: 303: فيه.

[613]- ديوانه: 303: فقلت.

[614]- ديوانه: 304: مهتديا.

[615]- ديوانه: 304: بنفحة.

21) نَوُمٌ ناشِئَةَ الجِزْعِ قَدْ سُقِيَتْ   نِصالُها بِمِياهِ الغَنْجِ والكَحَلِ
22) قَدْ زادَ طيبُ أحاديثِ الكِرامِ بِها   ما بِالكَرائِمِ مِنْ جُبْنٍ ومِنْ بَخَلِ
23) تَبيتُ نارُ الهَوى مِنْهُنَّ في كَبَدٍ   حَرَّى، وَنارُ القِرى مِنهُمْ عَلى القُلَلِ
24) يَقْتُلْنَ أنْضاءَ حبٍّ لا حَراكَ بِهِ   وَيَنْحَرونَ كِرامَ الخَيْلِ والإبِلِ .
25) يَشْفي لَديغَ العَوالي[616] في بُيوتِهِم   بِنَهْلَةٍ مِنْ غَديرِ الخَمْرِ والعَسَلِ
26) لَعَلَّ إلمامَةً بِالجِزْعِ ثانِيَةً   يَدِبُّ مِنْها نَسيمُ البَرْءِ في عِلَلِ
27) أكرَهُ الطَّعْنَةَ النَّجْلاءَ قَدْ شُفِعَتْ   بِرَشْقَةٍ مِنْ نِبالِ الأعْيُنِ النُّجُلِ
28) وَلا أعافُ الصِّفاحَ البيضَ تُسْعِدُني   بِاللَّمْحِ مِنْ خَلَلِ الأسْتارِ وَالكِلَلِ[617]
29) وَلا أُخِلُّ بِغِزْلانٍ تُغازِلُني[618] ،   وَلَوْ دَهَتْني أُسودُ الغيلِ بِالغِيَلِ
30) حُبُّ السَّلامَةِ يَثْني هَمَّ صاحِبِهِ   عَنِ المَعالي، ويُغْري المَرْءَ بِالكَسَلِ
31) فَإن جنَحْتَ إلَيْهِ، فَاتَّخِذْ نَفَقًا   في الأرْضِ، أو سُلَّمًا في الجَوِّ فَاعْتَزِلِ
32) ودَعْ غِمارَ العُلى لِلْمُقدِمينَ عَلى   رُكوبِها، واقْتَنِعْ مِنْهُنَّ بِالبَلَلِ
33) رِضى الذَّليلِ بخَفْضِ العَيْشِ مَسْكَنَةٌ[619]   والعِزُّ عِندَ رَسيمِ الأيْنُقِ الذُّلُلِ
34) فَادْرأْ بِها في نُحورِ البيدِ جافِلَةً   مُعارِضاتٍ مَثانِيَ اللُّجْمِ بِالجُدُلِ
35) إنَّ العُلى حَدَّثَتْني، وهْيَ صادِقَةٌ   فيما تُحَدِّثُ أنَّ العِزَّ في النُّقَلِ
36) لوْ أنَّ في شَرَفِ المَأوى بُلوغَ مُنى   لَمْ تَبْرَحِ الشَّمْسُ يومًا دارَةَ الحَمَلِ
37) أهَبْتُ بِالحَظِّ، لوْ نادَيْتُ مُسْتَمِعًا   وَالحَظُّ عَنِّي بِالجُهّالِ في شُغُلِ
38) لَعَلَّهُ إنْ بَدا فَضْلي وَنَقْصُهُمُ   لِعَيْنِهِ نامَ عَنْهُمْ، أو تَنَبَّهَ لي
39) أُعَلِّلُ النَّفْسَ بِالآمالِ أرْقُبُها   ما أضْيَقَ العَيْشَ، لَولا فُسْحَةُ الأمَلِ!
40) لَمْ أرْتَضِ العَيْشَ، وَالأيامُ مُقْبِلَةٌ   فَكَيْفَ أرضى، وقَدْ وَلَّتْ عَلى عَجَلِ!

[616]- ديوانه: 304: الغواني.

[617]- ديوانه: 305: ولا أهاب صِفَاح البيضِ تُسْعِدُني*** بِاللَّمحِ مِنْ صَفَحاتِ البيضِ في الكِلَلِ.

[618]- ديوانه: 305: أغازلها.

[619]- ديوانه: 305: يخفضه.

41) غالَى بِنَفْسي عِرْفاني بِقيمَتِها فَصُنْتُها عَنْ رَخيصِ القَدْرِ مُبتَذَلِ
42) وعادَةُ النَّصْلِ أن يَزْهى بِجَوْهَرِهِ وَلَيْسَ يَعْمَلُ إلاّ في يَدَيْ بَطَلِ
43) ما كُنْتُ أوثِرُ أن يَمْتَدَّ بي زَمَني حَتّى أرى دَوْلَةَ الأوْغادِ وَالسَّفَلِ
44) تَقَدَّمَتْني أُناسٌ كانَ شَوْطُهُمُ وَراءَ خَطْوي، لَوْ[620] أَمْشي عَلى مَهَلِ
45) هَذا جَزاءُ امْرِئٍ أقرانُهُ دَرَجوا مِنْ قَبْلِه، فَتَمَنَّى فُسْحَةَ الأمَلِ
46) وَإن عَلاني مَنْ دوني، فَلا عَجَبٌ لي أُسْوَةٌ بِانحطاطِ الشَّمْسِ عَنْ زُحَلِ
47) اِصْبِرْ لَها غَيْرَ مُحْتالٍ ولا ضَجِرٍ في حادثِ الدَّهْرِ ما يُغْني عَنِ الحِيَلِ
48) أعدَى عَدُوِّكَ، أدنى مَنْ وثِقْتَ بِهِ فَحاذِرِ النَّاسَ، واصْحَبْهُمْ عَلى دَخَلِ
49) فَإنَّما رَجُلُ الدُّنيا وَواحِدُها مَنْ لا يُعَوِّلُ في الدُّنيا عَلى رَجُلِ
50) وحُسْنُ ظَنِّكَ بالأيَّامِ مَعْجَزَةٌ فظُنَّ شراً، وكُنْ منها على وجَلِ
51) غاضَ الوَفاءُ، وَفاضَ الغَدْرُ وانْفَرَجَتْ مَسافَةُ الخُلْفِ بَيْنَ القَوْلِ وَالعَمَلِ
52) وَشانَ صِدْقَكَ عِندَ النّاسِ كَذْبُهُمُ وهَلْ يُطابَقُ مُعْوَجٌّ بِمُعْتَدِلِ؟!
53) إن كانَ يَنْجَعُ شَيْءٌ في ثَباتِهِمُ عَلى العُهودِ، فَسَبْقُ السَّيْفِ للعَذَلِ
54) يا وارِداً سُؤْرَ عَيْشٍ كُلُّهُ كَدَرٌ أنْفَقْتَ صَفْوَكَ[621] في أيّامِكَ الأُوَلِ
55) فيمَ اقْتِحامُكَ[622] لُجَّ البَحْرِ تَرْكَبُهُ وَأَنْتَ يَكْفيكَ مِنْهُ مَصَّةُ الوَشَلِ!!
56) مُلْكُ القناعَةِ لا يُخْشى عَلَيْه ولا يُحْتاجُ فيهِ إلى الأنْصارِ وَالخَوَلِ
57) تَرْجو البَقاءَ بِدارٍ لا ثَباتَ لَها فَهَلْ سَمِعْتَ بِظِلٍّ غَيْرِ مُنْتَقِلِ!!
58) وَيا خَبيراً على الأسرار مُطَّلِعًا أُصمُتْ، فَفي الصَّمْتِ مَنْجاةٌ مِنَ الزَّلَلِ[623]
59) قَدْ رشَّحوكَ لأمْرٍ، إن فطِنْتَ لَهُ فَارْبَأْ بِنَفْسِكَ أن تَرْعى مَعَ الهَمَلِ

620– ديوانه: 307: إذ.

621– ديوانه: 308: عمرك.

622– ديوانه: 308: اعتراضك.

623– هنا انتهى مخطوط خاء.

رَوْضَةُ النَّيْلوفَرَ

في ثَنَاءِ النّاسِ عَلَيْهِ وَبَعْضِ مَنَاقِبِهِ

الَّتي هِيَ أَعْطَرُ مِنَ الـمِسْكِ الأَذْفَـرَ

رَوْضَةُ النَّيْلوفَر،

في ثَنَاءِ النّاسِ عَلَيْهِ وبَعْضِ مَناقبِهِ الَّتي هِيَ أَعْطَرُ مِنَ الـمِسْكِ الأذْفَر،

وبعض ماقيل فيه من المقطّعات الشّعريّة، الـمُنبئة عن محاسنه. أوردتُها آخر الكتاب، لتكون مسكة ختاميّة، ويكمل فيها ما يُستملح من الكلام نثرِهِ ونظامِه، ويظفر الـمُحِبّ بمرامه، ويشفيَ غليل لوعته وغرامه.

قد طالما خاطبته ببليغ أشعارها الشعراء، فيما عرض لهم أو لغيرهم من الأغراض وعرا، فيرتاح إلى الإنشاد، ويُجيب مسرعا إلى الـمُراد.

[مخاطبات سليمان الحوّات وحمدون ابن الحاجّ]

فمن ذالك قول ذي الأدب الُمحّلي للآذان والأذهان، الآخذ عند التّسابق في ميدان البراعة الرّهان، السّاري كلامه في الأنباء، مسرى كؤوس الصّهباء، الذي لم يأت الدهر بمثله ولا هو آت، العلاّمة الشّريفة، أبي الربيع، مولانا سُليمان الحَوّات:

[البسيط]

1) «إذا عَـرَتْكَ مِنَ الأيّامِ نائِبَـةٌ[624] ... فَلا يُخَلِّصُ مِنْها غَيْرُ حَمْدونِ

2) خُذي رِبْحَنا بِتَجْرٍ مِنْ مَوَدَّتِهِ[625] ... في صَفْقَةٍ لم تَكُنْ فيها بِمَغْبونِ

3) إنْ مَنَّ ذو الْوُدِّ يَوْماً حَبْلَ وَصْلَتِهِ ... فَحَبْلُهُ أَبَداً لَيْسَ بِمَمْنونِ

4) عَلى سَجِيَّتِهِ مِنَ التَّحِيَّةِ ما ... يَقومُ مِنْ حَقِّهِ عَنّي بِمَسْنونِ

الطبع يحنُّ إلى الطّبع، والنّفس تميل إلى حيث النّفع، والطّير لا يقصد إلا الُملْتَقَط، وبَدَل الاِشتمال ليس كبدل الغَلَط[626]:

---

[624]- المقطوعة في: ديوان حمدون: 283. الإشراف: 116.

[625]- الشطر مكسور التفعيلة الأولى والمعنى، وهو كذا بالأصل.

[626]- البيت في: رماح حزب الرّحيم: 2/88.

[البسيط]

1) والنَّاسُ أكْيَسُ من أن يَمْدَحوا رَجُلاً   ما لَمْ[627] يَرَوا عِنْدَهُ آثارَ إحْسانِ

على أن الظّنّ بك في كلّ شيء جميل، والله على ما نقول وكيل». فأجابه الشّيخ أبو الفيض بقوله[628]:

[البسيط]

1) «أبا الرَّبيعِ سُلَيْمانُ أُتَيْتَ بِما   لَمْ يَأْتِ يَوْماً بِمِثْلِهِ ابْنُ عَبْدونِ

2) رِسالَةٌ نَبَّأَتْ بِصَفْوِ [وُدِّكَ][629] لي   ما شابَهَتْها رِسالَةُ ابْنِ زَيْدونِ

3) شَيْطانُ فِكْرِكَ غَوّاصٌ عَلى دُرَرٍ   أَقَرَّ بِالْعَجْزِ عَنْها فِكْرُ حَمْدونِ

4) لازِلْتَ مُفْتَرِشَ الْجَوْزاءِ مُرْتَفِعاً[630]   وَمَنْ يُعاديكَ في الْمَنازِلِ الدّونِ

سَيِّدي: أتاني كتابُك، فسرَّني خطابُك، فقلت: «هاؤُمُ اقْرَأُوا كِتابِيَهْ، إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ[631]» وها أنا من تحيَّتك الصّافية، «في عيشَةٍ راضِيَةٍ»[632] ومن كلماتك الغالية، «في جَنَّةٍ عالِيَةٍ، قُطوفُها دانِيَةٌ»[633] «أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَريمٌ، إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ، وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمانِ الرَّحيمِ»[634] كيت وكيت، فامتثلتُ ولبَّيتُ، مُجيباً إلى المنثور والمُدْرَج، المُصرَّحِ به والمُدْمَج».

فكتب إليه مُوَرِّياً قوله[635]:

[الطويل]

1) أُخَيَّ اجْتَهِدْ في حُكْمِ ما كانَ مُدْرَجاً   فَإِنَّكَ في اسْتِنْباطِهِ كامِلُ الْوَصْفِ

627- رماح حزب الرّحيم: 2/88: حتى.

628- القطعة في ديوانه: 283. الإشراف: 116.

629- الكلمة ساقطة من الأصل، عوضناها من ديوان حمدون: 283.

630- الإشراف: 116: معتليا.

631- سورة الحاقة: 19-20.

632- سورة الحاقة: 21.

633- سورة الحاقة: 22-23.

634- سورة النمل: 29-30.

635- البيتان في ديوان حمدون: 311.

2) وعِنْدَ تَعـــــارُضِ الأدلَّـةِ تـارَةً يَقولُ الّذي يَبْغي السَّلامَةَ بِالوَقْفِ

وقولَه:

[الطويل]

1) أُحِـبُّكَ يا حَـمْـدُون وفَوْقَ مَكانَةٍ تَحُلُ مِنْ الجَـوْزاءِ عِـقْـدَ نِطاقِ

2) وَأَخْفي الّذي فَهِمْتُ عَنْ دَهْرٍ حاسِدٍ بِتَـوْرِيَةٍ سِـيقَتْ بِحُسْنِ سِـيـاقِ

فقضى الشيخ أبو الفيض وطره من السُّلطان، وكتب إليه مُوَرِّيا[636]:

[الطويل]

1) سَـمِـيُّكَ مـولانا سُلَيْـمـانُ قـائِلٌ بِما اخْتَرْتَهُ، تَبْغي السَّلامَةَ مِنْ وَقْفِ

2) ومـا لَكُمـا صَرْفٌ عَنِ المُبْتَـغى وفي سُلَيْمـانَ فَـضْلٌ مـانِعٌ لهُ مِنْ صَـرْفِ

وقوله[637]:

[الطويل]

1) سَـمِـيُّكَ مـولانا سُلَيْـمـانُ حـاكِمٌ بِمـا قُلْتَ مِنْ وَقْفٍ، ومـالَهُ مِنْ وَقْفِ

2) ولا صَـرْفَ لي في نَحْوِهِ إن سَأَلْتَـهُ لِعِلْمِـهِ أنَّ حَـمْدونَ يُمْنَعُ مِنْ صَـرْفِ

ومن ذالك قول أبي الربيع، سيّدي سليمان الحوات أيضا[638]:

[الخفيف]

1) أنا إنْ مـا ضَلَلْتُ فـالشِّـعْـرُ هادِ لِـذُراكُـمْ لا طـارِفـي وتِـلادي

2) أَطْلَعَتْ لي أنْوارُهُ البَـدْرَ يَهْـدي[639] كُلَّ مَنْ ضَلَّ عَنْ سَـبِـيلِ الرَّشـادِ

3) فـاجْـتَلَيْتُ بِنُورِهِ مِنْهُ بَحْـراً مَـوْجُـهُ العِلْمُ والعُـبـابُ الأيادي

[636]- البيتان في ديوانه: 311.

[637]- البيتان في ديوانه: 311.

[638]- القصيدة في ديوان حمدون: 103-104.

[639]- سقطت بعده 4 أبيات موجودة في ديوان حمدون: 103-104.

4) يا مَنارَ الْهُـــدى وأيَّ مَنارٍ!! غَوْثَ ذي أزْمةٍ وغَيْثَ الصَّوادي[640]

5) بِيَدَيْكُمْ أمْرُ الأميرِ ومِنْكُمُ اقْـ تَبَسَتْ ضَوْءَهُ جَميعُ العِبادِ

6) وَمُقَلِّدِ جيدِكَ الدُّرَّ شِعْراً شامَ عِنْدَكَ بارِقاً مِنْ مُرادِ

7) فَأناخَ الرِّكابَ يَرْجو اقْتِباساً مِنْ سِراجِ اعْتِنائِكَ الْوَقّادِ

8) فإذا ما قابَلْتَهُ بِقَبولٍ اتَّخَذْتُ الشِّعْرى الْعَبورَ وِسادي

9) وإذا ما لِلْبَحْرِ أهْدَيْتُ دُرّاً فَالكَريمُ يَرْتاحُ لِلإنْشادِ

10) وَعَلَيْكَ السَّلامُ مادُمْتَ تَسْمو في سَماءِ الْعُلى عَلى الأطْوادِ

1) سَيِّدي حَمْدونُ لِلّهِ أقْلِعْ[641] عَمَّا يُداخِلُكَ في شَأْني مِنَ الإعْراضِ

2) وأصْغِ إلى فَصْلِ خِطابي فيما تُقَرْطِسُهُ مِنَ الأغْراضِ

واعرف قدر ما رسمتُه لك معرفة الشاكرين، ليكون سعدك كالشَّجى في حلق الحاسدين، ولا تغضَّ ممن لم يجنح لك قبل الانتصاب بعامل الوزارة، إذ من الضّروريّ أن الطَّير لا تقع إلا بحيث تبدو لها على الملتَقَط الأمارة، على أن آثار المحبَّة إنما تظهر[642] لغرض، والحُرّ لا تقول عند ظهوره عرض، لا سيما من مثلي ذي النفس الأبيّة، فإنها لا تحمل على التّصنُّع في أفعالها البادية، ولا عبرة بالأقوال عند عقلاء الرجال، لكن «أعوذُ بِربِّ النّاسِ[643] مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الخَنّاسِ»[644]. هذا، والكلام يطول، وأنت، كما أظنُّ، ملول، وغاية المسؤول من سليمان بهذا الكتاب الكريم، أن بعثني بحامله الشريف مولاي عبد الكريم، فلِلّه اقضِ في حقِّه ما أنت قاضٍ، حتّى يرجع عن زكِيّ خيرَ راضٍ. والسَّلام».

640- في الأصل: البدوي. والتصويب من ديوانه: 103.

641- البيتان ساقطا الوزن. وفوقهما في الأصل خطان طويلان، يشبهان علامة الإلغاء. ولعلّهما نثر لا شعر.

642- في الأصل: يظهر.

643- سورة الناس: 1.

644- سورة الناس: 4.

فأجابه الشَّيخ أبو الفيض حمدون، رحمه الله، بقوله بعد أن قضى وَطَرَه[645]:

[الخفيف]

1) لَكَ ذِكْـرٌ يَفـوحُ في الأمْـجـادِ ... طائِرٌ في الأغْـوارِ والأنْجـادِ
2) وبِهِ رَنَّتِ الْحَـمـامُ وَغَنَّى ... مَـعْـبَـدُ والْغَـريضُ في كُلِّ نادِ
3) لَكَ أَشْـعـارٌ، لَوْ أصاخَ لَهـا النُّعْـ ... ـمـانُ لَمْ يَلْتَـفِتْ لِشِـعْـرِ زِيادِ
4) أو أَصاخَتْ خَوْدٌ لَها افْتَقَدَتْ ما ... عَلَّقَـتْـهُ مِنْ قَـبْلُ في الأجْـيـادِ
5) طَلْعَةَ الْفَجْرِ، نُخْبَةَ الْعَصْرِ، مَوْلا ... نا سُلَيْـمـانُ، شـامِخَ الأطْوادِ
6) قَـدْ أتاني مِنْكُمْ كِـتـابٌ كَـريمٌ ... طَرْسُ كـافـورِ نَقْـشِـهِ مِنْ زَبادِ
7) طَيُّـهُ فـائِحٌ بِهِ النَّشْـرُ عُنْوا ... نُهُ حـادٍ لِمـا حَـوى مِنْ مُـرادِ
8) كِـدْتُ مِنْ تَقْـبيلي لَهُ قَـبْلَ أن أقْـ ... ـراهُ أمْـحـو مـا بِهِ مِنْ سَـوادِ[646]
9) وَعَطَسْتُ مِنْ أنْفِ[647] عِـزٌّ ومَـجْـدٍ ... بِالَّذي ضـاعَ مِنْ شَـذاهُ الْهـادي
10) وَعَلَيْكَ السَّـلامُ مـا رَنَّ شـادٍ ... يا بَديعَ الإنْشـاءِ والإنْشـادِ

ومن ذالك قولُ أبي الربيع أيضا:

[الطويل]

1) أَحَـمْـدونُ: إنَّ اللّهَ أَوْلاكَ رُتْبَـةً ... مِنَ الْمَلِكِ الْمَنْصورِ تَسْتَسْهِلُ الصَّعْبا
2) وأنْتَ لَهـا أهْلٌ وإلاّ فَـمَنْ لَهـا؟! ... تَبَـوَّأْ بِهـا مِنَ الْعُلى مَنْزِلاً رَحْـبـا
3) وَهذا الْمُـفَـضَّلُ الَّذي أنْتَ عـارِفٌ ... فَلِلّهِ كُنْ مِنْ حـالِهِ خَـيْـرَ مَنْ أنْبـا
4) وَدونَكَ فَـاسْـتَـمْطِرْ لِمَـحْلِ رَبْعِـهِ ... إمـامـاً يَرُدُّ جَـدْبَهُ كُلَّهُ خِـصْـبـاً
5) وَمَنْ أَوْصَلَ الْمَعْروفَ مِنْ مُسْتَحِقِّهِ ... يَنالُ مِنَ اللّهِ الْمَـثـوبَةَ والْقُـرْبى
6) وَحَسْـبُكَ في هذا اغْـتِنامُ الَّذي تَرى ... مِنَ اللّهِ في: «إلاّ الْمَوَدَّةَ في الْقُرْبى»[648]

[645]- القصيدة في: ديوانه: 104-105.

[646]- ديوانه: 105: مداد.

[647]- ديوانه: 105: بأنف.

[648]- سورة الشورى: 23.

7) عَليكَ سَلامٌ مِنْ سُلَيمانَ ما جَرى حَديثُكَ في خِطابِكَ سَلْسَلاً عَذْبا »[649]

[بيتان للطيب ابن كيران]

ومن ذالك قول خاتمة المحقّقين، سيّدي الطّيّب ابن كيران، وقد حصلت بينهما نُفرة:

[الطويل]

1) فَلا تَطْرُدُوا صَبّاً كَئِيباً أَتاكُمُ ولا تَهْجُروا، ما الْهَجْرُ إِلاّ مَنونُ

2) ولا تَعْجَلوا بِالْقَتْلِ قَبْلَ وِصالِكُمْ فَقَتْلُ الفَتى عِندَ اللّقاءِ يَكونُ

[رائية محمد بن عامر التّادلاوي]

ومن ذالك قول العلامة الإخباري المطالع، الحافظ الحجّة، أبي عبد الله، محمد بن محمد بن محمد بن عامر التّادلاوي:

[البسيط]

1) صَدْرَ الصُّدورِ ونَجْلَ الحاجِ سَيِّدَنا حَمْدونُ مَنْ بِالمعالي ظَلَّ مُؤْتَزِرا

2) وَمَنْ بِهِ افْتَخَرَتْ فاسٌ وَفيها بَدا كَالشَّمْسِ في الأُفْقِ مِنها النُّورُ قَدْ بَهَرا

3) تَكَرَّرَ الخَطْوُ مِنّا لِزِيارَتِكُمْ فَلَمْ تَقْدِرْ، وذا عُذْرٌ لَها ظَهَرا

4) لَكُمْ عَلَيْنا حُقوقٌ لَيْسَ يَجْحَدُها مَنِ ارْتَدى بِرِداءِ الْفَخْرِ واتَّزَرا

5) فَاللَّهُ يُبْقيكُمْ لِكُلِّ مَكْرُمَةٍ فَالدَّهْرُ مِنْ طَرَبٍ بِكُم قَدِ افْتَخَرا

ومن ذالك قول بعض الأدباء:

[نونيّة غُفل]

[الوافر]

1) أَلا فَدَعِ التَّأَخُّرَ وَالتَّواني وَأَقْدِمْ مِثْلَ إِقْدامِ السِّنانِ

2) وَخاطِرْ، إن تَرُمْ إِدْراكَ مَجْدٍ، فَلَيْسَ المَجْدُ يُدْرَكُ بِالأَماني

3) وإن وَطَنٌ نَبا، جاوِزْهُ، وَارْبأْ بِنَفْسِكَ أن تُقيمَ على هَوانِ

[649]- انتهت مخاطبات حمدون ابن الحاج وسليمان الحوات.

4) وإن زَمَنٌ عَدا، فَاعْمَدْ إلى مَنْ — بِهِ قَدْ يُسْتَجارُ مِنَ الزَّمانِ
5) إلى ابْنِ الحاجِ حَمْدونَ المُرَجّى — إلى مَنْ لا لَهُ في النّاسِ ثانِ
6) فَإن حَلَّتْ رِكابُكَ في ذُراهُ — فَأنْتَ مِنَ الحَوادِثِ في أمانِ
7) فَتى راقَ الثَّناءُ عَلَيْهِ حُسْناً — كَما راقَ الحلى على الحِسانِ
8) عَظيمُ الجودِ مِنْ غَيْرِ اعْتِدادٍ — ومُعْطي الجَمِّ مِنْ غَيْرِ امْتِنانِ
9) بَليغٌ: إن يَقُلْ، يَأتي بِقَولٍ — وَجيزِ اللّفْظِ مُغْتَرِفِ المَعاني
10) كَفاهُ تَكَلُّفَ التَّجْريبِ عَقْلٌ — وَأغْنَتْهُ الظُّنونُ عَنِ العِيانِ
11) حَلَتْ فيهِ المَدائِحُ فَهْيَ أشْهى — وأعْذَبُ مِنْ مُعَتَّقَةِ الدِّنانِ
12) فيا أمْني، إذا أخْشى، وحِصْني — وَياتِرْسي ومِنْصَلي اليَماني
13) إلَيْكَ رَحَلَتْ ناجِيَةٌ فجاءَتْـ — ـكَ تَطْوي كُلَّ أفْيَحَ صَحْصَحانِ
14) عَلى عِلْمٍ بِأنَّكَ يارَجائي — على الأحْداثِ أنْفَعُ مُسْتَعانِ
15) فَأيِّدْني، فَداكَ أبي، بِنَصْرٍ — أعِزُّ بِهِ، وأكْبِتُ كُلَّ شاني
16) بَقيتَ بَقاءَ دَهْرِكَ أو ثَنائي — فَإنَّهُما، وجَدِّكَ، خالِدانِ

[نونيّة ثانية غُفل]

وقولٌ آخر يستعير منه «حاشيته» على «التّلخيص»:

[الكامل]

1) صَوْبُ الحَيا، رَوْضُ المُنى بِهِ زانا — فَتَراهُ مُبْتَسِماً بِهِ مُزْدانا
2) مُخْضَرَّةٌ أغْصانُها قَدْ أثْمَرَتْ — وَزَهْوُها يَنْعى لَنا الأحْزانا
3) والسَّعْدُ أقْبَلَ في أتَمِّ سَتْرَةٍ — مُتَعَمِّماً في تيهِهِ تيجانا
4) والدَّهْرُ ساعَدَ بِالمُنى بَعْدَما — أنْ كانَ ذا بُخْلٍ بِهِ أزْمانا
5) وَتَوالَتِ الأفْراحُ وانْزاحَ الأسى — فَتَخالُ فينا ذا الجَوى نَشْوانا
6) لِمَ لا، وبَدْرُ التَّمِّ في أفُقِ العُلى — قَدْ حَلَّ لا يَخْشى به نُقْصانا!!؟

7) وقد اسْتَنارَ [650] بَعْدَ ظَلامِهِ … [651] مَنْ بِعِلْمِهِ أحْيانا
8) حازَ الْمَزايا والسَّماحَةَ كُلَّها … وكَذا الْبَلاغَةَ قَدْ عَلا سَحْبانا
9) قُطْبُ الرَّحى وكِناسُهُ فَوْقَ السُّهى … وَجُودُهُ يَرْوي بِهِ ظَمْآنا
10) حَمْدونُ: هَلْ لابْنِ الْبَراعَةِ مِنْهُمُ … يَشْكو الْجَوى وَعَيْنَهُ أقْرانا
11) وأوْدى بِجِسْمِهِ حُبُّ «حاشِيَةٍ» لَكُمْ … سَتَرَ الَّذي في لُبِّهِ كِتْمانا
12) ياسَيِّداً كَلُّ الوَرى في مَدْحِهِ … ولَطالَما أبْدَوْا لَهُ أوْزانا
13) دُمْ في سَماءِ الْمَجْدِ فَرْداً ثانِياً … يَلْقى عَدُوُّكَ في الْوَرى خُسْرانا
14) مُتَنَكِّراً في دَهْرِهِ مُتَحَزِّناً … لا يَرْتَجي رَوْحاً ولا سُلْوانا
15) وعَلَيْكَ، ما هبَّ النَّسيمُ، تَحِيَّةٌ … مانالَ في رَوْضِ الْمُنى أغْصانا

[فائيَّة غُفْل]

وقولُ آخر:

[الكامل]

1) إنّي لِصادِقِ وَعْدِكُمْ أتَشَوَّفُ … يامَنْ وَقَفْتُ بِبابِهِمْ أتَكَفَّفُ
2) لَوْ جِئْتَهُمْ لِدِفاعِ كُلِّ مُلِمَّةٍ … ما إن أرى لَكَ مَطْلَبًا يَتَوَقَّفُ
3) فَاحْرِصْ على عِزِّ الوُقوفِ بِبابِهِمْ … تَلْقَ النَّجاحَ، لأنَّهُمْ بِكَ أرْأفُ
4) يا واحِداً في العَصْرِ لَيْسَ يَصدُّهُ … عَنْ مَنْهَجٍ في رُشْدِهِ مُسْتَنْكَفُ
5) أنتُمْ سِراجُ العَصْرِ مِنْ أخْلاقِكُمْ … أذُنُ الزَّمانِ والأماني تُشَنَّفُ
6) وَلِذاكَ جِئْتُكُمْ لِنَيْلِ تَخَلُّصٍ … مِنْ حَديثٍ صَعْبٍ عَلَيْنا يوقَفُ
7) فَادْفَعْهُ يا حَمْدونُ بِاللّهِ الَّذي … أوْلاكَ ما عَنْهُ الأفاضِلُ تُصْرَفُ
8) وانْظُرْ بِفِكْرِكَ ذي الإصابَةِ ضارِعًا … مِنْ أجْلِ فاقَتِهِ ولا تَتَوَقَّفوا[652]
9) فَاللّهُ يُبْقيكُمْ ويُرْقيكُمْ إلى … عِزٍّ مِنَ اللّهِ الكَريمِ يُؤَلَّفُ

650- بياض في الأصل.

651- بياض في الأصل.

652- في الأصل: تتوقف. ولعلّ الصواب ما أثبتنا.

10) وَعَلَيْكَ خَيْرُ تَحِيَّةٍ مِنْ رَبِّنا وَرِضاؤُهُ مُتَتابِعًا قَدْ يُؤْلَفُ

وكثيرا أيضا ما رُفِعَت للشَّيخ أبي الفيض حمدون، القصائد الموجبة على اختلاف الأغراض من الرِّثاء والتَّهنِئَة.

[تهنئات ومدائح مرفوعة لأبي الفيض حمدون]

[نونيَّة محمّد بن طاهر الهوّاريّ]

فمن ذلك قول العلاّمة قاضي الحضرتين، أبي عبد الله، سيّدي محمّد بن طاهر الهَوّارِيّ[653]، يُهَنّيه بشفاء السّلطان أبي الربيع من مرض[654]:

[الكامل]

1) يا بارِقًا قَدْ لاحَ مِنْ زَرْهونِ عَرِّجْ على مِكناسَةِ الزَّيْتونِ

2) ثُمَّ انْطَلِقْ مِنْ غَيْرِ بُطْءٍ لِلْفَتى زَهْرِ الرِّياضِ الْمُنْتَقى حَمْدونِ

3) بَلِّغْهُ مِنْ عِنْدي سَلامًا عاطِراً يُزْري شَذاهُ بِنَفْحَةِ النِّسْرينِ

4) فَلَقَدْ ظَمِئْتُ[655] إلى وُرودِ كِتابِهِ أَشْفي الغَليلَ بِسِرِّهِ المَكْنونِ

5) وَلْيَهْنِهِ والْمُسْلِمينَ شِفاءُ مَنْ مُحَيّاهُ فيهِ حِمايَةٌ لِلدِّينِ

6) راياتُهُ مَنْصورَةٌ وَلِواؤُهُ لا خَيَّبَ الرَّحْمانُ فيهِ ظُنوني

7) وَأَدامَهُ وأَعانَهُ مَنْ أَمْرُهُ ما بَيْنَ حَرْفَيْ كافِها والنّونِ

[نونيّة أبي الفيض حمدون جوابا عنها]

فأجابه الشيخ أبو الفيض بقوله[656]:

[الكامل]

1) يا رامِيًا لِلُؤْلُؤِ المَكْنونِ مِنْ بَحْرِ عِلْمٍ فائِضٍ مَشْحونِ

2) أَبْياتُكَ السَّبْعُ المَثاني حَرَّكَتْ مِنّي سَواكِنَ مِنْ هَوى وَشُجونِ

[653]- أديب عالم. (ت 1210هـ). ترجمته في: الشُّرب: 7-8. الشَّجَرة: 1/375. رقم 1498.

[654]- المقطوعة في ديوان حمدون: 28.

[655]- في الأصل: طلعت. والتصويب من ديوان حمدون: 281.

[656]- القصيدة في ديوانه: 281.

3) وَبِذِكْرِ مَولانا سُليمانَ عَلَتْ وَعلَتْ بِها السَّبْعَ الطِّباقَ شُجوني

4) مَلِكٌ عَلى المَنصورِ أرْبى نَصْرُهُ وَبِرُشْدِهِ أرْبى عَلى هارونِ

5) وكَأنَّهُ المأمونُ في حِلْمٍ وفي سَعْدٍ بِهِ ذي طائرٍ مَيْمونِ

6) وكَأنَّكَ الحَسَنُ بْنُ سَهْلٍ مُهْدِيًا بورانَ مِنْ مَنْظومِكَ المَوْضونِ

7) فَعَلَيْكَ مِنْهُ تَحِيَّةٌ مِسْكِيَّةٌ ما فاحَ حَمْدٌ لاحَ مِنْ حَمْدونِ

[بائية الطّيّب ابن كيران]

ومن ذالك قول العلامة المحقّق، سيّدي الطّيّب ابن كيران، عن إذن المنصور[657]:

[الكامل]

1) ما بالُ مَنْ قَدْ كانَ يُقْري مُكْرِمًا أسْماعَنَا ما يُسْتَطابُ ويَعْذُبُ

2) في مَولِدِ المُخْتارِ كانَ مُعَلِّلاً لِنُفوسِنا بِمُرَقِّصاتٍ تُطرِبُ

3) في غَفْلَةٍ، أوْ غَفْوَةٍ، أوْ هَفْوَةٍ، أوْ نَوْمَةٍ، أوْ غَيْبَةٍ لا تُغْلَبُ

4) أوْ في التَّشاغُلِ وَالتَّكاسُلِ مُغْرِقًا فَغَدا عَنِ الفَرْضِ المُحَتَّمِ يَرْغَبُ

5) فَأفِقْ مِنَ السُّنَّةِ الَّتي قَدْ عَطَّلَتْ ماكانَ مِنْكَ مِنَ المَعاني يُرْقَبُ

6) والفَرْضُ، إن يَكُ فاتَ وَقْتُ أدائه[658] فَقَضاؤُهُ مُتَأكِّدٌ مُسْتَصْوَبُ

فبعث إليه الشيخ مُشيراً إلى الاعتراض عن التأخير، وأنّ أيامه كلّها أعياد، مصدّراً لها بقوله:

[البسيط]

1) أمَرْتَني بِإقامَةٍ ولَمْ يَكُ لي[659] وَقَدْ تَرَحَّلْتُ، في إقامَةٍ أرَبُ

2) وكانَ مِنْ أدَبي سَيْري إلَيْكَ فَهَلْ يُقَدَّمُ الأمْرُ، أو يُقَدَّمُ الأدَبُ؟

657- القطعة في النّوافع الغالية: 2/289-290.

658- في الأصل: إدراكه. ولا يستقيم به الوزن. والتّصويب من النوافع الغالية: 290.

659- القطعة في النوافع الغالية: 2/290.

غيره[660]:

[الكامل]

1) طابَتْ بِطيبِ حَيـاتِكَ الأعْـمـارُ — وتَضـاءَلَت بِضِيـائكَ[661] الأقْـمـارُ
2) وَاليـومُ كُلُّهُ بُكْرَةٌ وعَـشِـيَّـةٌ — بِكَ، واللّيـالي كُلُّهـا أسْـحـارُ
3) والدَّهْرُ كُلُّهُ لَيْسَ إلاّ مَـوْسِـمـاً — بِكَ حَـقُّـهُ الإجْـلالُ والإكْـبـارُ
4) والغَـرْبُ كُلُّهُ لَيْسَ إلا الشّـامَ مِنْ — مـا شـامَـهُ مِنْ جـودِكَ النُّظّارُ
5) فَـبِـأيِّ أرْضٍ مُنْذُ بِنْتَ ولَمْ تَبِنْ — مِـمّـا تُفـيضُ يَمـينُكَ الأنْهـارُ؟!
6) بِنَداكَ عـودُ الدِّينِ أصْبَحَ مُـورِقـاً — وتَفَـتَّـقَـتْ فـيـهِ لَنا أزْهارُ
7) وعَلَى الحَقيقَةِ والشَّريعَةِ مِنْ هُدى — لَكَ أشْـرَقَتْ، أسْـرارُهُ أسْـرارُ[662]
8) ضاعَتْ وضاءَتْ مِنْ نَداكَ ومِنْ سنَا — كَ، لِـنـاشِـقٍ ولِـنـاظِـرٍ أنْـوارُ
9) مـا أنْتَ إلا مِـسْـكَـةٌ دارِيَّـةٌ — عَـبَـقَتْ بِهـا الأنْجـادُ والأغْـوارُ
10) ما الشَّمْسُ في حَمَلٍ سِواكَ، حَلَلْتَ في — قَـصْـرٍ تُضيءُ بِنورِكَ الأمْـصـارُ
11) أبْدَيْـتَ آثاراً بِـكُـلِّ ثَـنِـيَّـةٍ — عَـجِـبَتْ لَهـا الأسْـمـاعُ والأبْصـارُ
12) لَمْ تُسْـفِرِ الأسْـفارُ عَنْ مِثْلٍ لِما — تُبْـدي، ولَمْ تَنْطِقْ بِهِ أجْـفـارُ
13) أنْشِئْتَ في حِجْرِ المَفاخِرِ راضِعاً — ثَدْيَ المَكارِمِ، يَعْـتَـليكَ وَقـارُ
14) وَجَـرَيْتَ في شَـأوِ العُلى مُـتَـوَحِّـداً — تَجْـري بِمـا تَخْـتـارُهُ الأقْـدارُ
15) اَلمُلْكُ عِـقْـدٌ أنْتَ واسِطَةٌ لَهُ — لَوْلاكَ لَمْ تُفْـصِـحْ[663] لَهُ أقْـدارُ

---

[660]- القصيدة في النوافح الغالية: 2/290-293.

[661]- النوافح الغالية:290: لضيائك.

[662]- النوافح الغالية:291: أسوار.

[663]- في الأصل: تفضح. والتصويب من النوافح الغالية: 291. وقد تكرر البيت في الأصل وعليه علامة الإلغاء.

16) عُقِدَتْ عَلَيْكَ خَناصِرُ الْعَلْياءِ مُذْ[664] ... عُقِدَتْ على صَدْرٍ لَكَ الأَزْرارُ

17) وَسَما بِكَ الْمُلْكُ الَّذي أُوتيتَهُ ... فَلَهُ سُمُوٌّ ثابِتٌ وفَخارُ

18) وبِكَ الْخِلافَةُ قَدْ تَمَنْطَقَ خِصْرُها ... ولَها قَلائِدُ مِنْ عُلى وسِوارُ

19) وإذا عَلَوْتَ الصّافِناتِ رَنَتْ إلى ... أُفُقٍ كَأَن جَوْزاؤُهُ مِضْمارُ

20) أَتَرى الْمَجَرَّةَ مَوْرِداً عَذْباً لَها ... يَحْلو بِهِ الإيرادُ والإِصْدارُ؟!

21) وَمِنَ الْعَجائِبِ أن تُثيرَ رِياحَها ... دَأْباً، وأَنْتَ الدِّيمَةُ الْمِدْرارُ

22) وَيَبينَ رُمْحُكَ في دُجُنَّةِ نَقْعِها ... وكَأَنَّهُ عَلَمٌ بِرَأْسِهِ نارُ

23) قاسوكَ بِالطائِيِّ جَهْلاً مِنْهُمُ ... أَنّى تُقاسُ جَداوِلٌ وبِحارُ؟!

24) اَلْعِلْمُ رَوْضٌ يُجْتَنى لَوْلاكَ لَمْ ... تَنْشَقَّ مِنْ أَكْمامِهِ الأَثْمارُ

25) والحِلْمُ بَيْتٌ أَنْتَ ساكِنُهُ وكَمْ ... حَلَّتْ بِهِ أَشْراكَها الأَشْرارُ!!؟

26) وَمِنَ الْجَلالِ[665] عَلَيْكَ أَيُّ مَلاءَةٍ ... ومِنَ الْجَمالِ قَباءَةٌ وإِزارُ

27) جُرْثومَةٌ لَكَ لَمْ تَزَلْ تُبْدي لَنا ... ما يَعْتَلي كَعْبٌ به ونِزارُ

28) لِلَّهِ أَيُّ شَمائِلٍ خَلَعَتْ عَلى ... ذاكَ الْجَنابِ أُرومَةٌ ونِجارُ

29) فَمَتى أَدَرْنا أَوْ أَرَدْنا ذِكْرَها ... خِلْناكَ أَنَّكَ رَوْضَةٌ مِعْطارُ

30) وَسَرى بِشُكْرِكَ كُلُّ ريحٍ سائِرٍ ... وَتَرَنَّمَتْ بِثَنائِكَ الأَطْيارُ

31) وَتَطيرُ أَمْداحٌ[666] إِلَيْكَ مَعَ الصَّبا ... أَبَداً، وفَرْضاً تُمْدَحُ الأَخْيارُ

32) ما عاقَني عَنْ فَرْضِها إلاّ يَدٌ ... بَسَقَتْ، ولَمْ يُبْلَغْ لَها مِعْشارُ

33) وكَفى مَديحَكَ أَنَّهُ في طَيِّهِ ... مَدحِ النَّبِيُّ الْمُصْطَفى الْمُخْتارُ

34) أَصْلُ الْوُجودِ وروحُهُ، لَوْلاهُ لا ... فَرْشٌ ولا عَرْشٌ ولا أَنْوارُ

وتقدم تمامُها عند التعرُّض للمَوْلِديّات[667].

---

[664]- في الأصل: من. والتّصويب من النّوافح الغالية: 291.

[665]- في الأصل: الجلال. والتّصويب من النّوافح الغالية: 292.

[666]- في الأصل: أمواج. والتصويب من النوافح الغالية: 292.

[667]- لم يرد منها شيء في رياض الورد. ولعل المؤلف يحيل على النوافح الغالية، حيث ورد تمامها. (100

[بائية غُفل]

ومن ذالك قولُ بعض الأدباء:

[الطويل]

1) ألا حَيِّ سَلْمى قَبْلَ زَمِّ الركائبِ ... إذا كُنْتَ يَوْمَ الجِدِّ لي جِدَّ صاحِبِ

2) عَقيلَةُ أَتْرابٍ لَها قَدُّ بانَةٍ ... تُجاذِبُها الأرْواحُ غِبَّ سَحائِبِ

3) بَعيدَةُ مَهْوى[668] القُرْطِ، مَهْضومَةُ الحَشا، ... أَسيلَةُ ما بَيْنَ البَرى والذَّوائِبِ

4) يُضيءُ دُجى اللَّيلِ البَهيمِ ابْتِسامُها ... كَما لاح بَرْقُ الدَّرْقِ[669] بَيْنَ الغَياهِبِ

5) تَحِيَّةَ مِسْكٍ، ضاعَ وَهْناً ذَكِيَّةً ... تَضَوَّعُ في أَرْدانِها والتَّرائِبِ

ومنها:

6) ودَعْ ذا، وَعَدِّ القَوْلَ في أيِّ ضارِعٍ ... إلى سَيِّدي حَمْدونَ زَيْنِ المَواكِبِ

7) هُوَ البَحْرُ غَرّاقُ العَبورِ، ومَنْ لَهُ ... يَواقيتُ تُنْسي عِلْقَ حُلى الخَراعِبِ

8) لَهُ في رِياضِ العِلْمِ والحِلْمِ رَوْضَةٌ ... خَمائِلُها مُرْتادُها غَيْرُ كاذِبِ

9) ونِعْمَ الفَتى تَعْشو إلى ضَوْءِ نارِهِ ... تَهاداكَ نَكْبُ الصَّرِّ بَيْنَ السَّباسِبِ

10) وَظَنّي بِهِ يَوْمَ اللِّقاءِ مُجَرِّباً ... يُطارِدُ أُولي الخَيْلِ قَبْلَ الكَتائِبِ

11) لَعَمْري، لأُولى السَّعْدِ يَوْمُ ظُهورِهِ ... سَموحَ نَبِيٍّ عَنْ شِياتِ[670] الضَّرائِبِ

12) إذا جالَسَ الفِتْيانَ أَشْرَقَ وَجْهُهُ ... كَإِشْراقِ بَدْرِ التَّمِّ بَيْنَ الكَواكِبِ

13) يُعاطيهِمْ بَعْدَ اللآلي جَواهِراً ... وَهَى سِلْكُها في أَيْدِ خُمْصِ الكَواعِبِ

14) ولوْ كانَ يَفْنى الشِّعْرُ أَفْناهُ ما قَرَتْ ... حِياضُكَ مِنْهُ، في العُصورِ الذَّواهِبِ

15) ولاكِنَّهُ صَوبُ العقولِ إذا انْجَلَتْ ... سَحائِبُ مِنْهُ أُعْقِبَتْ بِسَحائِبِ[671]

بيت) النوافح: 2/290-298، أو على القطعة المفقودة من رياض الورد.

[668]- في الأصل: مأوى. وهو تصحيف.

[669]- كذا بالأصل.

[670]- في الأصل: سيئات. ولا يستقيم به وزن ولا معنى. ولعل الصواب ما أثبتنا.

[671]- البيتان لأبي تمام. ديوانه: 1/214.

16) لِيُـدْرِكَـهُ مَنْ[672] رامَ يُدْرِكَـهُ ولا ... يُلائِمُ رَكْضَ الْحُمْـرِ نَصُّ النَّجائِبِ

17) وَقاهُ إِلاهُ العَرْشِ عَيْنَ حَسودِهِ ... بأَسْمائِهِ الْحُسْنى وَالآيِ[673] الثَّواقِبِ

18) قَصيدَتُنا زُفَّتْ إِلَيْكَ وَمَهْرُها ... دُعاءٌ بِحُسْنِ الْخَتْمِ مِنْ ظَهْرِ غائِبِ

19) وبَعْدُ، فَصَلَّى اللهُ خالِقُنا على ... مُحَمَّدٍ الْمُخْتارِ مِنْ آلِ غالِبِ

[نونيَّة غُفل]

وقول آخر:

[البسيط]

1) فاسٌ، إذا نَطَقَتْ، فَالرُّومُ ساكِتَةٌ ... إذ لا يُجاوِبُها الْعِراقُ وَالصِّينُ

2) فَمِنْ مَفاخِرِها، بِالْمَجْدِ مُفْرَدَةٌ ... لَمَّا العُلومُ بِها، وَالْحُسْنُ مَخْزونُ

3) بَغْدادُ أَضْحَتْ لها بِالرَّغْمِ صاغِرَةً ... ومِصْرُ والشَّامُ وَالأَقْصى خُراسانُ

4) صَنْعاءُ مِنْ أَسَفٍ تَبْكي بِمُقْلَتِها ... لا فَخْرَ تَذْكُرُهُ، وَالْقَلْبُ مَحْزونُ

5) فَالآنَ أَضْحَتْ لَها الآثارُ شاهِدَةً ... بِأَنَّها جَنَّةٌ، والْحورُ والْعَيْنُ

6) كَأَنَّها عِنْدَما تُرى بِغُوطَتِها ... خَمَّاءُ كَالدُّرِّ، في الأَصْدافِ مَكْنونُ

7) إِنِّي أَقولُ، وَإِنَّ القَوْلَ حَقٌّ: كَفى ... فَخْراً بِأَنْ بِها الإِمامُ حَمْدونُ

[رائيَّة غُفل]

وقول آخر:

[السريع]

1) فَرائِسُ أُولِيتَ مِن بِرِّهِ ... حَتَّى أَخَذْتَ الدِّينَ عَنْ ذِكْرِهِ

2) فَلَيْسَ في أوقاتِهِ غَيْرُنا ... بَلْ [و][674] يَعُمُّ النَّاسَ مِنْ خَيْرِهِ

3) وَيَحْمِلُ الأَثْقالَ حَتَّى أَرى ... جُرْدَ النِّياقِ خِفْنَ مِنْ صَبْرِهِ

4) فَكُلُّ فَخْرٍ ريئَ في غَيْرِهِ ... فَإِنَّما أُعيرَ مِنْ فَخْرِهِ

[672]- ورد في الأصل بعده: قد رام. وقد أسقطنا قد ليستقيم الوزن.

[673]- تسهل الهمزة ليستقيم الوزن.

[674]- زيادة منا لم ترد بالأصل، ليستقيم الوزن.

5) وكُلُّ دُرٍّ فــــائقٍ في نُحــــو ... رِ الغـيـد قَـدْ أُغْـرِفَ مِنْ بَحْـرِه

6) وبَحْـــرُهُ في وَجْـــهِـــهِ رَوْنَقٌ ... وَجَــيِّــدُ اللُّؤْلُؤِ في قَـــعْــرِه

7) ومــــاؤهُ مُـــسَلْسَلٌ جَــرْيُهُ ... أُمِنْتُ طولَ الدَّهْرِ مِنْ غَــــوْرِه

8) وبَحْـــرُ جــودٍ قَـــدْ غَنيتُ بِهِ ... وَبالِغُ اللُّمْـــعـــانِ مِنْ دُرِّه

9) كَـــأَنَّهُ مِنْ غُـــصْنٍ وَرْدٍ نَشَـــا ... فَطيبُ الأَكْـــوانِ مِنْ نَشْـــرِه

10) فَـهْـوَ الفَـريدُ في جَـمـيعِ الوَرى ... يَسْـــمـــو عَلى الأَطْوادِ في عِــزِّه

11) لا عَـــجَبٌ في حُبِّ ذاتٍ[675] لَهُ ... لأَنَّهُ كَـــالرُّوحِ في مِـــصْـــرِه

12) لَـمّــا أَتانا صُـبْحَ يَوْمِ المُنى ... فَكانَ كَـالصَّـادِعِ مِنْ فَـجْـرِه

13) فَكُلُّ مــا يَفــوحُ مِنْ عَنْبَـرٍ ... فَـــهْـــوَ الَّذي يُشْـبِــهُ مِنْ عِطْرِه

14) في سَحَرٍ يَسْعى إِلى مَسْجِدٍ ... يَحْـسُـــدُهُ البَـــدْرُ على سَــيْـرِه

15) مَـهْـمـا يَراه[676] مُـسْرِفٌ مُذْنِبٌ ... إِلاّ وَقَـــــدْ جُــــرِّدَ مِنْ وِزْرِه

16) إِنْ طالَتِ الصَّـــلاةُ مِنْ غَـيْـرِهِ ... تُعَـدُّ تِلْكَ البَـعْضَ مِنْ قَـصْـرِه

17) لَوْ تُجْـعَلُ القِـبْلَةُ في سَـيِّـدٍ ... فَلَمْ تَكُنْ إِلاّ مِنْ شِـــعْــرِه

18) نَغْـمَـتُـهُ، إِنْ كـانَ في مَجْلِسٍ، ... تُغْني مِنَ العـــودِ وعَنْ نَقْـــرِه

19) أَهْدَيْتُـــهُ قِـــلادَةً رُصِّـــعَتْ ... بِـدُرَّةٍ تَزْدانُ مِـنْ نَـحْــــرِه

20) سَيْفُ الهُدى، عَيْنُ العُلى، روحُها ... لُبُّ الوَرى، والخَلْقُ مِنْ قِـشْـرِه

21) كَـــأَنَّمـــا سُطْرٌ[677] مِنْ فَــوْقِنا ... سُـــحْبُ النَّدى، فكُنْتَ مِنْ قَطْرِه

22) يا واحِـــداً لا واحِـــداً مِــثْلُهُ ... بَلْ لا يُقـــالُ الفَـــرْدُ في غَـــيْـرِه

23) كَـــأَنَّمـــا أُنْذَرَ هذا الزَّمـــا ... نُ خَـــيْـــرَةً، فكُنْتَ مِنْ قَـــدْرِه

24) فَــخَــيْــرٌ، يالَحَـمْــدِ زارِعُ[678] ... في دينِهِ، فَـــأَنْتَ مِنْ ثَـمْــرِه

---

[675]– في الأصل: ذوات. ولا يستقيم به الوزن. ولعل الصواب ما أثبتنا.

[676]– كذا بالأصل.

[677]– في الأصل: أسطر، ولا معنى لها. ولعل الصواب ما أثبتنا.

[678]– كذا بالأصل. والشطر ساقط الوزن، ومبهم المعنى.

25) كَسَوْتَ أرْبُعاً لَنا بَهْجَةً كَما كَسا الجَوُّ مِنْ بَدْرِه[679]

26) هُوَ الَّذي لَوْ رُمْتُ حَصْرَ الْمُنى فيه، فَنى الْمِجْبارُ مِنْ خَبْرِه

27) فَكُلَّما بَذْلُهُ مِنْ حِكْمَةٍ في النَّاسِ طُرّاً، فَهْي مِنْ سِرِّه

28) وَهْوَ الَّذي عَلَّمَ هذا الدَّهْـ ـرَ كَيْفَ [680] مِنْ غَدْرِه

29) فَما أبانَ سَيْفَهُ كَفُّهُ إلاّ أُصيبَ الدَّهْرُ في جَذْرِه

30) وَقَدْ فَنِيَتْ سيفُهُ عَذْلَهُ[681] لَمّا تَوَلّى الحُكْمَ في أمْرِه

31) وكُلَّما في النَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ تُشْبِهُ بِالْقَليلِ مِنْ يُسْرِه

32) يَعْلَمُ ما أخْفَيْتَ في باطِنٍ كَأنَّما أُخْفِيَ في صَدْرِه

33) وقد جَزاني إذْ جَعَلْتُ الْمُنى وِصالَهُ بِالأمْسِ مِنْ هَجْرِه

34) وإذْ رَأى أخْلَصْتُ في وُدِّهِ أمْكَنَني بِالْمَحْضِ مِنْ سِرِّه

35) فَسِرُّهُ أضْحى لَنا بادِياً كَما بَدا لِلنَّاسِ مِنْ جَهْرِه

36) يَشْرَبُ في حَوْضِ الْمُنى سِرُّهُ وَتَشْرَبُ الْمُلوكُ مِنْ كَدْرِه

37) يَجْلِسُ، إنْ يَحُلَّ في مَجْلِسٍ مَبْدَعُ الإتْقانِ في صَدْرِه

38) حَلَلْتُ، إذْ كُنْتُ لَهُ مادِحاً، مِنْ ذِرْوَةِ الْكُرْسِيِّ في نَسْرِه

39) يُقْسِمُ مَنْ يَرى مَديحي بِما: لِلّه قَدْ[682] رُبّيتَ في حِجْرِه!!

40) تِهْتُ عَلى الأقْيالِ مِنْ حِمْيَرٍ لَمّا تَشَرَّفْتُ مِنْ ذِكْرِه[683]

41) لَمّا رَأتْهُ الشَّمْسُ في نُورِها قَدْ زيدَ فيهِ الضَّوْءُ مِنْ نورِه

42) لَمّا رَأيْتُهُ كَثيرَ السَّنا ألْفَيْتُ كَالفَراشِ مِنْ قَدْرِه

43) لَمّا رَآهُ الدَّهْرُ أوْما إلى سِلْمٍ، وَقَدْ أبْدأ مِنْ مَكْرِه

---

679 - كذا بالأصل. ولا يستقيم به وزن ولا معنى.

680 - بياض بالأصل.

681 - كذا بالأصل. ولا يستقيم به وزن ولا معنى. وقد يصح بقوله: وقد سبقت سيفه عذله.

682 - في الأصل: لقد. ولا يستقيم به الوزن.

683 - كذا بالأصل. ووزن الشّطر ساقط.

44) يَهْـصِـرُ بالفَـهْمِ صَـغـيـر [684] | حَـتّى تَخـافُ الأسْـدُ مِنْ هَصْـرِهِ
45) إنْ كـــانَ رَبُّنا مُـــذْخِــراً | خَـيْــراً، فــأنْتَ كُنْتَ من ذُخْـرِهِ
46) يا سَـيِّدي حَمْدونُ حِلْفَ الرِّضى: | أتاكَ كُلُّ السَّــعْــدِ مِنْ خِـدْرِهِ
47) وَجـاءَكَ المُـحِبُّ يَرْجـو، عَـسى | يَراكَ مُـقْـبِـلاً عَلى شِـعْـرِهِ!!
48) فَـانْعَمْ بِمـا غَـرَسْتَ في رَوْضِنا | واسْـتَنْشِـقَنْ[685] العِطْرَ مِنْ زَهْرِهِ
49) واحْـصُـدْ كَـما غَـرَسْتَ في أرْضِنا | مِـنْ أدَبٍ، وانْـتَـقِ مِـنْ بِـرِّهِ
50) أنْتَ الَّذي نَشـا[686] بِكَفِّ النَّدى | وَالحِلْمِ والإعطاءِ مِنْ صُـغْـرِهِ
51) لَوْ يَدْرِهِ[687] القِـسِّـيسُ مِنْ رومَـةٍ | لَجـــاءَ لِلإســـلامِ مِنْ دَيْرِهِ
52) أوْ قـوبِلَتْ ذَوو[688] المَـعـالي بِهِ | فَـمـا يَكونوا[689] النِّصْفَ من شِـبْـرِهِ
53) لازالَ فَـضْـلُ رَبِّنا مُـسْـدَلاً[690] | عَـلَـيْـــــهِ، ثُـمَّ زيـدَ فـي بِـرِّهِ

[داليّة محمد بن إدريس العمراويّ الوزير]

وقول الوزير الأعظم، أبي عبد الله، سيدي محمّد بن إدريس العمراويّ، شُهِر بابن الحاجّ، يُهنّيه بعيد الفطر سنة 1231: [6-1815]

[الكامل]

1) بِوُجـودِكُمْ، تَتَـزَيَّنُ الأعْـيـادُ، | وبِمَجْـــدِكُمْ، يَتَطرَّزُ الإنْشـــادُ
2) وَلِمَــدْحِكُمْ، يَرْتاحُ كُلُّ مُـهَـذَّبٍ | وبِمَــدْحِكُمْ، يَتَنَزَّلُ الإمْــدادُ
3) وَبِنورِكُمْ، يُهْدى إلى سُبُلِ الهُدى | وَيَعُمُّ مِنْ ناديكُمُ الإرْشـــادُ
4) وَلِمِــثْلِكُمْ، في عِلْمِــهِ وَسَنائِه، | تُنْضى الرِّكـابُ، وتُضْرَبُ الأكْـبادُ

684– بياض بالأصل قدره كلمة. ووزن الشطر ناقص به.

685– في الأصل. واستنشق. ولا يستقيم به الوزن، ولعلّ الصواب ما أثبتنا.

686– تُسهَّل الهمزة ليستقيم الوزن.

687– كذا بالأصل. وبه يستقيم الوزن.

688– في الأصل: ذو. ولا يستقيم به وزن ولا تركيب.

689– كذا بالأصل. وبه يستقيم الوزن.

690– في الأصل: مسدل.

5) أَنْتُمْ لأشْبـاحِ العُلى الأرْواحُ بَلْ — أَنْـتُـمْ لأرْضٍ وُجـــودِهِ الأوْتـادُ
6) ياأيُّهـا الشَّـيْخُ الإمـامُ المُرْتَضى — واللَّوذَعِيُّ الكَوكَبُ الوَقَّـادُ
7) وَالعـالِمُ العَلَمُ الهُمـامُ المُنْتـقى — بَحْـرُ العُلومِ المُـتْـقِنُ النَّقَّـادُ
8) هُنِّئْتَ بِالعيـدِ السَّعيـدِ ومِثْلُكُمْ — بِوُجـودِهِ تَتَـهَنَّأُ الأعْـيـادُ
9) سَـعِـدَ الزمـانُ وأهْلُهُ بِوُجـودِكُمْ — فَـجَـمـيـعُـهُ مِنْ فَـضْلِكُمْ أعْـيـادُ
10) لِلَّهِ مـا قَـدْ حُـزْتُمْ مِنْ سُـؤْدَدٍ — فَـــخْمٍ تَذِلُّ لِعِــزِّهِ الأنْداد
11) وَجَـمَـعْـتُمْ مِنْ كُلِّ وَصْفٍ رائِقٍ — عَـمِـيَتْ بِرُؤْيَةِ نورِهِ الحُسَّـادُ
12) عِلْمٌ وحِلْمٌ، عِـفَّـةٌ وَمُـروءَةٌ، — جـودٌ وَبَحْـرٌ، طارِفٌ وتِلادُ
13) يا حـائِزاً قَـصَبَ السِّبـاقِ وفـائِزاً — بِصِـفـاتِ فَـضْلٍ نورُها وَقَّـادُ
14) وَمُـحِبُّ خَـيْـرِ المُـسْلِمينَ وآلِهِ — وَمَـــلاذَنا، إنْ عَـمَّنا أنْكادُ
15) وَمَنِ الَّذي حَـمِـدَ الوَرى مِنْ عِلْمِـهِ — وذَكـائِهِ الإصـدارَ وَالإيرادُ[691]
16) ومَنِ الَّذي أخْـلاقُـهُ وصِـفـاتُهُ — طابَتْ بِهـا الأغْـوارُ وَالأنْجـادُ
17) وَالمُنْتَقى مِنْ أُسْرَةٍ حازوا[692] العُلى — وَلِكُلِّ مَكْرُمَـةٍ وفَـخْـرٍ شـادوا
18) نَصَـرَ النَّبِيَّ سِنانُهُمْ وَلِسـانُهُمْ — فَلِذاكَ أعْـلامَ البَـرِيَّةِ سـادوا
19) لَهُمُ السَّماحَةُ والحِمايَةُ[693] شيمَةٌ — وهُمُ السُّـراةُ السَّـادَةُ الأنْجـادُ[694]
20) قَـومٌ، إذا حَضَروا النَّدى، سَحائِبٌ — وهُمـو، إذا حَـضَـروا الدُّنا، آسـادُ
21) أُحْـيي وجـودَكَ ذِكْـرَهُمْ فَكَأنَّهُمْ — لَمْ تُخْـفِـهِمْ بِوجُـودِكَ الألْحـادُ
22) خُـذْها كَـمـا شـاءَ الوِدادُ خَـريدَةً — عَـزَّتْ لَهـا بَيْنَ الوَرى أضْـدادُ
23) لازِلْتَ يا حَـمْـدونُ بَدْرَ دُجُنَّةٍ — يُهْـدى بِنورِ رَشـادِهِ القُـصَّـادُ

---

[691]- في البيت إقواء.

[692]- الأبيات 17-21 في الباب الأول من رياض الورد.

[693]- الباب الأول: الحماسة.

[694]- الباب الاول: الأمجاد.

وقوله أيضا:

[البسيط]

1) أمـا وَدُرٌّ نَظيمٍ تَحْتَ شـاربِهِ وَريقِ ثَغْـرٍ غَـدا خَـمْـراً لِشـارِبِهِ

2) وَقَـدٌّ بانٍ عَـلاَ مِنْ فَـوْقِـهِ قَـمَـرٌ مِنْ تَحْتِ لَيْلٍ بَهيمٍ مِنْ ذَوائِبِـهِ

3) وَرَوْضِ وَرْدٍ عَلى السُّوسانِ مَنْبَتُـهُ وَقَـد غَـدا الْقَلْبُ مُضْنى مِنْ عَـقارِبِهِ

4) وَخـالِهِ الْعَنبَـري[695] لَوْناً ورائِحَـةً وَصَـدْغِـهِ الْمُكْتَسي آسـاً بِجـانِبِـهِ

5) وَأَسْـهُمٍ مِنْ لِحـاظِ أَحْـوَرٍ غَنِجٍ قَدْ أَقْصَدَتْ مُهْجَتي مِنْ قَوْسِ حاجِبِهِ

6) وَسَـيْفِ طَرْفٍ غَـدا قَلْبي الْكَليمُ بِهِ ما الْهِنْدُواني[696] بِأَمْضى مِنْ مَضارِبِهِ

7) لَقَدْ كَساني الْهَوى ثَوْبَ السِّقامِ فَما أَبيتُ إِلاَّ صَـريعـاً مِنْ مَـصـائِبِـهِ

8) مَنْ لي بِأَهْيَفَ أَحْوى الطَّرْفِ أَحْوَرِهِ مُـمَـزِّقِ الوُدِّ، خَلْفِ الْوَعْـدِ، كـاذِبِهِ

9) بَدْرٌ، وَلكِنْ حَـشـايَ مِنْ مَطالِعِـهِ ظَبْيٌ، وَلكِنْ فُـؤادي مِنْ مَـلاعِـبِـهِ

10) رَفَـعْتُ رايَةَ حُبّي، إِذْ حَـفِظْتُ لَهُ، قَـدْري، فَـجـادَ بِجَـرْيِي عَنْ نَواصِـبِـهِ

11) لَوْ لَمْ يَكُنْ حُبُّهُ قَـدْ حَلَّ في خَلَدي مـا بِتُّ لَيْلي أَرْعى في كَـواكِـبِـهِ

12) أَقـولُ لِلنَّفْسِ، إِذْ لَجَّ الغَـرامُ بِهـا، أَمـا تَرَيْنَ الجَـوى الَّذي كَـواكِ بِهِ؟!!

13) دَعِ التَّـغَـزُّلَ فـيـهِ وَالْغَـرامَ بِهِ وَخُضْ بِنا مَـدْحَ سـامٍ في مَـراتِبِـهِ

14) شَيْخِ الْمَشايِخِ حَمْدونَ الَّذي حُمِدَتْ بِهِ الْمَـعـالي وراقَتْ مِنْ مَناقِـبِـهِ

15) وَعـالِمِ المَغْـرِبِ الأَقْـصى وَسَـيِّـدِهِ وشـاعِـرِ الْعَـصْرِ في الدُّنْيـا وكـاتِبِهِ

16) مَحاسِنُ العَصْرِ بَعْضٌ مِنْ مَحاسِنِهِ وَزينَـةُ الدَّهْرِ بَعْضٌ مِنْ مَـواهِبِـهِ

17) تَبَوَّأَ[697] مِنْ ذُرى العَلْيـاءِ أَرْفَـعَهـا فَلَيْسَ يُدْرِكُ قُـرْبٌ مِنْ مَناصِـبِـهِ

18) يَجْلو دُجى الْمُشْكِلاتِ، إِنْ عَرَضْنَ لَهُ، بِنورِ ذِهْنٍ، ذَكِيِّ الْفَـهْمِ، ثاقِـبِـهِ

---

[695]- تخفف الياء لإقامة الوزن.

[696]- تخفف الياء لإقامة الوزن.

[697]- تسهل الهمزة ليستقيم الوزن.

19) يَخوضُ قاموسَ بَحْرِ الْعِلْمِ خاطِرُهُ فَيَأْتِ[698] بِالْمُعْجِزاتِ مِنْ عَجائِبِهِ

20) في مُحْكَمِ الدَّرْسِ يُبْدي فَهْمُهُ عَجَباً يُحَيِّرُ السّامِعينَ في غَرائِبِهِ

21) يا طالِبَ الْعِلْمِ: لا تَبْغِ[699] بِهِ بَدَلاً فَما وَرَدْتَ بِأَصْفى مِنْ مَشارِبِهِ

22) يُنْبِئْكَ عِلْماً غَريباً لَيْسَ يُدْرِكُهُ مَنْ قَدْ تَقَدَّمَهُ، سُبْحانَ واهِبِهِ!

23) ناهيكَ مِنْ رَجُلٍ، كَنْزٍ لِطالِبِهِ، حِرْزٍ لِراغِبِهِ، عِزٌّ لِصاحِبِهِ

24) اَلْعِلْمُ والْحِلْمُ بَعْضٌ مِنْ مَسالِكِهِ، وَالْعَزْمُ والْحَزْمُ بَعْضٌ مِنْ مَراكِبِهِ

25) يَزْهو بِهِ الْغَرْبُ فَخْراً، وَالزَّمانُ عُلى، وَيَسْتَضيءُ الأَنامُ مِنْ ثَواقِبِهِ

26) وَيَعْبَقُ الْجَوُّ طيباً مِنْ مَفاخِرِهِ وَيُشْرِقُ الأُفْقُ نوراً مِنْ مَناسِبِهِ

27) مَجْدٌ تَأَثَّلَ قِدْماً عَنْ أَبٍ فَأَبٍ فَلَمْ يَدَعْ مَفْخَراً يَوْماً لِكاسِبِهِ

28) مِفْتاحُ خَيْرٍ لِذي الْحاجاتِ مَنْصِبُهُ وكَهْفُ أَمْنٍ لِفارٍّ مِنْ نَوائِبِهِ

29) قُطْبُ الْمُحِبّينَ في الْمُخْتارِ مِنْ مُضَرٍ وَآلِهِ، والإِمامُ في مَذاهِبِهِ

30) عَلامَةُ الْحُبِّ فَوْقَ الْوَجْهِ ظاهِرَةٌ أَما تَرى النُّورَ يَبْدو مِنْ جَوانِبِهِ!!

31) مَنْ لي بِحَصْرِ الَّذي قَدْ حازَ مِنْ شَرَفٍ أَوْ عَدِّ ماشاء فَخْراً مِنْ مَكاسِبِهِ؟!

32) وَلَوْ نَظَمْتُ الدَّراري في امْتِداحي لَهُ ما كُنْتُ يَوْماً لأَقْضي بَعْضَ واجِبِهِ

33) يا مَنْ هُوَ الْمَلْجَأُ الأَحْمى لِمُلْتَجِىءٍ وَمَنْ هُوَ الأَمَلُ الأَقْصى لِطالِبِهِ

34) خُذْها عَقيلَةَ حَيٍّ راقَ مَخْبَرُها وَاخْتارَها الْفِكْرُ مِنْ أَحْظى كَواعِبِهِ

35) هَدِيَّةً مِنْ صَحيحِ الْوُدِّ خالِصَةً إِذْ أَقْبَلَتْ تُعَدُّ مِنْ مَناقِبِهِ

36) واسْلَمْ لِدَهْرٍ غَدَوْتَ شَمْسَهُ شَرَفاً وَدَعْ عَزيزاً رَفيعاً في مَراتِبِهِ

[مقطوعة محمَّد اليازغيّ السينيَّة]

وقول شيخنا العالم البليغ، أبي عبد الله، محمَّد اليازغي، وقد كان جالسا مع الشَّيخ أبي الفيض حمدون، على شاطئ وادي سبو:

---

[698]- كذا بالأصل. وبه يستقيم الوزن.

[699]- في الأصل: لا تبغي. ولعل الصواب ما أثبتنا.

[الكامل]

1) لَمّا رَأَيْتُ سَبو تَتابَعَ جَرْيُهُ — طَرَباً لِحُسْنٍ راقَ مِنْ جُلاَّسِ
2) وأطالَ ذَيْلَ الْفَخْرِ مِنْ إعْجابِهِ — لَمّا اسْتَطَبْنا فيهِ شُرْبَ الْكاسِ
3) خاطَبْتُهُ يا نَهْرُ لا تَتَكَبَّرَنْ — فَعَلَيْكَ بَحْرٌ مِنْ بَني مِرْداسِ
4) حَمْدونُ مَنْ عَذُبَتْ مَوارِدُ خُلْقِهِ — وَجَرَتْ مَحاسِنُهُ عَلى مِقْياسِ

[نصوص متعدّدة لمحمّد بن عليّ العسريّ الوزّاني]

وقول الأديب البارع، أبي عبد الله، سيّدي محمّد، ابن الفقيه الأديب الكاتب، أبي الحسن، عليّ العسريّ الوزّاني[700] عند قدوم الشيخ أبي الفيض من سفر:

[الوافر]

1) أَتَتْ ياقوتَةٌ عَصْما يَتيمَةْ — مِنَ الآفاتِ قَدْ جاءَتْ سَليمَةْ
2) قِبابُ الْعِزِّ قَدْ ضُرِبَتْ عَلَيْها — تُنادِمُ في أَعاليها جَذيمَةْ
3) كَحِبٍّ مَعْ حَبيبِهِ، إنْ تَلاقى، — وَوَفّى بِالْوِدادِ، إِذَن، غَريمَهْ
4) وَجاءَ الْحِبْرُ حَمْدونُ الْمُرَقّى — على قُنَنِ الكَمالاتِ الْجَسيمَةْ
5) أَدامَ اللّهُ وَقْتاً فيهِ لاحَتْ — مَزاياهُ الْمُنيفاتُ الْوَسيمَةْ
6) بِأَخْلاقٍ وَإِحْسانٍ وَجُودٍ — وَعِرْفانٍ لِمِثْلِه، ذاكَ شيمَةْ
7) لَقَدْ خَضَعَتْ لِسَطْوَتِهِ كِبارٌ — وَصارَ الْكُلُّ مَدْعُوّاً خَديمَهْ

وقوله أيضاً، حين شفاه الله من مَرَضٍ كان به:

[المجتثّ]

1) حَمْدونُنا ذو ارْتِقاءِ — شَيْخي وَفيهِ مُنائي
2) أَبْقاهُ رَبّي مُحَلّى — بِحُلَّةٍ مِنْ ثَنائي
3) مُهَنّاً ومُعافىً — مُرَوْنَقاً بِشِفاءِ
4) بِجاهِ خَيْرِ الْبَرايا — وَسَيِّدِ الأَنْبِياءِ

[700]- لم نقف على ترجمة الابن. أما الأب فقد توفي سنة 1186هـ. ترجمته في: النّشر:4/199.

وقوله أيضاً:

[الكامل المجزوء]

1) حَـمْـدونُ ياكَنْزَ الْمُنى — أغْنَيْتَ عَمَّنْ قَدْ غَبَرْ
2) في مَـدْحِ نِعْمَ الْمُصْطَفى — أحْيَيْتَ مِنْهُ ما انْدَثَرْ
3) لَمْ تُغْنِ سُبَّاقٌ بِما — أبْدَتْهُ سُبَّاقُ بَهَرْ
4) مَعَ أمِّ هانِي[701] والَّذي — مِنْ آلِ بَغْدادٍ ظَهَرْ
5) وكَذالِكَ الْبُوصِيري[702] مَعْ — تَصْغيرِ ما يُجْنَى زَهَرْ
6) وابنُ الخَطيبِ كَذاكَ لَيْـ — سَ يَفي بِما عَنْهُ اشْتَهَرْ
7) أبْقاكَ مَنْ أبْداكَ آ — يَتَهُ بِلا نَسْخٍ صَدَرْ
8) لازالَ بَدْرُكَ صاعِداً — بِسَعادَةٍ لَكَ تُنْتَظَرْ
9) وَيَدُ تَراها عِنْدَهُ — طولى، فَلَمْ يَعْرُها قِصَر[703]
10) فَاهْنَأْ بِسَعْدٍ أسْعَدٍ — ما شابَهُ أبَداً كَدَرْ
11) وَدَوامِ أمْنٍ مِنْ أسى — وجِوارِ مَنْ سادَ الْبَشَرْ
12) صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ ما — أسْدَتْ سَماءُ مِنْ مَطَرْ
13) وَالآلُ والأصْحابُ مَع[704] — مَنْ قَدْ تَلاهُمْ في الأثَرْ

وقوله أيضاً، يخاطب الفقيه أبا عبد الله، بوراس المُعَسْكَري[705]، مُحَشِّي الخُرَشي والمَكودي، وشارح المقامات الحريرية، وقد دخل إلى مسجد القرويين، فوجد الشيخ أبا الفيض حمدون يقرأ «التلخيص»، فسأل عن من هو:

701- تُسهَّل الهمزة ليستقيم الوزن.

702- يسقط المدّ ليستقيم الوزن.

703- الشّطر ساقط الوزن.

704- الشّطر ساقط الوزن.

705- محمد بن أحمد. عالم فقيه. (ت 1238 هـ) ترجمته في: الفهرس: 1/150-152. تعريف الخلف: 341-342.

[الطويل]

1) أَتَسْأَلُ عَنْ شَمْسٍ تَجودُ بِسِرِّها عَلَى النَّاسِ، وَهْيَ في مَحاسِنِها الآسُ؟!

2) فَذاكَ حمدونٌ، إذا ما رأَيْتَهُ، يُطَأْطَأُ في ذَوْقِ الْمَعالي لَهُ الرَّأْسُ

وفيه تورية عجيبة.

[مقطوعة لامية لأحمد بن عبد الملك العلوي]

وقول الفقيه العالم، قاضي القضاة بالمغرب، أبي [العباس][706]، أحمد بن عبد الملك الحسني السّجلماسيّ[707]:

[الطويل]

1) أَتاجَ الْمعاني، يانَتيجةَ حِكْمَةٍ أَرَحْبَ الأكُفِّ، يا فَريداً بِلا مِثْلِ

2) أشَيْخي الَّذي حَوى الْمَناقِبَ كُلَّها إلى أُحْمدٍ أَسْدَيْتَ جَمًّا مِنَ الفَضْلِ

3) مِنَ الدِّينِ والدُّنيا، فَلا زِلْتُ سَيِّدي مُظَلاً بِظِلِّكَ الْعَميمِ مِنَ الأَهْلِ

4) أَرومُ امْتِداحَكَ السَّنِيَّ وعاقَني قُصوري عَنْ تَعْدادِ نَجْمٍ مَعَ الرَّمْلِ[708]

وقول أمير المؤمنين، الْمُجْمَع على عدله، السلطان أبي الربيع، سليمان بن محمد بن عبد الله، في رسالة بعثها لأبي الفيض، متمثلا بقول المتنبي: «ما بِقَوْمي شَرُفْتُ» إلخ.. وقد أشار بعضهم إلى ذالك بقوله:

[داليّة غُفل]

[الخفيف]

1) قالَ سَيِّدُنا إِمامُ الْمَزايا سِبْطُ خَيْرِ الْوَرَى وَسِرُّ الوُجودِ

2) ناصِرُ الدِّينِ، ذو المزايا سُلَيْما نُ، أَميرُ الْهُدى الْعَظيمُ الْجودِ

[706]- سقط في الأصل.

[707]- عالم فقيه علوي النسب. (ت 1241 هـ) ترجمته في: الدُّرر: 106/1. الموسوعة: 113/3. الإتحاف: 349-353/1.

[708]- الشَّطر ساقط الوزن.

3) مُنْشِداً في ابْنِ الْحاجِ حَمْدونَ بَيْتَ ابْـ ... نِ الْحُسَيْنِ، مُعْرِباً مِنْ قَصيدِ

4) «ما بِقَوْمي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفوا بي ... وبِنَفْسي افْتَخَرْتُ لا بِجُدودي»[709]

5) يا لَهُ مَنْزَعٌ شَريفٌ لَطيفٌ ... بِإِطْراءٍ لِطارفٍ وتَليدِ!!

[تمثل محمَّد المجيدري المغافري بأبيات

أبي هلال العسكري]

وقول العلاّمة اللُّغويّ المجتهد على الإطلاق، أبي عبد الله، سيدي محمد المجيدري المغافري الشّنكيطي، في أيام السُّلطان سيدي محمَّد بن عبد الله[710]، متمثِّلا بقول أبي هلال العسكري[711] اللغوي، وقد مر يوما بسوق العطارين الكبرى، فوجد الشيخ أبا الفيض حمدون، في حانوت يبيع ويشتري، لضيق ضرورياته، وذالك في أول أمره[712]:

[الطويل]

1) جُلوسِيَ في سوقٍ أَبيعُ وأَشْتَري ... دَليلٌ عَلى أَنَّ الأَنامَ قُرودُ

2) وَلا خَيْرَ في قَوْمٍ يَذِلُّ كِرامُهُمْ ... ويَعْظُمُ فِيهِمْ نَذْلُهُمْ ويَسودُ

3) وَتَهْجوهُمُ عَنِّي رَثاثَةُ حالَتي[713] ... هِجاءً قَبيحاً ما عَلَيْهِ مَزيدُ

[تهنئات ومدائح أخرى عند الختم]

وكم أُنشِدت بين يدَيْ الشيخ أبي الفيض حمدون في الختم قصائد، فكانت في الحسن كالعروس محلاّة بالقلائد، والسامعون لها يهتزّون عجبا، ويرتاحون طربا. فمن ذالك قول

709- البيت مقتبس من شعر المتنبي، شرح ديوانه: 322/1.

710- العلوي. سلطان عالم. (1171-1204 هـ) ترجمته وأخباره في: تاريخ الضعيف: 163-201. الاستقصا: 3/8-72. الدُّرر: 166/1-168. السلوة: 230-231. الشجرة: 371/1. رقم 1481. الإتحاف: 184/3- 366. معجم المطبوعات: 218-219. رقم 502. الإعلام: 109/6- 133. رقم 769. الحياة: 270-275.

711- لغوي أديب. (ت بعد 400 هـ). ترجمته في: البُغية: 506/1-507. رقم 1046. طبقات الداودي: 138/1-139. رقم 131. طبقات المفسرين: 33. رقم 29.

712- الأبيات في معجم الأدباء: 262/8.

713- معجم الأدباء: 262/8.

العلامة البليغ، نابغة أوانه، أبي عبد الله، سيدي محمد بن العربي قَصارة الحِمْيَري[714]، عند ختم الشيخ صحيح البخاري:

[رائيّة محمد بن العربيّ قَصارة]

[الطويل]

1) إلى ما بسَهْمِ الْبَيْنِ سَلْمَى تُصيبُني؟!	وحُبِّي لَها مِنْ قَبْلِ كَوْني مِنَ البَشَرْ
2) جَفَتْ عَنْ لِحاظِي الكَرى بِجَلاتِها	وَقَدْ أَلْبَسَتْني السُّقْمَ مِنْ شِدَّةِ السَّهَرْ
3) ولَمَّا بَدَتْ جَلا الظَّلامَ ضِياؤُها	نُحولي وَها سُقْمي تَبَدَّى لِمَن حَضَرْ
4) تَجَبَّرَ جَيْشُ الشَّوقِ يا سَلْمَ فَارْحَمي	فُؤاداً عَليلاً بِالْكآبَةِ والْغِيَرْ
5) عَلَى الْهوىَ في حُكْمِهِ قَدْ بَغَى وَلا[715]	وَجَدْتُ خَلاصاً. لَيْتَني فُزْتُ بِالنَّظَرْ
6) وَنارُ غَرامِ الْحُبِّ تَضْرَمُ في الْحَشا	فَجُدْ بِالتَّداني قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الْقَدَرْ
7) فَرُدِّي عَلَيَّ ما سَلَبْتِ فَإِنَّني	أَرَى الْهَجْرَ أَفْناني، وزادَ بي الضَّرَرْ
8) وما ضَرَّني، وقَدْ تَلِفْتُ بِحُبِّهِ	وَمَزَّقَ قَلْبي بِالسِّهامِ وَبِالْوَتَرْ
9) إِذا لَمَّ شَمْلي، أو حَباني بِنَظْرةٍ	فَيَصْفُو الْفُؤادُ مِنْ وَبالٍ ومِنْ كَدَرْ
10) وَطيبُ حَديثِها بِهِ أَنْفُسٌ حَيَتْ	كَما حَيِيَ الْعِلْمُ الَّذي بادَ وانْدَثَر[716]
11) بِضَبْطِ هُمامٍ سَيِّدٍ لاحَ في الْعُلَى	وَحيداً بِلا شِبْهٍ، لِمَنْ غابَ أو حَضَرْ
12) فَأَحْيى رُسومَ العِلْمِ بَعْدَ انْدِراسِها	وَمازالَ يُبْدي مِنْ لَطائِفَ تُعْتَبَرْ
13) وَذا شَيْخُنا حَمْدونُ حَبْرُ الزَّمانِ مَنْ	بِهِ العِلْمُ صارَ في الأَقاليمِ يُشْتَهَرْ
14) وَمَنْ هُوَ أَسْرارَ[717] البَلاغَةِ كاشِفٌ	ومُسْتَخْرِجٌ مِنْها نَفائِسَ كالدُّرَرْ
15) فَحُجَّةُ أَهْلِ العِلْمِ بِالْفَهْمِ ضابِطٌ	فَقَدْ سَبَقَتْ لَهُ العِنايَةُ في الْفِكَرْ
16) تَصَدَّى لِتَدْريسِ الْبُخارِي مُوَضِّحًا	بِجَوْدَةِ فَهْمٍ، كُلَّ مُشْكِلٍ اسْتَتَرْ

714- فقيه أديب فاسي. (ت 1257هـ) ترجمته في: الشّجرة: 396/1. رقم 1583.

715- الشّطر ساقط الوزن.

716- الشّطر ساقط الوزن.

717- في الأصل: لأسرار. ولا يستقيم به الوزن. ولعلّ الصواب ما أثبتنا.

17) يُحَقِّقُ ما عَنْهُ الأفَاضِلُ أَحْجَمَتْ بِجَزْلٍ مِنَ الأَلْفاظِ يَقْضي بِها الْوَطَرْ
18) أَحَلَّ عَلَيْـهِ حُلَّةً يَوْمَ خَتْـمِـهِ فَيا لَها[718] مِنْ سُنْدُسٍ بِالبَها سَحَرْ
19) لَهُ قَـدَمٌ في العِلِمْ والْحِلْمِ والتُّـقَى وَلِلضُّعَفاءِ جودُهُ، فَهْوَ كَالْمَطَرْ
20) فَأَعْظِمْ بِهِ مِنْ عالِمٍ فاقَ رُتْبَةً تَقاصَرَ عَنْها ذو العُقولِ أَوِ النَّظَرْ!!
21) حَباهُ إِلاهُ الْعَرْشِ كُلَّ فَضيلَةٍ وأَبْقاهُ رَبّي في صَفاءٍ بِلا كَدَرْ
22) فَخُذْها خَريدَةً في[719] مَدْحِ جَنابِكُمْ مُطَوَّقَةً دُرَراً تَميلُ مِنَ الْخَفَرْ
23) وَزُفَّتْ إِلَيْكُمْ تَرْتَجي حُسْنَ وُدِّكُمْ بِحُسْنِ خِتامٍ في وُرودٍ وفي صَدَرْ
24) بِجاهِ إِمامِ الْمُرْسَلينَ مُحَمَّدٍ وَشَمْسِ الْهُدى فَجْرِ الصَّباحِ لِمَنْ بَصَرْ
25) عَلَيْهِ سَلامُ اللّهِ ما غَرَّدَتْ حَما ثُمَّ فَوْقَ أَفْنانِ الرَّياحينِ في سَحَرْ
26) وَآلِهِ والأَصْحابِ قاطِبَةً وَمَنْ بِهِمْ يُقْتَدى، ما فاحَ في رَوْضِهِ الزَّهَرْ

[هائيّة محمد بن إدريس العمراوي الوزير]

وقول الوزير الأعظم، الهُمام الأفخم، ذي القدر النفيس، أبي عبد اللّه، محمد بن إدريس:

[الكامل]

1) أَسْنِدْ حَديثَهُمُ، فَما أَحْلاهُ! وارْفَعْ رِوايَتَهُ، فَما أَعْلاهُ!!
2) وأَدِرْ مُدامَةَ ذِكْرِهِمْ فَخِتامُها مِسْكٌ يَفوحُ على الدَّوامِ شَذاهُ!!
3) واخْلَعْ عِذارَكَ في الغَرامِ بِحُبِّهِمْ. فَهُمُ الحِسانُ، وما لَهُمْ أَشْباهُ
4) وَاخْضَعْ لِعِزِّهِمُ، وَلُذْ بِجَنابِهِمْ فَمُحِبُّهُمْ، لِلّهِ ما أَهْناهُ!
5) وإذا رَمَوْكَ بِجَفْوَةٍ، فَاصْبِرْ لَها فالصَّبْرُ قَدْ حَمِدَ الْوَرى عُقْباهُ
6) لِلّهِ صَبٌّ مُغْرَمٌ بِجَمالِهِمْ حُشِيَتْ بِأَسْرارِ الْغَرامِ حَشاهُ!
7) قَدْ رامَ إِخْفاءَ الْغَرامِ عَنِ الْوَرَى فَأَبانَ فَيْضُ الدَّمْعِ ما أَخْفاهُ!!

[718]- لا تُشبَع الهاء ليستقيم الوزن.

[719]- لا تُشبَع الياء ليستقيم الوزن.

8) وَرَأى التَّـهَـتُّكَ في الْغَـرامِ رَشـادَهُ ... وأَلَذُّ شَكْوى الصَّبِّ مـــا أَبْداهُ

9) وإذا الْمُحِبُّ صَـفـا شَـرابُ غَـرامِـهِ ... أَلْفى التَّـــهَـــتُّكَ في هَواهُ هُداهُ

10) قَلْبي بِمَنْ سَكَنوا بِرامَـةَ واجِـدٌ ... حَـيَّى الإلاهُ حِـمـاهُمُ وحَـمـاهُ

11) إنّي يُصَـيْـبُني[720] تَأَلُّقُ بَرْقِـهِمْ ... ويَروقُني مِنْ حَـيِّـهِمْ مَـرْآهُ

12) وَيَهيجُ أشْواقي نَسيمُ رُبُوعِـهِمْ ... فَـأَحِنُّ مِن شَـغَـفي إلى مَـسْراهُ

13) حَادي الرَّكابِ: إنْ وَصَلْتَ لِحَيِّهِمْ ... وأَنَخْتَ عـيسَكَ في فِناءِ حِـمـاهُ

14) حَلِّلْ تَرى تِلْكَ الدِّيارَ فَـــإنَّهُ ... قَـدْ فـاقَ طيبَ الطَّيِّـبـاتِ ذَكـاهُ

15) وإذا أَرَدْتَ تَوَصُّـلاً فَـتَـوَسَّلَنْ ... بِإمـــامِنا، فَلَهُ لَدَيْهِمْ جـــاهُ

16) شَيْخُ الْعُلى حَمْدونُ مَنْ حُمِدَتْ لَهُ ... أَعْـــلامُ رُشْـــدٍ شـــادَها بِعُـــلاهُ

17) قُطْبُ الْعَـوارِفِ وَالْمَعـارِفِ والنَّدى ... بَحْـــرُ العُلومِ الْمُــتَّـــقي الْأَوّاهُ

18) عَلَمُ الْهُدى، غَيْثُ الصَّدى، بَحْرُ النَّدى ... لَيْثُ الْعِـــدى. لِلَّهِ مـــا أَعْـــلاهُ!

19) مـا الْفَـخْـرُ إلاَّ بَعْضُ صِـفـاتِهِ ... والْمَـجْـدُ إلاَّ مـــا حَـواهُ رِداهُ

20) والْجـودُ إلا مـا جَـرى بِيَـمـينِهِ ... والْفَـــهْمُ إلا مـــا أبانَ نَـداهُ

21) أَلْقَتْ لَهُ كُلُّ الْعُلومِ قِـيـادَها ... وَحَـبَـتْـهُ مِنْهـا بِالَّذي تَرْضـاهُ

22) فَلَهُ لَدى كُلِّ الْعُلومِ مَـواقِفٌ ... وَمَـراتِبُ لا يَمْـتَطيـهـا سِـواهُ[721]

23) مَن ذا يُحـاوِلُ في الْبَـرِيَّةِ شَأْوَهُ!؟ ... ومَنِ الَّذي يَرْقى إلى مَـرْقـاهُ؟!

24) وَاللَّهُ شَـرَّفَـهُ بِحَـمْلِ عُلومِـهِ ... وَإلى ذُرى الْعَلْيـاءِ قَـدْ رَقّـاهُ[722]

25) وكَـسَـاهُ أثْوابَ النَّبـاهَةِ وَالْبَـهـا ... فَـغَـدا لِهـاذا العِلمِ بَدْرَ سَـمـاهُ

26) يامَـنْ يُؤَمِّـلُ في الْعُلومِ دِرايَةً ... ويُريدُ مِنْهـــا[723] بُلوغَ كُلِّ مُناهُ

27) أَنْزِلْ رِحـــالَكَ في ذُراهُ وَلُذْ بِهِ ... تَلْقَ الْمُنَى وتَـفُـــزْ بِرِضـــاهُ

720- في الأصل: ليصيبني. ولا يستقيم به الوزن.

721- الشطر ساقط الوزن. وقد تكرر البيت في الأصل.

722- تكرّر البيت في الأصل.

723- لا تُشبَع الهاء ليستقيم الوزن.

28) ما الضَّبْطُ والإتقانُ عَبْرَ كَلامِهِ والحَقُّ والتَّحْقيقُ تَحْتَ لِواهُ

29) كَمْ مُشْكِلٍ أدْجى، وكَمْ مِنْ غامِضٍ وَقَفَتْ عُقولُ الخَلْقِ عِنْدَ دُجاهُ

30) جَلَّى لَيالِيَ ظَلامِهِ بِذَكائِهِ[724] فَبِذاكَ بَدْرُ التَّمِّ لاحَ ضِياهُ

31) وَغَريبِ عِلْمٍ لَمْ يُفِدْهُ مُعَلِّمٌ كَلاًّ، ولا حامَ الأنامُ حِماهُ!!

32) أَبْدى لِمَجْلِسِ دَرْسِهِ فَتَحَيَّرَتْ طَرَباً عُقولُ النَّاسِ مِنْ مَعْناهُ[725]

33) قُلْ لِلْمُحاوِلِ شَأْوَهُ: أَقْصِرْ فَذا فَضْلُ الإلاهِ جَناهُ مَنْ يَخْشاهُ

34) ما رَوْضَةٌ سَحَبَ السَّحابُ ذُيولَهُ فيها وَحَيَّاها هَتونُ حَياهُ

35) فَكَساهُ مِنْ نَسْجِ الرَّبيعِ مَطارِفاً[726] وَشَّتْها[727] بِالنُّورِ البَديعِ يَداهُ

36) فَتَدَفَّقَتْ أَنْهارُها، وَتَفَتَّقَتْ أَزْهارُها، كَالمِسْكِ فاحَ شَذاهُ

37) وَجَرى النَّسيمُ الغَضُّ في عَرَصاتِها سَحَراً بِعِطْرٍ مِنْ شَذى أَعْلاهُ

38) فَتَرَنَّمَتْ أَطْيارُها، وتَمايَلَتْ أَغْصانُها، طَرَباً إلى لُقْياهُ

39) بِأَجَلَّ وَأَبْهى سَنًى وَنَضارَةً مِنْ دَرْسِ مَجْلِسِهِ، إذا يَغْشاهُ

40) لِلَّهِ يَوْمٌ قَدْ تَشَرَّفَ قَدْرُهُ[728] خَتَمَ البُخاري فيهِ وَقْتَ ضُحاهُ

41) قَدْ أَرَّجَ الأَرْجا تَأَرُّجُ طيبِهِ وبَدا عَلى كُلِّ الوُجودِ سَناهُ

42) أَبْدى غَوامِضَهُ، وفَكَّ رُموزَهُ وَبِسِرِّ نورِ ذَكائِهِ حَلاَّهُ

43) وكَساهُ بالإتْقانِ أَبْدَعَ حُلَّةٍ وَبِحِلْيَةِ التَّحْقيقِ قَدْ حَلاَّهُ

44) فَجَزاهُ رَبُّ العَرْشِ خَيْرَ جَزائِهِ وأَدامَ في فَلَكِ السُّعودِ عُلاهُ

45) خَتَمَ المُهَيْمِنُ بِالسَّعادَةِ عُمْرَنا فَضْلاً وَعَمَّ جَميعَنا بِرِضاهُ

46) وعَفا عَنِ الزَّلاَّتِ مِنْهُ تَكَرُّماً وَأَتاحَنا عِنْدَ اللِّقا رُحْماهُ

---

[724]- الشَّطر ساقط الوزن.

[725]- الشَّطر ساقط الوزن.

[726]- الشَّطر ساقط الوزن.

[727]- لا تُشبَع الهاء ليستقيم الوزن.

[728]- في الأصل: قدوة. ولعلّ الصواب ما أثبتنا.

47) وَشُيوخَنا والوالدينَ ومَنْ لَهُمْ وَالْمُسْلِمينَ الْكُلَّ يا رَبَّاهُ

48) بِشَفيعِنا خَيْرِ الخَلائِقِ أَحْمَدٍ مَنْ لا يُطيقُ ثَناهُ إلاّ اللَّهُ

49) صَلّى عَلَيْهِ اللَّهُ ما ذُكِرَ اسْمُهُ فَتَحَلَّتِ الآذانُ وَالأفْواهُ

50) وَالآلُ والصَّحْبُ الكِرامُ جَميعُهُمْ أَهْلُ الهُدى، وَالمُهْتَدي لِهُداهُ

[كافية عليّ بن إدريس قَصارَة]

وقول العلاّمة الدرّاكة المشارك أبي الحسن، سيّدي عليّ بن إدريس قَصارَة الحِمْيَري[729]:

[الطويل]

1) أَمِصْباحٌ اَمْ نَجْمٌ، أمِ الْبَدْرُ قَدْ بَدا، أمِ الشَّمْسُ في أُفْقِ السَّما، أمْ سَناكا ؟!

2) بَلى. نُورُكَ اللألاءُ في كُلِّ مَوْطِنٍ بَدا لِلْوَرَى لِيَهْتَدوا بِهُداكا

3) مَطالِعُ شَمْسِ الأُفْقِ دونَهُ رُتْبَةً فَلا ضَوْءَ إلاّ مِنْ شُموسِ سَماكا

4) عَلَوْتَ مَقاماً دونَهُ زُحَلٌ فَلا يُطيقُ عَلِيٌّ أن يُسامي عُلاكا

5) فَلَوْ أنَّ ماجِداً سَما لِلسَّما لَما تَجاوَزَ في الأَصْفادِ شَرْكَ حِذاكَا

6) وَمَنْ رامَ يَسْتَقْصي ثَناكَ بِمَدْحِهِ يَكُنْ فَخْرُهُ أَقْصى بُلوغاً لِذاكا

7) أَيُحْصى الحَصا ؟! هَيْهاتَ! وَهْوَ أَقَلُّ مِنْ قُلامَةِ ظُفْرٍ مِنْ عَظيمِ ثَناكا!!.

8) فَسُبْحانَ مَنْ أَوْلاكَ عِلْماً وَحِكْمَةً وَناداكَ مِنْ بَيْنِ الْوَرى وَحَباكا

9) وأحْيَى بِكَ الْعُلومَ بَعْدَ انْدِثارِها فَطارَ بِأَقْصى الْمَشْرِقَيْنِ سِماكا

10) فَكَمْ مُشْكِلٍ أَوْضَحْتَهُ أوْ كَشَفْتَهُ فَعادَ جَلِيّاً مِنْ صَباحِ حِجاكا!!

11) وكَمْ آيَةٍ لَمْ يُدْرَ كَشّافُ كَشْفِها فَأَبْرَزْتَها مِنْ خِدْرِها بِدَهاكا!!

12) لَقَدْ فُقْتَ تَدْقيقَ الْمَحَلّي فَحُلِّيَتْ بِطَلْعَتِكَ الدُّنْيا، وَحُسْنِ بَهاكا

13) فَلَوْ قيسَ مِنْ عَلْياكَ مِثْقالُ خَرْدَلٍ بِألْفٍ مِنَ الأتْرابِ زانَ بِذاكا

14) هَنيئاً أبا عَبْدِ الإلاهِ بِرُتْبَةٍ تُجاوِزُ جَوْزاءَ السَّما والسِّماكا

[729] - علاّمة مشارك من أهل فاس. (ت 1259 هـ) ترجمته في: السلوة: 2/265. الشّجرة: 1/398. رقم 1588. معجم المطبوعات: 288. رقم 658.

15) فَحَمْداً يا حَمْدونُ، شُكْراً لِمالِكٍ حَبـاكَ: أنالَكَ الْمُنى وَاصْطَفاكا

16) فَجُرَّ ذُيولَ الْفَخْرِ في مُضْمرِ الْعُلى فَكُلُّ فُحـولِ الْعَصْرِ تَحْتَ لِواكا

17) كَفاكَ افْتِخاراً أنَّكَ الْيَوْمَ واحِدٌ كَفَيْتَ الْوَرى عَنْ كُلِّ شَخْصٍ سِواكا

18) كَشَفْتَ الْقِناعَ عَنْ صَحيحِ الْبُخاري[730] ما تَرَكْتَ لِذي قَوْلٍ مَقالاً. حَشاكا

19) أبَنْتَ أسانيداً، وَوَضَّحْتَ مُسْنَداً، وَحَقَّقْتَ إشْكالاً، فَلا فَضَّ فاكا

20) ولازِلْتَ مَلْجَأً وحِصْناً لِكُلِّ مَنْ يَؤُمُّكَ راجِياً سَبيلَ هُداكا

21) فَدونَكَ مَدْحاً، يا إمامُ، مُرَوْنَقاً رَشَفْتُهُ مِنْ بِحارِ صَوْبِ نَداكا

22) يَروقُ جَميعَ السّامِعينَ عُذوبَةً ويُوجِبُ حَقّاً عَنْ سِواهُ غِناكا

23) فَيا لَلَّهِ مَنْ لي بِدَعْوَةٍ مُخلِصاً[731] يُضيئُ بِها قَلْبي. جُعِلْتُ فِداكا

24) فَيا رَبِّ بِالْبُخاري[732] ثُمَّ رِجالِهِ وَجاهِ النَّبِيِّ اخْتِمْ لَنا بِرِضاكا

25) وَقابِلْ بِفَضْلِ اللّهِ كُلَّ خَطيئَةٍ فَلا رَحِمٌ يُرْجى لِفَضْلٍ سِواكا

[تقريظ عليّ بن إدريس قَصارة الحِمْيَرِيّ لعُقود الفاتحة]

وقوله أيضاً، وهو ما كتبه لأبي الفيض، رحمه الله، على كتابه الموسوم بعقود الفاتحة وشرحه:

«الحمد لله. إن أشرفَ ما وُشّح به بياض وجنات الطُّروس، وأحسنَ ما حَلِيَت به ترائب السُّطور وتعطّرت به النُّفوس، حمدَ اللّه تعالى الحميد الملك الفتّاح، الّذي جعل حبَّ محمد وآله إكسيرا لكلّ فلاح، وسُلّما لسماء كلّ فضيلة ونجاح، وخصَّ من شاء بالتنزُّه في أزاهر تلك الرياحين الرائعة، والنظر لوجوه مخدَّرات هاتيك البساتين الرائعة، بل البارعة، فأطلقوا ألسنتهم في ميادين مدح ذالك الجناب، وأنفقوا فيه شذور ذهب البلاغة التي لم يأت بمثلها جواب. «كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شاكِلَتِه»[733]، ويُنفِق على قدر بضاعته.

[730]- لا تشبع الياء ليستقيم الوزن.

[731]- الشطر ساقط الوزن.

[732]- لا تشبع الياء ليستقيم الوزن.

[733]- سورة الإسراء: 84.

فيا لها منحةً ما أعظمها، وموهبةً ما أجلّها وأكرمَها!، إذأحقُّ ما صُرِفت فيه هِمم الأئمة الأعلام، ورقمته يد الأقلام، على صفحات الأيام، مدحُ سيِّدنا ومولانا محمّد عليه أفضلُ الصّلاة والسّلام.

هذا، وإنّ ممن أحرز قصب السّبق في تلك الميادين، وقطع بسنان براعته لسان الطّلق القوي المتين، النِّحرير الأديب الألمعيّ، الأريب اللوذعيّ، مُقَلِّد جيد البلاغة بعُقود الجمان، وقلائد العقيان، المفتضّ من غواني المعاني أبكاراً لم يطمثهُنّ إنس قبله ولا جان، لو أدركه قُسُّ بن ساعِدَة، لتمنّى أن يُقبِّل كفّه وساعده، أو لو عاصره سَحْبان، لتملّق لتقبيل أخمصه والبنان، أو لو شاهده مالك، لاعترف أنّه لمذهبه مالك، أو لو أدركه أبو الحسن الأشعري[734]، لأقرّ أنّه بالأمانة في علم الكلام جدير وحريّ.

كيف لا، وهو مالك أزمة العلوم معقولها ومنقولها، والمحيطُ بما في سمائها وأرضها، شمسُ سماء عِلْمَي التّفسير والحديث، والآتي من رقائق المعاني بما لم يُسبَق إليه به في القديم والحديث، محيي رسوم الطريقة، والجامع بين الشّريعة والحقيقة، مصباح مشكاة الأنوار، وصاحب الأمداح النبوية التي ملأ صيتُها الأنجاد والأغوار، شيخُنا البدر الوهّاج، اللاّبسُ من مآثر المفاخر الإكليلَ والتّاج، سيّدُنا ووسيلتُنا إلى ربّنا، مولانا حمدونُ ابن الحاج، برّد اللهُ ضريحَه، وأسكنه من الجنان فسيحَه، فكم له في ذالك من قصائد تُزري بالنجوم الزّواهر، ومقطّعاتٌ وتوشيحات سحرت لُبَّ السّامِع والناظر، سيما هذا النظم العجيب الموسوم بعقود الفاتحة، وشرحه النفيس الّذي به مبانيها واضحة، فقد أبدع، سقى اللّه ثراه، فيهما غاية الإبداع، وأتى من أسرار البلاغة بما لا يُمكِن أن يُستَطاع، وانقضت دون الوصول إليهما الأماني والأطماع.

فيا له من تأليف قد جمع من دقائق المعاني، ما أخجل الدُّرَّ على نُحور الغواني، ومن رقائق الأشعار، ما لم يكن لناظم به إشعار. بيد أن ألفاظَ معانيه ضاحكةٌ مستبشرة، وعيونَ معانيه وافرة منهمرة. قد أخذ بمجامع القلوب، وأحرز من فرائد الفوائد كلَّ مطلوب ومرغوب،

[734]- عليّ بن إسماعيل. إمام المتكلمة الأشاعرة. (ت 334هـ). ترجمته في: الوفيات: 3/248-268. رقم 429. الترتيب: 5/24-30. الدّيباج: 2/94-96. الشجرة: 1/79. رقم 187.

فإياك أن يخالج ظنَّك أن قد أتى أحدٌ بمثاله، أو نسج على طريقه ومنواله:

[الطويل]

1) فَـــفي كُلِّ لَفْظٍ مِنْهُ دُرٌّ مِنَ الْمُنى وَفي كُلِّ سَطْرٍ مِنْهُ عِـقْـدٌ مِنَ الدُّرِّ

تقبَّل الله من مؤلِّفه وحباه فضلا كثيرا، وجزاه عن صنيعه جنة وحريرا، وحين وقفتُ على ما كتب عليه بعض الأئمة الأعلام، لم أملك لنفسي [من] [735] زمام، حتى أنشأتُ في الحال، وقلتُ شبه ارتجال:

[الكامل]

1) أشُـذورُ إبْريزٍ تَناسقَ نَظْمُـهـا بِنَفـــيسِ دُرٍّ باهرٍ مَكْنونِ؟
2) أخَمـائِلُ الأزهارِ دبَّجَـهـا الحَـيا مِـنْ أتْرابِ حـــورِ الْعينِ؟[736]
3) أبَلابِلُ الأفنانِ تُنْبِـــينا بِمـــا قَـدْ أبْصَـرَتْهُ بِرَوْضِـهـا بِلُحونِ؟
4) أو ذي بُحورُ المِسْكِ ضَاعَ عَبيرُها تُزري بِنَشْـرِ الْمِـسْكِ من دارينِ؟
5) أمْ ذي يَنابِعُ بِالْعُلومِ تَفَـجَّـرتْ مِنْ فكْرِ عـالِمِ غَـرْبِنا حَـمْـدونِ؟
6) كَـهْفُ الأنامِ الدُّرَّةُ النَّسِـيكُ مَنْ أحْـيَى الْعُلومَ، وَشـادَ رُكْنَ الدِّينِ
7) صِنْوُ المَعـارِفِ والعَـوارِفِ والتُّقى بَحـــرُ النَّوالِ الزَّاخِـرِ المأمُـــونِ
8) مَنْ قَلَّدَ القِـرطاسَ دُراً مِـثْلَمـا قَـــدْ قَـــرَّطَ الآذانَ بِـالْمَـــوزونِ
9) تَاللّهِ مـــا يَأتي الزَّمـــانُ وَلا أتى يَوْمـاً بِمِـثْلِهِ في البَـهـا وَاللِّينِ
10) فَجُزيتَ خَـيْراً عَنْ صَنيعِ البِـرِّ يا حَـمْـدونُ، مَـحـمـوداً لِيَـوْمِ الدِّينِ
11) أنْعَـشْـتَنا بِمَـديحِكَ الأسْنى الّذي يَسْـمُـــو بِنورِ الـمُـصْطَفى ياسينِ
12) فَـأنِلْ إلاهي شَـيْــخَنا بِنَبِــيِّنا أجْـراً عَظيـمًـا لَيْسَ بِالـمَـمْنونِ
13) صلّى عَلَيْــهِ وآلِهِ الرَّحـمـانُ مـا صَـدَحَ الهَـزارُ بِرَوْضِـهِ الـمَـيْـمـونِ

وكتب عبد ربِّه، وأسير ذنبه، عليّ بن إدريس بن محمَّد بن أحمد قَصارَة الحِمْيَرِيّ

[735]- زيادة منّا ليستقيم الإعراب والفاصلة.

[736]- الشطر ساقط الوزن.

جعله»[737]

[عودة إلى تهنئات الختم]

[رائيّة غُفل]

وقول غيره:

[الكامل]

1) ياجاهِلاً يَرْمي الكِرامَ بِغَيْبَةٍ وَاللّهُ يَعْلَمُ إنّها إحْدى الكُبَرْ
2) ما ضَرَّ دُراً في العُقودِ مُنَظَّمًا سَلَبَ العُقُولَ فَحُسْنُهُ نَفْثُ البَصَرْ
3) يا صَقْرَ مِرْداسٍ وَعالِمَها الَّذي صاغَ الكَلامَ قَلائداً بَيْنَ البَشَرْ
4) لِلّهِ دَرُّكَ مِنْ هُمامٍ ماهِرٍ أنْشا[738] وَوَشّى، وَالمعاني قَدْ حَشَرْ
5) لَمْ أسْتَطِعْ تَعْدادَ أوصافٍ لَكُمْ لا حَصْرَ، يا بَحْرَ العُلومِ، ولا حَصَرْ
6) حَاشاكَ، ياشَمْسَ العُلى يا ماجِداً، حَكى الحلى، وَعَلا جَمالُهُ وانْتَشَرْ
7) أنْتَ الفَريدُ، وَرَوْضُ فِكْرِكَ زاهِرٌ أنتَ البَديعُ بِسِحْرِ شِعْرِكَ يُفْتَخَرْ
8) قَدْ كُنْتَ «سَعْداً» لِلسُّعودِ «مُطوّلاً» في العِلْمِ والإتْقانِ لَيْسَ «بِمُخْتَصَرْ»
9) قَدْ غُصْتَ في بَحْرِ البَلاغَةِ مُفْرَداً وَأتَيْتَ بِالغُرِّ الكِرامِ وَبِالغُرَرْ
10) قَدْ كُنْتَ تاجًا لِلزّمانِ مُرَصَّعًا رَقَصَتْ بِكُمْ زُهرُ النُّجُومِ مَعَ القَمَرْ
11) شَهِدَتْ بِأنَّكَ، يانَزيهُ، مُنَزَّهٌ حَتّى الأجِنَّةُ والجُنونُ وما ظَهَرْ
12) فَسَقى ضَريحَكَ ثُمَّ روحَكَ عارِضٌ مِنْ رَحْمَةِ الرَّحمانِ، لا صَوْبُ المَطَرْ

[هائيّة محمّد اليازِغي]

وقول العلاّمة الأديب، سيّدي محمّد اليازغيّ، في مدح أبي الفيض، سيّدي حمدون، عند ختم «مختصر» السّعد للتفتزاني[739]:

---

[737]- بقيت الجملة غير كاملة في الأصل، وبه انتهى التقريظ.

[738]- تُسَهّل الهمزة لإقامة الوزن.

[739]- مسعود بن عُمَر، بلاغي، مشهور، (ت 791هـ) ترجمته في: الدُّرَّة: 3/13-14، رقم 900. الدُّرَر الكامنة:4/350. رقم 953. طبقات الداودي: 2/319، رقم 630. بغية الوعاة: 2/285. رقم 1992.

[الطويل]

1) رَسائِلُ سُعْدى أعْلَمَتْنَا بِوَصْلِها فَبُشْرى لَنا بِقُرْبِها بَعْدَ بُعْدِها

2) خَليلَيَّ آن الوَصْلُ، هذا رِياضُنا تَعَطَّرَتِ الأرجاءُ مِنْهُ بِعَرْفِها

3) يُحَسِّنُها غَيْثُ السَّحابِ بِأحْمَرٍ عَلى أبْيَضٍ تَسْبي وَمانِعِ لَوْنِها

4) وَهذي غُصونُ البانِ فيه تَمَثَّلَتْ لَنا غَيْرَةً فيهِ لِسُعْدى بِعِطْفِها

5) وَهَذا سَقيطُ الزَّهْرِ فَوْقَ رُؤوسنا تَبَسَّمَ يَحْكي[740] حُسْنَ ثَغْرِها

6) وبِماءِ وَرْدِهِ يَحْكي، وَقَدْ رَشَّهُ النَّدى[741] لَها، إذ سَرى ماءُ الحَياءِ بِوَجْهِها

7) وهاؤُها قَدْ راقَ حُسْنًا وَمَنْظَراً[742] وَشَمْسُ عَشِيٍّ قَدْ حَكَتْهُ بِثَوْبِها

8) [[743]] عليه له تومي سجودا برأسها

9) وأطياره فوق الأراكِ صوادحٌ مهيجة قلبَ العشيقِ بلحنها

10) كما هيجتْ قلبي لوَصلِ غزالةٍ يفوق الغَزال في الضُحى شطرُ حسنها

11) مُهفهَفَةٌ تحكي سوالف حسنها أفاعي يذُدْنَ من يرومُ بنحرها

12) دهَتني بُطونُ فاتنٍ صحَّ نَبلُه سقيمٌ له ظلٌّ على شمس خدها

13) مليحة قدٌّ مائلٍ غير أنها تميِّلُني نحو الرداد بنحوها

14) إذا برزَتْ، يزوي صباحُ جبينها وإن نطقتْ، أغنتْ أحاديثُ لفظِها

15) بكل صباحٍ، أو هلالٍ، وعن سما عِ صوتِ أغانٍ في الملاهي ونقرها

16) وأغنى رُضابُ الثغرِ منها وقدُّها ولحْظُ جفونٍ عنْ حميًّا وشربها

17) وسيفٍ، وعنْ رمحٍ، فلِلَّهِ ماجرى بقلب كئيبٍ منْ جفونٍ وسحرها

معجم المطبوعات: 58. رقم 144.

[740]- بياض في الأصل.

[741]- الشطر ساقط الوزن، وقد كتب عليه في الأصل« كذا ».

[742]- الشطر ساقط الوزن، وقد كتب عليه في الأصل« كذا ». ولعل الصّواب: بَهاؤُها قد راق...

[743]- بياض في الأصل.

18) فمَنْ لي[بها][744] هيفاءَ تسطو كأنها   بسطوتهـا الزبّاءُ حلّتْ بقـصـرها
19) نرى حسنها يشفي الغليل لعلّني   تُخلّصُ قلبي من شَغُـولٍ لمدحـهـا
20) ونحـيي رسـوم الحب بعـد فنائهـا   كـإحيـا ء شيـخنا العلوم بأسـرها
21) وسـيلتنا خُلقُ المَجادَةِ مـبـديا   غـوامضَ أسـتـار المعـاني ولغـزها
22) مـقلّدُ أجـيــال العلوم بلفظه   لآلي[745] بيـانٍ لا تُصـانُ لصنعـهـا
23) سَمَيدعُنا ذُخْراي[746] حمدون من سما   على كلِّ سـام بالعلوم وفـضلِهـا
24) زكى خلقـا دقّتْ سـرائر فـهـمـه   فـلا تظفـرن أصحـاب علم بكتـبـها
25) بدا بدره فـوق السِّمـاكين مُـقْمراً   يعُمُّ الورى نورا تحـقُّقُ سـعـدها
26) وكم أظهـرت أسـرار علم بمجلسٍ   يميل به سكْرً ا بأطيب رشـفـهـا
27) ولا سيـمـا رقّتْ حـواشٍ له فـقـد   تفـيض علينا من جـواهر ثغـرها
28) خليليَ دعْ عنّي مـقـالة حـاسـدٍ   [[747]]
29) فـأين ترى الشـمس المنيـرةَ مـقلةٌ   بهـا رمـدٌ هيـهـاتَ ذاك بجرمـهـا ؟!
30) جـزاه إلاه العـرش خـيـر جـزائِه   وأبقــاه دهراً في العلوم يُمِـدُّها
31) وأتحَفَـه بدْءاً، وفي الختم رحـمـةً   بخـير الورى، شمسِ المعـالي وبدرِها
32) عليـه صــلاة الله والآلِ جـملةً   وأزكى سـلامٍ، مـا تَحنُّ لوكـرها
33) حـمـامٌ وقـالتْ عند وصلِ أحبّـةٍ:   «رسائلُ سُعدى أعلمتنا بوصلها»

[رائية جسوس]

وللعلامة الصالح، سيدي المفضل جسوس[748] في مدح الشيخ سيدي حمدون ابن الحاج السلمي المرداسي، رحمه الله:

---

[744]- زيادة لم ترد بالأصل، ليستقيم الوزن والتركيب والمعنى.

[745]- تسهل الهمزة ليستقيم الوزن.

[746]- كذا بالأصل.

[747]- بياض في الأصل.

[748]- أورد المؤلف 13 بيتا من هذه القصيدة في الباب الأول، ونسبها لمحمد جسوس، ولا شك أن الرجلين واحد.

[الكامل]

1) يامن تنَفَّسَ بالمغارب صُبْحُهُ ... وأضاء منه الشرقُ حيثُ أنارا

2) يا ناسخًا بدرايةٍ وروايةٍ ... ليلَ الجهالة، فاستحال نهارا

3)يا[749] معلّما في كل عِلمٍ معلماً ... درستْ دروسُه فانمحى وتوارى

4) أحيى من الآثار للأثرِ الذي ... قدمًا عَفَتْ أطلالُهُ آثارا

5) وأعارَ بعد النشرِ طيٌّ لوائه ... وأشاد فيه للاهتداء منارا

6) بَشَّرتمُ من قال في أبوابكمْ ... متكفّفًا من نوركم أسراراً

7) بشرتموه بأنه قد نال منْ ... علم الحديث وغيره الأوطارا

8) ما ذاك إلا أنكم خَوَّلتمو ... هُ من سحائبِ غيثكمْ مِدْراراً

9) لم لا وقد أضحى قديما جاركم ... ونَوالُكُمْ لا تمنعونه[750] جارا

10) لم لا، وأنتم أهل كل فضيلة ... وبرفدكم صيتُ الورى قد طارا

11)لم لا ونيلُ نيلِكم من كفكمْ ... جرى عُبابهُ، فاستقل بحارا ؟!

12) إني جديرٌ بالمُناء وبالمنى ... لازَمتُ، سراً بابكمْ، وجهارا

13) طِبْتُمْ فروعًا في الحديث بمجدكم ... وكذاك طبتم في القديم نِجارا[751]

14) قد سدْتُمُ في غابرِ الأزمان مَن ... ضاهاكم وغلبتموه فخارا

15)وافتكم بوراثةِ تلكَ المكا ... رمِ، إذْ وردتم في الفخار نزارا

16) وإذا الفخارُ الفخرُ كان مؤصّلا ... من سالفِ الأجداد كان يبارى

17) هذا هو الشرف الذي لما بدا ... أبدت لغرّته البدورُ صَغارا

749- لا تشبع الياء ليستقيم الوزن.

750- في الأصل: تمنعوه، ولعل الصواب ما أثبتنا.

751- الأبيات 13-23 واردة في الباب الأول، وعليه قابلناها.

18) هذا هو الفخر الذي ما ناله[752] لعلُوِّهِ كِسرى وجاوز دارا

19) لا غورَ في هذا وقد كنتم لخيـ ـرِ المرسلين لديه أنصارا

20) كم ذاد عباسُ بنُ مرداسٍ أبو كُمْ عنه، إن حربُ تأجَّجُ نارا

21) ليث الكتائبِ في الوغى ما إن له إن فرَّتِ الأبطالُ ثم فرارا

22) الناسُ كلُّهم دثارٌ، وأنتم كنتم لخير العالمين دثارا[753]

23) مازال نورُه فيكم طورا يلو حُ عليكمُ، ويعمكم أطوارا

24) قد نلتم من ذاك خَلعَة بهجةٍ وجلالةً ومهابةً ووقارا

25) هذي فنونٌ من أزاهرِ فكرتي تَسبي العقولَ، وتسحرُ الأبصارا

26) هذي عقودُ زَبَرْجَدٍ أولاكها مَن غاص في استجلابِها أفكارا

27) فهاكها من قاصرٍ في وصفكمْ فاقبلْ، وإن لم أحْبُكمْ معشارا

28) لو رمتُ إرْعافَ اليراعِ بمدحكمْ طول الليالي، مابلغت قرارا

29) لا زالت الأيام زهرا باسما بوجودكمْ تسمو به أعصارا

30) لازالت الغبرا بكمْ تسمو على الـ خضرا، تُباهي الشمس والأقمارا

31) وسقى ربوعكم الإلاه بفضله وأماطَ عنه بمنِّه الأكدارا

32) أحمد لحمدون حميدِ وأحمد[754] عقباهُ واجعل ختمها معطارا

[تائية جعفر بن الطالب ابن سودة]

وهذه القصيدة للفقيه الأديب البارع، أبي فارس، سيدي جعفر، ابن الفقيه سيدي الطالب ابن سودة المري[755]، خاطب بها ولد صاحب الديوان، [الفقيه النبيه القاضي، سيدي محمد الطالب ابن حمدون ابن الحاج السلمي المرداسي، كان الله للجميع[756]].

---

[752]- في الأصل: كاله.

[753]- في الأصل: شعاراً.

[754]- كذا بالأصل، ومعنى البيت غير واضح، ووزن الشطر ساقط.

[755]- أديب عالم فاسي، (ت 1276هـ) ترجمته في السلوة: 1/119-120 . الدرر: 2/301.

[756]- لا ندري كيف ذكر المؤلف اسمه هنا، مع أوصاف التحلية، ولعل هذا من عمل الناسخ.

[الكامل]

1) ياطالبَ الإكسير رُحتُ براحةٍ ... وبها السعادةُ في صعيد الراحةِ
2) يا روضَ علمٍ زاهرٍ بغصونه ... طيرُ البراعةِ أعجزتْ بخطابةِ
3) ألفقه عندك، والحديث محبَّرٌ، ... ومحرَّرٌ، ومقرَّرٌ، عن قتادة[757]
4) أنت «المطوَّلُ»، طال بحرُ علومه ... والسعدُ أنت شقيقُهُ ببلاغةِ
5) طالت لذا التقريرِ أبحاثٌ لكمْ ... صالتْ، أخي، بأصالةٍ وإصابةِ
6) أسلاك درٍّ في قلائد جوهرٍ ... أسلاك سحر جمالها بملاحةِ
7) عُرفتْ لكمْ، والحال أعدل شاهدٍ، ... من ماجدٍ من فكرةٍ وقادةِ
8) أوثقتَ بالتحقيق علمَ وثائقٍ ... وسبقتنا لإجادةٍ ومجادةِ
9) فلأنت في حيٍّ المكارمِ ثمرةٌ ... تحيي مآثر في بساط عدالةِ
10) ولأنت شمس نباهةٍ ونبالةٍ ... ولأنت في التحقيق أعظم آيةِ
11) يا كنز درٍّ، في معادن عسْجَدٍ، ... ياطبُّ ضُرٍّ، من بلاءِ بلادةِ
12) لا تعتقدْ أن الحَسودَ مُسوَّدٌ ... مزجَ المُريدُ صفاءَه بسفاهةِ
13) أين[758] الذي نشر العلوم وجدُّه ... نصر الرسولَ فردُّه بذخيرةٍ؟!
14) قل للجَهول يعُدُّ أسلافًا لهُ ... في الفضلِ قد سلفوا، وجئْ بشهادةِ
15) خذها على قصرٍ يزينُ خريدةً ... عذراءَ بكراً، قد أتت ببشارةِ
16) ورشاقةٍ في قدِّها، ومنيَّةٍ، ... في لَحْظِها، وحواجبٍ رشاقةِ
17) خرَّت لها البلاد فإن تنصِب اسمها[759] ... لمعاندٍ ومعارضٍ بجهالةِ
18) ترمي بأجفانٍ لها وحواجبٍ ... تنسي الأسى حسنيَّةٍ حسانةِ
19) صيغَتْ بديعا في بديعٍ هاكها ... شمسَ الضُّحى منقادةً بقلادةِ

[757]- الشطر ساقط الوزن.

[758]- في الأصل: فأين، ولا يستقيم به الوزن.

[759]- كذا بالأصل، ولا يستقيم للشطر وزن ولا معنى.

20) زُفَّتْ لبيتِ المجدِ في جودٍ جرى　　في رونقٍ، في رقَّـةٍ ، ولطافـةٍ
21) في حلّةٍ، في حِليـةٍ، في حـالةٍ　　تنسي الأسى حُسْنيـةٍ حسّـانةٍ
22) مـرحى مـرةً من بليغٍ شـاعـرٍ　　بل سـاحـرٍ مـتـفـرِّدٍ بصناعـةٍ
23) صـاغ الثناءَ منظّمـاً ومنضَّـدا　　ومـرصَّـفـا ومـرصَّـعـاً بيـتـيـمـةٍ

[رثاء الشعراء لأبي الفيض حمدون ابن الحاج]

ولما توفي صاحب هذا الديوان، رحمه الله تعالى، كثرت فيه المراثي، وتنافست في شجوه القرائح، وبكاه الغادي والرائح.

[رائية محمد اليازغي]

فمن المراثي التي أُنشِدَت على قبره، قولُ شيخنا العلاّمة الدَّرّاكَة، تاج الأدباء، أبي عبد الله، سيّدي محمَّد ابن الفقيه العَدْل، أبي بكر، ابن العلامة سيّدي عبد الكريم اليازغي، رحمه الله:

[الطويل]

1) أيا مَعْشَرَ الإسْلامِ كونوا عَلى حَذَرْ　　فَإنّي أرى عِقْدَ العُلومِ قَدِ انتَثَر
2) فَفي كُلِّ عامٍ يَنْثُرُ الدَّهْرُ دُرَّةً　　ويُنْزِلُ منْ بُرْجِ العُلى والهُدى قَمَرْ
3) ويُسْكِنُ شَمْسَ الفضْلِ في ظُلَمِ الثّرى　　ويُخْمِدُ نَجْمَ الهُدى[760] مِنْ بَعْدِما سَفَرْ
4) مَصائِبُ عَنْها الصُّبْحُ أصْبَحَ مُسْفِراً　　وأُخْرى عَلى أهوالِها اللّيلُ قدْ سَفَرْ
5) مَصائبُ مِنها القلْبُ يَحْسُنُ ذَوْبُهُ　　ويَدْأبُ في حَيْراتِها اللُّبُّ والبَصَرْ
6) وَلا كَمُصابٍ بالإمامِ الّذي بهِ　　هِلالُ الهُدى قَدْ عَمَّ مِنْ بَعْدِ ما ظَهَرْ
7) سَليلُ التُّقى، حَمْدونُ ذو الخُلقِ الّذي　　منَ المِسْكِ أذكىَ في شَذى، وَمِنَ الزَّهَرْ
8) وَمَنْ كانَ، والجَوْزاءُ تَخْدُمُ نَعْلَهُ،　　يُرى في خُصُومٍ، لا ضَعْفٌ ولا خَوَرْ
9) ومَنْ كانَ، والأيّامُ تَتْبَعُ أمْرَهُ　　لأمْرِ ضَعيفِ النّاسِ يَتْبَعُ، إن أمَرْ
10) ومَنْ كانَ، وَالإسْعادُ يَعْشَقُ قُرْبَهُ　　وَإنْ صَدَّ عَنْهُ بِالمناكِبِ أوْ هَجَرْ

[760]- لاتشبع الكلمة ليستقيم الوزن.

11) ومَنْ كـانَ لا يَلْوي على أحَدٍ ولا يَرى الفَـضْلَ إلاّ مِنْ إلاهٍ بِهِ غَـبَـرْ

12) ومَنْ كانَ عَنْ قَيْدِ التَّكَلُّفِ مُطْلَقًا ولَكِنَّهُ قَـدْ قَــيَّـدَ الفِـعْلَ بِالأثَرْ

13) فَـسَعْـيًـا لِقَبْـرٍ ضَمَّ أعْظُمَـهُ فَكَمْ حَوى مِنْ عُلى، مَنْ رامَها رُدَّ بِالحَصَرْ

14) فَـيـا قَـبْـرُ لا زالَتْ عَلَيْكَ سَواكِبُ مِنَ الرَّحَـمـاتِ الوارِداتِ كَـمـا المَطَرْ

15) لكَ الشَّرَفُ البادي، ألَسْتَ ضَمَمْتَ مَنْ بِهِ البَدْرُ مَشْغوفٌ، كما شُغِفَ الحَضَرْ

16) ألَسْتَ ضَجيعَ العِلْمِ والحُكْمِ والنَّدى ألَستَ لِشَمْسِ العِلْمِ أفْضَلَ مُسْتَقَرْ؟

17) فَقَدْ صِرْتَ مَحْسوداً، وحَقٌّ لِحاسِدٍ فَـفيكَ رِياضُ الدّينِ وَالعِلْمِ قدْ غَبَرْ

18) وَمَن قَـصَّـرَتْ أيّامُـهُ، وَعُلومُـهُ تَحَلَّتْ، فَـلا تُرْمى بِقَـصْـرٍ ولا قِـصَـرْ

19) عُلومٌ بِهـا باهَى الأوائِلَ وارْتَقى مَراقِيَ رأسُ النَّجْمِ فيها قَدِ اسْتَقَرْ

20) بِهِ اكْتُسِيَتْ طَرْزاً عَلى طَرْزِ أهْلِها وزادَتْ بِها في أعْيُنِ الفِكْرِ والنَّظَرْ

21) وصارَتْ رِيَاضًا بِالتَّحَقُّقِ أيْنَعَتْ وفيها خَليجُ الذَّوْقِ قدْ فاضَ وانْهَمَرْ

22) وَدَلَّلَ من أغْـصانِها كُلَّ مُـثْـمِرٍ وأَطلَعَ في غُصْنِ الخِلافِ بِها ثَـمَرْ

23) وَذالِكَ أجْلى، والبَديهَـةُ تَقْـتَضي تَرَتُّبَ إنْتــاجٍ، إذ ظَهَـــرَ الأثَرْ

24) فأوْضاعُهُ جَلَّتْ، وأجْلَتْ عَرائِسًا مَـحاسِنُهُ كَمْ مِنْ لَبيبٍ بِها سَـحَـرْ

25) بِها كانَ لِلسَّعْدِ ابْتِهاجٌ وبَهْجَةٌ وَلِلفَـخْـرِ نُطْقٌ والمَـحافِلُ تُنْتَظَرْ

26) بِها صُوَرُ الحُسْنِ الفَريدِ تكامَلَتْ وكَمْ صُوَرٍ فيها مِنَ المَجْدِ تُبْتَكَرْ

27) ومَنْ بَقِيَتْ أوضاعُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ فَلا زالَ حَيًا في عُيونِ الوَرى حَوَرْ

28) وَلكِنْ لأحْـوالِ العِـيـانِ لَطائِفٌ فَلَهْفي عَلى ذاكَ المُحَيَّا الَّذي غَبَرْ

29) وَلَهْـفي على أيّامِ أُنْسٍ قَضَيْتُها بِهِ، وَعُـيـونُ الدَّهْرِ مِنّا على خَطَرْ

30) وَلَهْـفي عَلى وُدٍّ حَـبـاني صَـفْـوَهُ وَمـا كـانَ في ظَنّي يَؤولُ إلى كَـدَرْ

31) وَلَكِنَّها الدُّنْيـا قَليلٌ مَـتـاعُـهـا فَمَنْ رامَها، قَدْ عامَلَ النَّفْسَ بِالغَرَرْ

32) إذا جَـمَـعَتْ يَوْمًـا، فَإنَّ فِراقَـهـا يَكْسِرُ مِنْ جَمْعِ السَّلامَةِ ما حَضَرْ

33) وَلَكِن، عَـزاءً مَـعْشَرَ النّاسِ، إنَّهُ مُصابٌ بِهِ نالَ المَـفـازَ مَنِ اصْطَبَرْ

34) فَما المَوْتُ يُزْري بِالشَّريفِ، ولا البَقا ... شَفوقٌ لذي جَهْلٍ، يَسومُ كَما البقَرْ
35) وفي مَنْ مَضى لِلْعاقِلِ الرِّشْدِ إسْوَةٌ ... تُسَهِّلُ ما أدْهى الفُؤادَ وما أمَرْ
36) فَمِنْ قَبْلِهِ الصِّدّيقُ ذاقَ مَنِيَّةً ... وَدَبَّتْ إلى الفاروقِ في أحْسَنِ الصُّوَرْ
37) وَما وَقَّرَتْ عُثْمانَ، ثُمَّ انْثَنَتْ إلى ... أبي حَسَنٍ عَلِيٍّ الصّارِمِ الذَّكَرْ
38) وَدَبَّتْ إلى سَعْدٍ، وَأوْدَتْ بِخالدٍ، ... وأخْنَتْ على عَمْرٍو، بِما فَتَكَتْ عُمَرْ
39) وما رَدَّها عَنْ حَمْزَةٍ ضَرَباتُهُ، ... وَلا عَنْ زُبَيْرٍ ما بِهِ الْكُفْرُ قَدْ زَبَرْ
40) وَما راعَها الْمِقْدادُ، بِالقَدِّ لِلْعِدى، ... وَما صَدَّها عَنْ طَلْحَةَ، ما بِهِ بَهَرْ
41) وَلا نَظَرَتْ في ابْنِ الْمُسَيَّبِ عِلْمَهُ ... وَفي ابنِ جُبَيْرٍ، مابِهِ الدِّينَ قَدْ جَبَرْ
42) وَلا صَدَّهَا عَنْ مالكٍ، مُلْكُ عِلْمِه، ... وَلا أبْقَتِ النُّعْمانَ، في الرَّأيِ مُعْتَبَرْ
43) وَلا شَفَعَتْ لِلشّافِعِيِّ، عُلُومُهُ، ... وَإيثارُهُ، حَيْثُ السَّحائِبُ تُنْتَظَرْ
44) وَلا عَرَفَتْ نَفْيَ الكَرى، لابْنِ حَنْبَلٍ ... وَقَدْ مالَ خَمْرُ النّائِمينَ بِمَنْ سَحَرْ
45) وَهَذي سَجِيّاتُ الْمَنايا وَدَأْبُها ... فَقُلْ لِلْعِدى: إنْ ماتَ حَمْدونُ ما انْدَثَرْ
46) وَمَنْ خَلَّفَ الذِّكْرَ الجَميلَ، فَما انْقَضى، ... وإنْ سَكَنَ البِلى، فَأيّامُهُ غُرَرْ
47) وَأعْمالُهُ غَراً، تَزورُهُ سَكْرَةٌ ... فَيَسْرَحُ مِنْها في رِياضٍ على نَهَرْ
48) تُغازِلُهُ حورٌ، وَقَدْ كانَ في الدُّنا ... تُغازِلُهُ حورُ اللَّطائِفِ وَالدُّرَرْ
49) وبَيْنَ اقْتِناصِ الْعِلْمِ والحورِ نِسْبَةٌ ... فَقُلْ لِلْعِدى: بِالجَهْلِ سِرْتُمْ إلى سَقَرْ
50) وَهَبْ أنَّ الدَّهْرَ أبْقى نَعيمَكُمْ ... فَلا بُدَّ مِنْ يَومٍ تَطيشُ بِهِ الْفِكَرْ
51) سَلوا الدَّهْرَ عَنْ ساسانَ كَيْفَ أبادَهُمْ ... وَأبْقاهُمُ في الكَوْنِ مِنْ أعْظَمِ العِبَرْ
52) وَعَنْ سَبَإٍ، كَيْفَ ارْتَقى لِبُروجِهِمْ ... وَأنْزَلَهم مِنْ بَعْدِ عِزٍّ وَمُفْتَخَرْ
53) وَحاصِلُ هذا الدَّهْرِ، هَدْمُ مُشَيَّدٍ، ... بِفُقْدانِ شَيْخٍ، كانَ لِلدَّهْرِ مُدَّخَرْ
54) وَلَكِنْ، بِعَيْنِ الصَّفْحِ نَنْظُرُهُ إذا ... بِأبْنائِه قَدْ أحْسَنَ الْخُبْرَ والْخَبَرْ
55) أدامَ الإلاهُ عِزَّهُمْ وأنالَهُمْ ... رِضاهُ، وأوْلاهُم مِنَ الْفَخْرِ ما يَسُرْ
56) بِجاهِ إمامِ الْمُرْسَلينَ مُحَمَّدٍ ... عَلَيْهِ صَلاةٌ، ما هِلالُ الدُّجى ظَهَرْ

[رائيَّة محمَّد بوزيد الخُمُسيّ العرائِشيّ]

وقول الأديب البارع المشارك، أبي عبد الله، سيدي محمَّد بن عليّ بن محمَّد، بوزيد العرائشي الخُمُسيّ:

[الكامل]

1) بأبي تُرى صافَحْتَ فيهِ الْحورا ... ونَزَلْتَ في ساحاتِهِ مَبْرورا

2) وتَرَكْتَ ياحَمْدونُ أفْئِدَةَ الوَرى ... قَدْ أودعَتْ أحْشاؤُهُنَّ سَعيرا

3) وَمَنَازِلاً، هاجَرْتَها، وَمَعالِمًا، ... وَأَوانِسًا، فارَقْتَها، وَقُصورا

4) وَمَجالِسًا، دَرَسَتْ، كَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ، ... تُمْلي بها الآثارَ والتَّفْسيرا

5) وَمَنابِراً، قَدْ طالَمَا تَتْلو بِها ... وَعْظًا يُلينُ جَنادِلاً وَصُخورا

6) غادَرْتَنا نَذْري ونُرْسِلُ أدْمُعًا ... رَقَمَتْ على حَرِّ الْخُدودِ سُطورا

7) وَنَشُقُّ مِنْ أسَفٍ عَلَيْكَ جُيوبَنا ... وَالْحزْنُ شَقَّ قُلوبَنا وصُدورا

8) وَنُساوِرُ الْبَلْوى بِلَيْلٍ عادَلَتْ ... ساعاتُهُ مِنْ طولِهِنَّ دُهُورا

9) لَوْ أنَّ ما حَمَّلْتَناهُ مِنَ الأسى ... حَمَّلْتَهُ طُوراً، لَدَكَّ الطُّورا

10) رَجَفَتْ لِمَهْلَكِكَ الْبِلادُ وَأَظْلَمَتْ ... أرْجاءُ أرْضٍ، كُنْتَ فيها النّورا

11) وَعَفَتْ بِمَنْعاكَ الْمَكارِمُ والعُلى ... وَالْعِلْمُ أَصْبَحَ دارِسًا مَهْجورا

12) نابَ الْبَرِيَّةَ مِنْ مُصابِكَ حادِثٌ ... قَدْ صَيَّرَ الخَطْبَ الجَليلَ حَقيرا

13) قَدْ كانَ مَوْتٌ غالَ مِثْلَكَ ظالِمًا ... لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ رَبِّنا مَأْمورا

14) جَسَرَتْ يَداهُ على مَقامٍ لَمْ يَكُنْ ... أحَدٌ لِهَيْبَتِهِ عَلَيْهِ جَسورا

15) لا أعْرِفُني بَعْدَ مَوْتِكَ جازِعًا ... مِنْ هائِلٍ، وَبِمُفْرِحٍ مَسْرورا

16) إنْ كانَ شَخْصُكَ قَدْ تَغَيَّبَ في الثَّرى ... فَحَديثُ فَضْلِكَ لَمْ يزَلْ مَأْثورا

17) أحْياكَ ذِكْرٌ بَعْدَ مَوْتِكَ صالِحٌ ... حَتّى كَأَنَّكَ لَمْ تَزَلْ مَنْشورا

18) شَمَخَ التُّرابُ عَلى السَّماءِ تَرَفُّعاً ... إذ كُنْتَ في أحْشائِهِ مَقْبورا

19) لِلَّهِ قَبْرٌ، أَنْتَ ساكِنُ رَمْسِهِ جَمَعَ الفَضائِلَ والحِجى والخِيرا

20) وَمَعارِفاً وَعَوارِفاً وَخَلائقاً سُجْحاً غَدا مِنْها النَّسيمُ غَيورا

21) وَفَصاحَةً لَيْسَتْ تَزينُ باطِلاً وَتَزيدُ في الحَقِّ المُبينِ ظُهورا

22) وَسَماحَةً يُغْنى بِشَيْمِ بُروقِها مَنْ كانَ مُغْبَرَّ الجَنابِ فَقيرا

23) يا ثاوِياً في رَوْضَةٍ قَدْ ضُمِّنَتْ مِنْ عِلْمِهِ وَنَدى يَدَيْهِ بُحورا

24) فَلَرُبَّ موثَقِ كُرْبَةٍ أطْلَقْتَهُ قَدْ كانَ في أيدي الخُطوبِ أسيرا

25) وَلَكَم أَغَثْتَ مِنَ الرَّدى مُسْتَصْرِخاً وَجَبَرْتَ مَرْهونَ الجَناحِ كَسيرا

26) لَوْ رَدَّ سَيِّدُ مَعْشَرٍ بِجَلالِهِ قَدَراً، لَرَدَّ جَلالُكَ المَقْدورا

27) خُذْ مِنْ رِثاءِ فَتى بِحُبِّكَ هائِمٍ دُرّاً يَفوقُ اللُّؤلُؤَ المَنْثورا

28) لَوْ تَسْتَطيعُ أوانِسٌ مِنْ حُسْنِهِ حَلَّتْهُ أجْياداً لَها وَنُحورا

29) بُوِّئْتَ مِنْ دارِ النَّعيمِ مَنازِلاً وَرُزِقْتَ عَيْشاً في الجِنانِ نَضيرا

30) وَسَقى ضَريحَكَ وابِلٌ مِنْ رَحْمَةٍ وَجَزاكَ رَبُّكَ جَنَّةً وَحَريرا

[لاميّة محمد بن إدريس العمراويّ الوزير]

وقول الوزير الأديب البارع، المشارك اللّبيب أبي عبد الله، محمّد بن إدريس ابن الحاجّ العَمْراوي[761]:

[الطويل]

1) حِياضُ المَنايا لِلنُّفوسِ[762] مَناهِلُ وَكُلُّ الوَرى لِلْوِرْدِ مِنْها مُناهِلُ[763]

2) قَضاءٌ مِنَ الرَّحمانِ حَتْمٌ عَلى الوَرى وَكُلُّ قَضاءِ اللَّهِ، لا شَكَّ، حاصِلُ[764]

3) فَلا بُدَّ لِلأحْياءِ مِنْ وِرْدِ حَوْضِها كَما وَرَدَتْها في القَديمِ الأوائِلُ

4) وَما هذِهِ الدُّنْيا سِوى دارِ رِحْلَةٍ وَلا بُدَّ مِنْ يَوْمٍ تُشَدُّ الرَّواحِلُ

[761]- القصيدة في الإتحاف: 2/38-41 . وعليه قابلنا النص، وهي كثيرة الإقواء.

[762]- الإتحاف: 2/38. للبرايا.

[763]- الإتحاف: 2/38 .مناهل.

[764]- الإتحاف: 2/38. حاصل.

5) فَظاهِرُها لِلْجاهِلينَ مَحاسِنٌ وَباطِنُها لِلْعارِفينَ رَذائِلُ[765]

6) فيا أيُّها المِسْكينُ[766] وَالآمِلُ البَقا تَزَوَّدْ مِنَ الدُّنْيا، فَإنَّكَ راحِلُ

7) وَلا تغْتَرِرْ[767] مِنْها بِحُسْنِ زَخارِفٍ فَكُلُّ سِوى اللّهِ المُهَيْمِنِ، باطِلُ

8) وَما نَحْنُ إلاّ كَالجِيادِ بِمُضْمَرٍ وَتَسْبِقُ في المَيْدانِ مِنّا الأفاضِلُ

9) رَأَيْتُ المَنايا تَنْتَقي كُلَّ سَيِّدٍ لَها كُلَّ يَوْمٍ غارَةٌ وَجَحافِلُ

10) وَتُردي صَميمَ المَجْدِ مِنْ فَتَكاتِها كَأنَّ عَلَيْها ثَأْرًا عَلَيْهِ تُقاتِلُ

11) «تَحامى الرَّزايا كُلَّ خُفٍّ وَمَنْسِمٍ وَتَلْقى رَداهُنَّ الذُّرى وَالكَواهِلُ[768]»

12) أما وَجَدَتْ عَنّا الخُطوبُ مُعَرَّجًا أما رَدَّها عَنّا العُلى وَالفَواضِلُ؟!

13) لَقَدْ هُدَّ رُكْنُ الصَّبْرِ يَوْمَ نَعَوا لَنا إمامَ العُلى، مَنْ في الفَضائِلِ كامِلُ

14) وَقُلْتُ: وَلا وَاللّهِ ما كُنْتُ دارِيًا، مِنَ الوَجْدِ وَالأحزانِ، ما أنا قائِلُ:

15) أحَقًّا عِبادَ اللّهِ، حَمْدونُ قَدْ قَضى؟!! لَقَدْ ثَكَلَتْنا عِنْدَ ذاكَ الثَّواكِلُ

16) نعم قَدْ قَضى شَيْخُ المَجادَةِ[769] وَالتُّقى وَغالَتْهُ مِنْ دونِ الأنامِ الغَوائِلُ

17) لَقَدْ كُوِّرَتْ[770] شَمْسُ السِّيادَةِ بَعْدَهُ وَبَدْرُ العُلى والعِلْمِ[771] بَعْدَهُ آفِلُ

18) وَهُدَّتْ سَماءُ المَجْدِ وَالجودِ، وَاعْتَرى[772] لِفُقْدانه[773] أرْضَ القُلوبِ الزَّلازِلُ

19) وَغاضَتْ بُحورُ العِلْمِ بَعْدَ طفُوحِها[774] وَأصْبَحَ رَوْضُ[775] النَّظْمِ وَالنَّثْرِ ذابِلُ[776]

765- أخِّرَ هذا البيت في رواية الإتحاف: 39/2، حتى صار السّابع، ولعلّ الأفضل ترتيب الإتحاف.

766- الإتحاف: 39/2. المغرور.

767- في الأصل: فلا تغترر، والتّصويب من الإتحاف: 39/2.

768- البيت لأبي العلاء المعري.

769- الإتحاف: 39/2: الجماعة.

770- في الأصل: لقد كدرت، والتصويب من: الإتحاف: 39/2.

771- الإتحاف: 39/2. والمجد.

772- الإتحاف: 39/2. «وهدّ سماء المجد والجود».

773- الإتحاف: 39/2: بفقدانه.

774- في الأصل: طفولها. والتّصويب من: الإتحاف: 39/2.

775- الإتحاف: 39/2: وعاد رياض.

20) وَسُدَّتْ طَرِيقُ السَّالكينَ إلى العُلى وَعادَتْ طَرِيقُ المُتَّقينَ[777] مَجاهِلُ[778]

21) رَزِيَّتُــــــــهُ أَزْرَتْ بِكُلِّ رَزِيَّةٍ وَفُــقْــدانُهُ خَطْبٌ لَعَــمْــري هائِلُ

22) لَئِنْ كانَ شَمْساً قَدْ هَوى فَوَراءَهُ هِلالٌ بِآفــاقِ السِّــيــادَةِ كــامِلُ

23) وَذِكْــرٌ سَــرى بَيْنَ البَــرِيَّةِ طَيِّبٌ كَــمــا هَبَّ رِيحٌ عَطَّرَتْهُ الخَمــائِلُ

24) وَأَوْضـاعُ عِلْمٍ يُسْتَـضـاءُ بِنورِها وَنَظْمٌ وَنَثْــرٌ لِلمَــحــاسِنِ شــامِلُ

25) فَـصَـبْراً، أبا عَـبْدِ الإلاهِ، فَإِنَّـما بِقَدْرِ جَليلِ الخَطْبِ، تُعْطى الجَلائِلُ

26) وَإِنَّ مُـصـابَ المُسْلِمِينَ بِفَـقْـدِهِ مُـصــابٌ جَليلٌ هاجَ مِنْهُ البَـلابِلُ

27) أَحَمْدونُ: مَنْ لِلمُشْكِلاتِ يَحُلُّها إذا قَـصَّرَتْ في فَـهْـمِهِنَّ الأفـاضِلُ

28) وَمَنْ لِعُلومِ الدِّينِ يُتْـقِنُ دَرْسَـهـا فَتُشْرِقَ نوراً مِنْ ذَكاهُ[779] المَسائِلُ؟!!

29) ومن لِلْبَـيـانِ وَالمَـعـاني يُبَـيِّنُـهـا[780] بِعَضْبِ لِسانٍ لِلْجَهالَةِ قاتِلُ؟!

30) وَمَنْ لامْـتِـداحِ المُصْطَفى بِمَـدائِحٍ عَلَيْـهـا مِنَ السِّـحْـرِ الحَـلالِ دَلائِلُ

31) وَمَنْ لِذَوي المَعْروفِ، إنْ عَنَّ حادِثٌ فَــيَلْقــاهُمُ بِشْــرٌ لَدَيْكَ وَنائِلُ؟!

32) لَقَـدْ كُنْتَ غَـوْثًا لِلأنامِ وَمَنْهَـلاً إذا مــا عَــرَتْهُمْ مِنْ زَمــانٍ نَوازِلُ

33) وَكُنْتَ دَليلَ السَّـائِرِينَ إلى العُلى وَبَدْراً بِآفــاقِ الهُــدى مُـتَكامِلُ

34) وَكُنْتَ لِهــذا الدَّهْرِ زَيْنًا وَحِلْيَــةً فَأَصْبَحَ جِيدُ الدَّهْرِ بَعْدَكَ عاطِلُ[781]

35) وَكُنْتَ لِذي الحاجاتِ خَيْرَ وَسيلَةٍ إذا عُـدِمَتْ في العـالَمِينَ الوَسـائِلُ

36) [فَأَصْبَحْتَ مُقْصى في دِيارٍ جَنيبَةٍ وَقَدْ عُدِمَتْ تِلْكَ العُلى والفَضائِلُ[782]]

---

[776]- في البيت إقواء.

[777]- الإتحاف: 39/2. المتقنين.

[778]- في البيت إقواء.

[779]- في الأصل: ذكاء، ولعل الأفضل رواية الإتحاف: 40/2.

[780]- الإتحاف: 40/2: «ومن للمعاني والبيان يبينه».

[781]- في البيت إقواء، ورواية الإتحاف: 40/2: «فها جيده من بعد بعدك عاطل».

[782]- سقط البيت من الأصل، وهو في الإتحاف: 40/2.

37) وَأَضْحَتْ رُبوعُ العِلْمِ، وَهْيَ كَئيبَةٌ، خَوالٍ، ونورُ العِزِّ والمجْدِ[783] حائِلُ

38) وأصْبَحَتِ الطُّلاَّبُ بَعْدَكَ في ظَمَا وَقَدْ كُدِّرَتْ لِلوارِدينَ المَناهِلُ

39) وعاثَتْ جُيوشُ الحُزْنِ فيهِمْ وَحُكِّمَتْ عَلى الرَّغمِ في الأحْشا الظُّبى والعَوامِلُ

40) وَنارُ الجَوى بَيْنَ الجَوانِحِ أجِّجَتْ وَسُحْبُ الدُّموعِ في الخُدودِ هَوامِلُ

41) فَما عَيْشُهُمْ مِنْ بَعْدِ بُعْدِكَ صالِحٌ وَلا في الحَياةِ بَعْدَ بُعْدِكَ طائِلُ

42) فَلَوْ كُنْتَ تُفدى بِالنُّفُوسِ تَسابَقوا وَلَمْ تَغْلُهُمْ فيكَ النُّفوسُ الجَلائِلُ

43) وَلكِنْ قضاءُ اللَّهِ [حُمَّ، فَما امْرُؤٌ][784] يُرى، دون ما قد قدَّرَ اللَّهُ حائِلُ

44) لَقَدْ صِرْتَ لِلْبَدْرَيْنِ قَبْلَكَ ثالِثاً بِهِ تمَّ بَيْنَ العالَمين التَّماثُلُ

45) كَأنْ لا [785]تَرى شِبْهًا لِفَضْلِكَ في الوَرى فَأصْبَحْتَ بِالشِّبْهِ المُماثِلِ نازِلُ

46) ثَلاثَةُ أقْمارٍ حَلَلْنَ[786] بِرَوْضَةٍ عَلَيْها مِنَ النّورِ البَهِيِّ شَمائِلُ

47) جِبالُ عُلومٍ راسِياتٌ لَدى العُلى بُحورٌ[787] لَعَمْري، ما لَهُنَّ سَواحِلُ

48) سَقى تُرْبَ ذاكَ الرَّوضِ[788] شُؤبوبُ رَحْمَةٍ وَسَحَّتْ عَلَيْهِ السَّارياتُ الهَواطِلُ

49) وَبُوِّئَ مَنْ قَدْ حَلَّهُ اللَّهُ جَنَّةً [لَهُمْ بِعُلى الفِرْدَوْسِ مِنْها] [789] مَنازِلُ

50) بِجاهِ إمامِ المُرْسَلينَ وَآلِهِ وَأصحابِهِ أهْلِ الرَّشادِ الأفاضِلُ

51) عَلَيْهِ[790] صَلاةُ اللَّهِ، ما ذَرَّ شارِقٌ وَما سَجَعَتْ فَوْقَ الغُصونِ البَلابِلُ

---

[783]- الإتحاف: 40/2. بعدك.

[784]- مابين معقوفين مدمَج في الأصل. وهو من الإتحاف: 40/2. والشطر بعده فيه إقواء.

[785]- في الأصل والإتحاف: 40/2: لم . ولعلّ الصواب ما أثبتناه ليستقيم الوزن والتركيب، والشطر بعده فيه إقواء.

[786]- الإتحاف: 40/2: ثوين.

[787]- الإتحاف: 40/2: بحار.

[788]- في الأصل: النهر، والتصويب من الإتحاف: 40/2.

[789]- بياض في الأصل، ملأناه من الإتحاف: 40/2. وبعده في الأصل: أعلى المنازل.

[790]- الإتحاف: 41/2. عليهم.

[رائيّة محمّد أكَنْسوس]

وقـول الأديب البـارع، العـالم اللُّغَـوِيّ، أبي عـبـد الله، مـحـمـد بن أحـمـد كَنْسـوس الجعفَرِيّ[791]، يرثيه أيضا:

[البسيط]

1) يا راكِـبينَ عَلى أمْنٍ مِنَ القَـدَرِ ... سَفينَةَ الخُسْرِ في بَحْرٍ مِنَ الخَطَرِ

2) ونائِمينَ بِظِلٍّ مِنْ أمـانيـهِمُ ... لَقَـدْ تَظَلَّلْتُمُ بِلَوْحَـةِ الخَطَرِ

3) بِاللَّهِ مَـهْلاً، عَلى رِسْلٍ، أسـائِلُكُمْ ... هَلْ تَعْلَمونَ لِهَذَا الأمْرِ مِنْ خَبَرِ؟!

4) عَـفَتْ رُسـومُ أحِـبَّـتي وَدورُهُمُ ... وَغَـيَّـرَتْهـا هُجومُ البَرْقِ والمَطَرِ

5) مَحَتْها هوجُ[792] الرِّياحِ والرِّماحِ فَما ... تَـرى لألائِـكَ الآرامِ مِـنْ أثَـرِ

6) وَلَسْتَ تَسْمَعُ إلاّ البومَ صـائِحَـةً ... عَلى اليَـعافيـرِ وَالذُّؤْبانِ والبَقَرِ

7) وَبَعْدَما كـانَتِ الأقْـمارُ تَحْسُدُها ... وَذاكَ إذا عَـمَرتْ بِالحُسْنِ وَالخَفَرِ

8) مَنازِلُ، بَعُـدَتْ قَـدْراً بِسـاكِنِهـا، ... مـا كـانَ أقـرَبَ مِنْهـا مَنْزِلُ القَمَرِ

9) وَاليَوْمَ، يا مُهْجَتي، صَبْراً عَلَيْها فَقَدْ ... غَـدَتْ مَـحَاسِنُهـا وَحْـياً عَلى زُبُرِ

10) وَسـائِلٍ قـالَ: أيْنَ القَوْمُ ما فَعَلوا ... وأيْنَ مـا كـانَ آنِفـاً مِنَ القَمَرِ؟!

11) فَقُلْتُ: قَدْ شَرِبوا كَأسَ المَنايا كَما ... شَـرِبْتُ بَعْـدَهُم كَـأسـاً مِنَ الصَّبْـرِ

12) كَمْ ساجَلَتْ مُقْلَتي غُرَّ الغَمامِ، وأيْـ ... ـنَ لِلسَّحـائِبِ دَمْعٌ مُشْبِهُ الشَّرَرِ؟!

13) فَـمِثْلَ دَمْعي فَـابْك، ياحَمـامُ، إذا ... مـا كُنْتِ نائِحَةً يَوْمًـا عَلى الشَّجَرِ

14) ما أظْلَمَ اللَّيلُ. لكِنْ في فُؤادي قَدْ ... تَـكـاثَـفَتْ ظُلُمـاتُ الهَمِّ والفِكَرِ!!

15) أبيتُ في غَمَراتِ اللَّيلِ مُعْتَكِفاً ... أُعَلِّمُ النَّجمَ سـورَةً مِنَ السَّهَـرِ؟!

16) هذا، وكَيْفَ المُقَامُ، وَالأمانُ وفي ... كَفٍّ النَّوائِبِ أسْـهُمٌ مِنَ القَـدَرِ؟!

---

[791]- عالم مؤرخ أديب، (ت 1294هـ) ترجمته في: الحياة: 431-444. الشُّجرة:1/404. رقم 1623. مؤرخو الشُّرفاء: 136-145. النبوغ: 1/317. معجم المطبوعات: 23. رقم38. الإعلام:7/8-17. رقم 852.

[792]- في الأصل: موج، ولعل الصواب ما أثبتناه، ولا تشبع الهاء قبلها ليستقيم الوزن.

17) ما زالَ رَيْبُ الزَّمانِ يَنْتَقي غَرَضاً	حَتّى أصابَ بِذاكَ مُهْجَةَ الفَخْرِ
18) شَيْخَ الجَماعَةِ حَمْدونُ الّذي حُمِدَتْ	بِهِ الأيّامُ[793]، جَميلَ الوِرْدِ والصَّدَرِ
19) فَزُلْزِلَتْ بِهِ أرْضُ الدّينِ وانْفَطَرَتْ	سَمـاؤُهُ، وَتَدَلَّتْ أنْجُمُ الكَدَرِ
20) مَنْ لِلأرامِلِ والأيْتامِ بَعْدَكَ يا	حَمْدونُ، وَلِمَديحِ سَيِّدِ البَشَرِ؟!
21) مَنْ لِلْمَكارِمِ مِنْ هَجودٍ يفْعَلُهُ	[794]مِنَ الأحاديثِ والآياتِ وَالسُّوَرِ؟!
22) حَمْدونُ: إنَّ المَعالي عَزَّ مَطْلَبُها	قَميصُ مَنْ يَبْتَغيها قُدَّ مِنْ دُبُرِ
23) فَمَنْ يُطَرِّزُ بِالبَديعِ حُلَّتَها	وَمَنْ يُفَصِّلُ مَنْظومًا بِمُنْتَثِرِ
24) يا مُهْجَةً كَمْ تَرى[795] لِذَلِكَ مِنْ جَزَعٍ	فَأنْتَ أقْسى لَعَمْرُ اللّهِ مِنْ حَجَرِ
25) وَأنتَ يا طالِباً مِنْ بَعْدِهِ شَرَفاً	تَزيدُ شَيْئًا بلا عَيْنٍ ولا أثَرِ
26) خُذْ ما تَراهُ، وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ	واقْنَعْ بِذاكَ، فَلَيْسَ الخُبْرُ كَالخَبَرِ
27) فَإن أتَيْتَ إلى بَنيهِ مُلْتَمِساً	أعْطَيْتَ قوسَكَ رَبَّ[796] القَوْسِ وَالوَتَرِ
28) إنّا لَنَرْجو بِذالِكَ الفَرْعِ مَنْقَبَةً	وَنَكْتَفي عَنْ طُلوعِ الشَّمْسِ بِالقَمَرِ
29) هَذا، وَلا تَعْتَذِرْ بِالفَرْقِ بَيْنَهُما	عَلِمْتُ ذاكَ، وَمَنْ لِلْعَيْنِ بِالحَوَرِ
30) إنَّ المَكارِمَ قَدْ غَدَتْ بِرُمَّتِها	في طَيِّ ما قَدْ طَوَتْهُ رَوْضَةُ القَبْرِ
31) يَا رَوْضَةً وَسِعَتْهُ، جَلَّ ما وَسِعَتْ!!	شَيْءٌ تَفَرَّقَ بَيْنَ البَدْوِ والحَضَرِ
32) بَحْرٌ مِنَ العِلْمِ، مَعْ بَحْرَيْنِ مِنْ كَرَمٍ،	فَكَيْفَ ذالِكَ في شِبْرَيْنِ مِنْ غَفَرِ
33) لا شَكَّ أنَّكِ رَحْمَةُ الإلاهِ لَهُ	وَوَسْعُ رَحْمَتِهِ قَدْ جاءَ في الأثَرِ
34) بِاللّهِ يا وامِضَ البَرْقِ البَليلِ إذا	ما سُقْتَ جُونَ السَّحابِ الطَّيِّبِ المَطَرِ
35) عَرِّجْ على ذالِكَ القَبْرِ السَّعيدِ إلى	أن تَعْبَقَ الأرْضُ بِالأنْوارِ مِنَ الزَّهَرِ

[793]- في الأصل: الايام، ولا يستقيم به الوزن. ولعل الصواب ما أثبتناه.

[794]- الشطر ساقط الوزن.

[795]- في الأصل: تدب أو ترب، ولا يستقيم به وزن ولا معنى، ولعلّ الصواب ما أثبتناه.

[796]- في الأصل: يارب، والكلمة غير واضحة: وقد أسقطنا ياء النداء ليستقيم الوزن. وفي البيت إحالة على المثل العربي: أعط القوس باريها.

36) وَعَلِّلْنَهُ مَعَ الأشـــواقِ آونَةً — وَحَـيِّـهِ كُلَّ لَيْلَةٍ مِنَ السَّـحَـرِ

37) ويا نَسيماً جَرى مَعَ العَشِيِّ[797] عَلى — كَـتـائبِ النَّوْرِ، بَيْنَ الشِّعْبِ والنَّهـرِ

38) احمِلْ إلَيْهِ مِنَ الأزهارِ نَفْحَتَـهـا — وَجُـرَّ ذَيْلَ الرِّداءِ الطَّيِّبِ العَطِرِ

[نونيَّة محمد بن العربيّ قَصارة]

وقول الأديب المعقوليّ المشارك، أبي عبد الله، محمّد بن العربيّ قَصارَة الحِمْيَري[798]:

[البسيط]

1) حَـوْضُ الـمَنِيَّـةِ، كُلُّ النّاسِ وارِدُهُ — وَسَـهْـمُـهـا نافِـذٌ في كُلِّ مـا حِينِ

2) والْمَرْءُ في غَرَضِ الرَّدى لِذي عَرَضٍ — لَمْ يَنْجُ مِنْهُ، وَلَوْ بِكَنْزِ قــارونِ

3) لَقَـدْ فُجِعْتُ لِخَطْبٍ لَم يُطِقْ جَلَداً — عَلَيْـهِ قَلْبي، فَكادَ الوَجْـدُ يُفنيني

4) فَـقْـدِ الإمـامِ الَّذي عَلَتْ مَنازِلُهُ — كُلَّ الـمَنَازِلِ، بَحْـرِ العِلْمِ حَـمْـدونِ

5) شَمْسُ الخَلائِقِ، مُنْقِذُ البَرِيَّةِ مِنْ — جَـهـالَةٍ، بِجَـمِـيلِ الفِكْرِ وَالدِّينِ

6) مَنْ كانَ لِلنّاسِ مَلْجَأً، وَمَنْ لِذَوي الْـ — عِـصْـيانِ وَالظُّـلْمِ آمِرٌ بِتَـحْـسِينِ

7) وَمَنْ لِداءِ القُلوبِ كـاشِفٌ ضَـرَراً — لِلدِّينِ، وَالحَقِّ ناصِـرٌ بِتَـبْـيِينِ

8) كَيْفَ اصْطِباري عَلى مَنْ كانَ ذا قَدَمٍ — في الحِلْمِ والزُّهْدِ، لِلإرشـادِ يَهْـديني

9) لَقَـدْ أتى بِبَـديعِ النَّظْمِ فـاقَ بِهِ — كَـعْـبًـا وَحَـسّـانَ في مَديحِ ياسِينِ

10) رِياضُ نَظْمٍ وَنَثْـرٍ بَعْـدَهُ ذَبُلَتْ — آهٍ علـى أدَبٍ قَـــدْ حَلَّ في طِينِ

11) أشكوُ إلى اللهِ من فَقْدِ العُلومِ، عَفَتْ، — خِلْتُ مَـراسِـمَـهـا ريحـاً تُناجِـيني

12) طَيفُ الكَرى قَدْ نَأى عَنْ مُقْلَتي وَبَدا — صَوْبُ الدُّموعِ مِنَ الألحاظِ يَكْويني

13) مِنْ فَرْطِ فَيْضِ الجُفونِ خِلْتُ، لا فَنَدٌ — أمَكَّنُ الـسُّـــقْمَ أيَّ تَـمْـكِينِ

14) مـا خِلْتُ أنِّي بَعْـدَ فَـقْـدِه جَلِدٌ — وَنارُ جَـمْـرِ الفِـراقِ مِنْهُ تُصْلِيني

15) لا عَجَبٌ، إن خانَنا الزَّمانُ فيه[799]، لِمن — شَـأْنِ الحَـوادِثِ غَـوْرٌ بِالأحـاسِينِ

797- في الأصل: العشي. ولا يستقيم به وزن ولا معنى، ولعل الصواب ما أثبتنا.

798- عالم أديب فاسي. (ت 1257هـ) ترجمته في الشجرة: 1/397. رقم 1583.

799- كذا بالأصل، ويجب إسقاط الكلمة ليستقيم الوزن.

16) لمّا تَوارى عَـزيزُ القَـوْمِ مُنْغَـمِـداً — في لَحْدِه، صـارَتِ الأشْواقُ تُبْكيني

17) لو كانَ بِالنَّفْسِ يُفْتَدى، فَدَتْهُ، وَلا — كِنَّ المَقـادِيرَ قَـدْ أَبَتْ لِتُـرْدِيني

18) وَلّـى إلى اللّهِ في عِـزٍّ لَهُ وَبَهـا — ولَمْ يَكُن فـيـهِ ظَنّي قَطُّ يُخْـفيني

19) أَؤْلِّفُ القَلْبَ صَبْراً عَنْهُ محتَسِباً — إنَّ التَّـجَلُّدَ يُسْلي كُلَّ مَحْـزونِ

20) في نَسْلِهِ اللّهُ يُبْدي كُلَّ مَكْرُمَـةٍ — مَـحْـفـوظَةٍ فـيـهِ دائِمًا إلى حينِ

21) سَقى الإلاهُ ضَريحاً ضَمَّ أعْظُمَهُ، — وَعَطَّرَ الرَّوْضَ مِـسْكاً مَعْ رَياحينِ

22) يارَبِّ: وَاجْعَلْهُ في الفِرْدَوْسِ مُصْطَحِباً — لأحْمَدَ المُصْطَفى خَيْرِ النَّبيئينِ

23) عَلَيْهِ صلّى إلاهُ العَرْشِ ما ابْتَسَمَتْ — مَـبـاسِمُ الزَّهْرِ في دَوْحِ الأفـانينِ

[رائيَّة عليّ بن إدريس قَصارَة]

وقول الأديب المشارك العلاّمة، أبي الحسن، عليّ بن إدريس قَصارَة الحِمْيَري[800]:

[الوافر]

1) هِيَ الدُّنْيَـا زَخـارِفُـهـا غُـرورُ — فَـلا يَغْـرُرْكَ بِاللّهِ الغَـرورُ

2) إذا مـا أضْـحَكَتْ في الحينِ أبْكَتْ — وَأَعْـقَبَ حُسْنَ بَهْجَتِـهـا ثُبورُ

3) نَوائِبُـهـا مِنَ الأيّامِ تُـثْـري — وفي أحْـشـائِهـا نارٌ تَثـورُ

4) فَـثِقْ بِاللّهِ يا قَلْبي وَسَلِّمْ — لِرَبِّكَ أمْـرَهُ، فَـهْـوَ الخَـبـيـرُ

5) وكُنْ راضٍ[801] بِمَا يَقْضي، صَبوراً — عَلى أحْكامِـهِ، فَـهْـوَ البَـصـيـرُ

6) لَئِنْ لَحِقَ الفَنا الخَـيّـارَ طُرّاً — لَنا المَـوْلى، لَنا نِعْمَ النَّصـيـرُ!!

7) قَـديمٌ باقٍ حيٌّ، لَيْسَ يَفْنى[802] — بِمـا في نَفْـسِنا مِنّا خَـبـيـرُ

8) فَـلا تَجْـزَعْ لِرَيْبِ الدَّهْرِ واصْبِرْ — فَـإِنَّ المَـوْتَ مَـحْـتـومٌ جَـديرُ

9) تُـنـادي كُـلَّ يَـوْمٍ عَـنْ يَـقـينٍ: — ألا توبوا، فَـقَـدْ قَـرُبَ المَـصـيـرُ

[800]- علاّمة مُشارِك من أهل فاس (ت 1259هـ) ترجمته في: السّلوة:265/2. الشجرة:1//398. رقم 1588. معجم المطبوعات: 288. رقم 658.

[801]- كذا بالأصل، وبه يستقيم الوزن.

[802]- الشطر ساقط الوزن.

10) وَنَحْنُ عَلى الضَّلالَةِ لا نُبالي — إلى أن يَنْزِلَ الوَعْدُ الخَطيرُ

11) سِهامُ المَوْتِ تَرْشُقُ كُلَّ حيٍّ — فَسِيَّانِ المُمَوَّلُ وَالفَقيرُ

12) وَسِيَّانِ الرَّفيعُ والوَضيعُ — وَسِيَّانِ الكَبيرُ وَالصَّغيرُ

13) فَآهٍ آهٍ مِنْ دَهْرٍ دَهاني — وَآهٍ آهٍ مِنْ دُنْيا غَرورٍ[803]

14) فَوا أَسَفي وَحَسْرَتي وَلَهْفَتي — عَلى مَنْ كانَ لي نِعْمَ الخَفيرُ

15) وَحيدُ الدَّهْرِ، قُطْبُ العِلْمِ، شَمْسُ الـ — مَعالي، الأَلْمَعي الحَبْرُ الشَّهيرُ

16) إمامُ الرُّشْدِ، حَمْدونُ الَّذي قَدْ — أَضاءَ بِهِ الدُّجاءُ القَمْطَريرُ

17) مَفاخِرُ عِلْمِهِ يُنبيكَ عَنْها — تَآليفُ لَها الإعْجازُ سورُ

18) فَكَمْ مِنْ مُشْكِلٍ أَجْلاهُ حَتَّى — غَدا مِنْ صُبْحِ فِكْرِهِ يُنيرُ؟!

19) وكَمْ لَهُ مِنْ عُقودِ نَظْمِ دُرٍّ — بِسِلْكِ التِّبْرِ، لَيْسَ لَهُ نَظيرُ؟!

20) وكَمْ أَبْدى بِتَقْريرٍ بَديعٍ — غَوامِضَ عادَها جَمٌّ غَفيرْ؟!

21) وكَمْ أسدى أيادِيَ[804]، لَيْسَ تُحصى — أَيُحْصى الطَّيْرُ والوَبْلُ الغَزيرُ؟!

22) مَضى الحَبْرُ الهُمامُ، وَبَثَّ عِلْماً — فَلِلَّهِ البَقاءُ وَالمَصيرُ

23) عَلَيْهِ قَدْ بَكَتْ عَيْنِيْ نَجيعًا — وَحَقٌّ لي البُكاءُ والزَّفيرُ

24) فَكَيْفَ وكَيْفَ لا أَبْكي وأَبْكي — وَشَيْخي بِالثَّرى، تُرى، حَشيرُ

25) لِتَبْكِهِ أُصولُ العِلْمِ طُرّاً — وَتَبْكِيهِ فُروعُهُ وَالعُصورُ

26) وَتَبْكيهِ المنابِرُ والكَراسي — وأَنْديَةٌ بِغُرَّتِهِ تَنورُ

27) وتَبكيهِ عَوامُّ النّاسِ طُرّاً — وأَشْرافُ لَهُمْ كانَ الوَزيرُ[805]

28) ويَبكيهِ يَتيمٌ مَعْ فَقيرٍ — وَذو مالٍ بِظِلِّهِ يَسْتَجيرُ

29) ويَبكيهِ فَتى لَمْ يُبْقِ دَهْرٌ — لَهُ شَيْخًا[806] بِمُشْكِلِهِ خَبيرُ

803- في البيت إقواء.

804- في الأصل: أياد. ولا يستقيم به الوزن ولا التّركيب.

805- في البيت إقواء.

806- في الأصل: شيخ.

30) لَقَـدْ عَظُمَ الـمُـصـابُ وَجَلَّ رزْءٌ   عَـشِـيَّـةَ قِـيلَ: قَـدْ قُـبِضَ النَّذيرُ

31) فَلَوْ يُفْـدى بِآلافٍ يُفَـدَّى   وَلَـكِنَّ الـمَنايا قَـدْ تَجـورُ

32) فَصَبْراً، مَعْشَرَ الإسْلامِ، صَبْراً،   إلى مـا صـارَ نَحْنُ قَـدْ نَصيـرُ

33) فَيا عَجَباً لِشِبْرٍ، غابَ بَحْرٌ   بِهِ بَحْـرٌ تَمُـرُّ بِهِ البُحـورُ

34) ألا يا قَـبْـرُ، وارَيْتَ حُـسْنًا[807]   فَـهـا إحْسـانُهُ أبَداً يَسيـرُ

35) أحَبَّ لِقـاءَهُ الرَّحْمـانُ كَـيْمـا   تَـنَـعَّـمُ مِنْـهُ جَـنَّـةٌ وَحـورُ

36) وَيَجْني ثَمْـرَ غَـرْسِـهِ مِنْ جِنانٍ   بِجـوارِ النَّبِيِّ لَهـا قُـصـورُ[808]

37) عَلَيْـهِ سَـلامٌ مِنْ رَبٍّ سَـلامٍ   [809]يَفـوحُ مِنْ مَحـاسِنِهِ عَـبيـرُ

[نونيَّة العربي المنصوريّ السَّلاوِيّ]

وقول الفقيه الأديب، سيدي العربيّ المنصوريّ السَّلاويّ:

[البسيط]

1) يا لَلأحِبَّةِ كَيْفَ الصَّبْرُ مِنْ حينٍ   يا حَسْرَتاي[810] فَلا مَناصَ يُنْجيني

2) هذي الرَّزِيَّةُ، مـاتَ العِلْمُ والأدَبُ   فَلْيَبْكِ مِنْ أجْلِ ذا ذو [العَقْلِ][811] والدّينِ

3) رُبوعُ دَرْسٍ بَدَتْ تَبْكي لِما فَقَدَتْ   يا وَيْحَها، قَدْ غَدَتْ عَلَيْهِ في هونِ

4) عَفَتْ مَراسِمُها، فُضَّتْ مَباسِمُها   صـارَتْ مَواسِمُها، أيّامَ مَحْزونِ

5) آهٍ على كُتُبٍ، آهٍ عَلى حَسَبٍ،   آهٍ على أدَبٍ، قَـدْ حَلَّ في طينِ

6) مِنْ رَوْضَةٍ جَمَعَتْ، لأنْجُمٍ طَلَعَتْ   بِالدُّرِّ قَـدْ لَمَعَتْ، لا كَـالأفـانينِ

7) قِفْ فانْظُرَنْ، تَرى قَبراً[812] حَوى قَمَراً   كَلِّمْهُ مُخْتَبِراً، يَقولُ[813] في الحينِ:

[807]- الشطر ساقط الوزن.

[808]- الشطر ساقط الوزن.

[809]- الشطر ساقط الوزن.

[810]- كذا بالأصل.

[811]- بياض بالأصل ملأناه بما حسبناه مناسبا.

[812]- في الأصل: ترا، وفوق الكلمة كتب: صح. ولعل الصواب ما أثبتناه.

[813]- كذا بالأصل.

8) هذا إمامُ التُّقى، بالزُّهْرِ مُرْتَفِقًا　　بالزُّهْرِ مُؤْتَنِقًا، وَرْدٍ ونِسْرِينِ

9) فَالعِلْمُ قَدْ عُطِّلَتْ رُبُوعُهُ، وخَلَتْ،　　وَشَمْسُهُ أَفَلَتْ، بِغَيْرِ حَمْدونِ

10) انقَضَّ كَوكَبُهُ، وانْقَضَّ مَوكِبُهُ،　　وَبانَ مَغْرِبُهُ، بِمِسْكِ دارِينِ

11) أحْسِنْ بِهِ مَوْضِعاً بِالعِلْمِ مُرْتَفِعًا!　　أحْسِنْ بِهِ مَضْجَعًا، في جَنَّةِ العينِ!؟

12) فَالنّاسُ في أسَفٍ، إذ صارَ في غُرَفٍ،　　وكانَ في صَدَفٍ، كَالدُرِّ مَكْنونِ

13) وَنَحْنُ في زَمَنٍ، والعِلْمُ في كَفَنٍ،　　والقَلْبُ في شَجَنٍ، في غَيْرِ ما حِينِ

14) والعَيْنُ باكِيَةٌ، والدَّمْعُ شاكِيَةٌ　　والنَّفسُ آسِيَةٌ، بِصاحِبِ النُّونِ

15) آهٍ لِبَحْرِ النَّدى، آهٍ لِنَجْمٍ اهْتَدى　　آهٍ لِشَمْسِ هُدى، كَهْفِ المَساكِينِ!!

16) لِلَّهِ فِيهِ فَضْلٌ بِما عَلَيْهِ قَضى　　فَلَيْسَ إلاّ الرِّضَى بِكُلِّ مَفْتونِ

17) كذاكَ يَقْضِ[814] لنا،إذ نَأْتِ[815] مَنْزِلَنا　　فَالمَوْتُ بابٌ لَنا، يَبْرِي المُحِبِّينِ[816]

18) وَقُلْ إِذَنْ لِلْعِدى فَلْتَفْرَحُوا أَبَداً　　على إمامِ الهُدى، ذي الهُدى والدِّينِ

19) سَقى الإلاهُ ثَراهُ وَبْلَ مَغْفِرَةٍ　　تَعُمُّ تِلْكَ الرُّبى مَدى الأحايِينِ

20) وَتُنْشِ[817] مِنْ سُحْبِهِ صَوْباً لِرَوْضَتِهِ　　تَهْمِي بِروحِ الجِنانِ والرَّياحِينِ

[لاميَّة إبراهيم بن محمَّد السّوسيّ]

وقول الفقيه الأديب العالم، أبي إسحاق، إبراهيم بن محمَّد السّوسيّ[818]:

[الكامل]

1) لاتَسْكُنَنْ إلى الدُّنا مُتَوَلِّعًا　　بِعَرْضِها الفاني، فَإِنَّكَ راحِلُ

2) تَبْغي المُنى، والدَّهْرُ سَيْفٌ صارِمٌ　　وكُلُّ يَوْمٍ أَنْتَ فِيهِ هائِلُ

814- كذا في الأصل. والصّواب: يقضي. وستتكرر ظاهرة الجزم.

815- كذا بالأصل، والصّواب: يأتي. وبالجزم يستقيم الوزن.

816- كذا بالأصل.

817- كذا بالأصل. والصّواب: تنشئ. وبالجزم يستقيم الوزن.

818- لعلّه إبراهيم بن محمد الهلالي السّوسيّ. (ت بعد 1282هـ) ترجمته في الإعلام: 1/191-192.رقم 47. الموسوعة:1/16.

3) تَهْـوى، وَمَنْ تَهْـواهُ حَـقًّـا مَـيِّتٌ وكُـلُّ مَـنْ تَـراهُ، فَــــانٍ زائِـلُ
4) فَـالْمُؤْنِسـونَ مِنَ الْكِرامِ قَـدْ مَـضَـوْا والْـمـوحِـشـونَ مِنَ اللِّئـامِ مَـحـافِلُ
5) أيْـنَ الَّـذي إذا أوَيْـتَ إلَـيْـــــهِـمُ آوَوْكَ. أيْنَ النّاسُ، أيْنَ الأفـاضِلُ[819]
6) أيْنَ الـهُـداةُ الْـمُـقْـتَـدى بِفِـعـالِهِمْ؟ قَـدْ أصـبَـحَتْ تَلي الأمـورَ الأراذِلُ[820]
7) أو رُمْتَ جَـهْـلاً مِنْكَ حَلَّ عَـويصَـةٍ دَهـاكَ مِـنْـهُـمْ بِالجَــــوابِ أباطِـلُ
8) ذَهَبَ الرِّجـالُ الْمُنْصِـفـونَ جَليـسَـهُمْ وَبَقِـيـتُ في جـيـلٍ مَـداهُ يُجـادِلُ
9) كَـــبِّـــرْ عَلى الْعُلومِ والفُنونِ والْـ فُــهـومِ يَوْمَ قـيـلَ: مـاتَ البـاسِلُ
10) شَيْخُ الْوَرى، بَحْرُ النَّدى، زَيْنُ الْعِبا دِ، أبو الْـمَـــدائِحِ لِلنَّبِيِّ الْـكامِـلُ
11) هُوَ الَّذي عَمَّ الآفـاقَ[821] حَـمْـدُهُ حَـمْـدونُ حُـمِـدَتْ لَـهُ الشَّـمـائِلُ
12) زارَ الثَّرى ثاني الرَّبيعَيْنِ الْهُـما مُ بَعْدَ الألْف[822] عامَ «عيد رابلُ»[823]
13) يا حَسْرَةً على العِبـادِ مَنْ لَهُمْ يَوْمًـا بِتَـفْـسـيـرِ الكِتـابِ يُمـاثِلُ؟
14) مَنْ ذا الَّذي يَشْفي الْغَليلَ مِثْلَهُ؟ إنْ جالَ في الْمَعـانِ،[824] نِعْمَ الْقائِلُ
15) فَنُّ الحَـديثِ تَهَـدَّمَتْ شُـرُفـاتُهُ (وَ) سِيَرُ الرَّسولِ مَنْ لَها يُحاوِلُ[825]
16) عِلْمُ التَّـصَـوُّفِ قَـدْ عَلَتْ زَفَـراتُهُ عِلْمُ المَذاقِ بَعْــدَهُ مَـــخــايِلُ
17) فَسَلِ[826] الْعَروضَ والْقَريضَ والْقَوا فِيَ: هَلْ رَأتْ فَــتى لَهُ يُعــادِلُ؟
18) لا تَجْـزَعـوا، لاتَفْـزَعـوا، فَـإنَّهُ مـا غـابَ حَتّى نابَ الابْنُ الفـاضِلُ
19) كَالْبَدْرِ إثْرَ الشَّمْسِ، حينَ تَغَيَّبَتْ بانَتْ، وبانَ البَــدْرُ فــيــهِ دَلائِلُ

[819]- تُسَهَّلُ الهمزة ليستقيم الوزن.

[820]- تُسَهَّل الهمزة ليستقيم الوزن.

[821]- كذا بالأصل: وبه يستقيم الوزن. والصواب: الآفاق.

[822]- تُسَهَّل الهمزة ليستقيم الوزن.

[823]- بحساب الجمل تساوي عام 1232هـ.

[824]- كذا في الأصل. وبه يستقيم العروض. والصواب: المعاني.

[825]- كذا بالأصل ولا يستقيم وزن الشطر إلا بإسقاط واو العطف من الكلمة الأولى.

[826]- كلمة غير واضحة في الأصل.

20) ما ضَرَّ غَيْثَ الجوِّ يُنْصَبُ رَحْمَةً إنْ جَفَّ، والْبَـــوارُ مِنْهُ مَناهِلُ

21) لازالَتَ افْكارُ[827] الْعِبادِ تَجْتَني مِنْ غَرْسِهِ، وَالكَوْنُ مِنْهُ حافِلُ

22) جَزاهُ رَبُّ الْعَرْشِ خَيْرَ جَزائِهِ بِمَحْشَرٍ، وَبِهِ النِّظامُ كامِلُ

23) عَلَيْهِ أفْضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلا مِ، ما رَنَتْ بِمَدْحِهِ الأفاضِلُ

[سينيّة أحمد بن عبد الله الجَكْنِيّ]

وقول عبيد ربه، أحمد بن عبد الله الجَكْنِيِّ، عفا الله عنه، ورحم أبويه:

« الحمد لله الذي جعل الحبر والأقلام، راحةً للنفس والجسم والأقدام، تنبىء عن المحبة، ولو تباعدت الأجسام. وبعد:

[البسيط]

1) حَيِّ الْمَعاهِدَ مِنْ صَنْهاجَ أوْ فاسِ وَاسْقِ الْمنازلَ فَيْضًا غَيْرَ إبْساسِ

2) واقْرَ السّلامَ عَلى مَنْ بِاللّوى وعَلى مَجْرى السَّوابِقِ مِنْ أنْجادِ مِكْناسِ

3) سَلامَ صَبٍّ بَراهُ الشَّوْقُ بَعْدَهُمُ وقَلْبُهُ دَنِفٌ، لَمْ يَلْقَ مِنْ آسِ

4) تَاللّهِ لَمْ يُنْسِني تَذْكارَ عَهْدِهِمُ تَقادُمُ الْعَهْدِ، أو أُنْسٌ بإيناسِ

5) يَرْتاحُ قَلْبي بِذِكْراهُمْ، إذا ذُكِروا أو هَبَّ مِنْ نَحْوِهِمْ نَشْرٌ بأنْفاسِ

6) أقولُ لِلنَّفْسِ، والأحْزانُ تَنْزَعُها صَبْراً جَميلاً لِذاكَ الخَطْبِ والباسِ

7) بَلْ كَيْفَ أصْبِرُ في رزْءِ الْحَبيبِ ومَنْ تَعْلو وتَزْفِرُ بِالأحْزانِ أنْفاسي

8) مَنْ بَيْنُهُ بَيْنَ أحْشائي يَغْلِبُني طولَ الحَياةِ بِأنْواعٍ وأجْناسِ

9) حَمَلْتُ مِنْ فَقْدِهِ ما لَوْ يُصَبُّ على لُبْنانَ لانْهَدَّ مِنْهُ الشّامِخُ الرّاسي

10) وذاكَ حَمْدونُ قُطْبُ الْعارفينَ ومَنْ دارتْ عَلَيهِ رَحَى الأقْطابِ في النّاسِ

11) كَفى بِهِ شَرَفًا أنَّ الرَّسولَ لَهُ حبٌّ حَميٌّ بلا شَكٍّ وإلْباسِ

12) أوْلاهُ مَوْلاهُ إجْلالاً وتَكْرِمَةً وعِلْمَهُ اللَّدُني[828] مِنْ قَبْلِ قِرْطاسِ

---

[827]- تُسَهَّل الهمزة لإقامة الوزن.

[828]- تُخَفَّف الياء ليستقيم الوزن.

13) أحَلَهُ رُتْبَـةً لَمْ يَحْـوِها بَشَـرٌ مِنَ الْبَـرايا، ولَمْ تُدْرَكْ بِمِقْـياسِ

14) أعْني خَليلي حَمْدونَ الّذي فَخَرَتْ بِـهِ المَغـــارِبُ، لانارٌ علـى راسِ

15) لِلّهِ ما ضَمَّ ذاكَ القَبْـرُ مِنْ شِيَمٍ تَقْذى بِها عَيْنُ حَسـودٍ وجَسّاسِ

16) ومِنْ عُلومٍ جَـلاها، وَهْيَ مُظْلِمَـةٌ فَـهْمًا، وغادَرَها كالشَّمْسِ لِلنّاسِ

17) فَجْرُ المَعـارِفِ والآدابِ، وارِثُهـا خُـذْ عِلْمَـهُ ثِقَـةً مِنْ غَيْـرِ إدْلاسِ

18) واحْفَظْ وَسائِلَهُ، واطْلُبْ مَسائِلَهُ، واسلُكْ مَسـالِكَهُ، تَظْفَـرْ بِنِبْـراسِ

19) كَمْ مِنْ جَهـولٍ أتاهُ غَيْـرَ مُكْتَرِثٍ بدينِهِ، فَـسَـقـاهُ العِلْمَ بالْكاسِ

20) وعـادَ يُبْـرِقُ مِنْ أنْوارِ طَلْعَـتِـهِ مِنْ غَيْـرِ ما نَظْرَةٍ في وَجْهِ كُرّاسِ

21) وكَمْ رَهينِ أسى، مِنْ طولِ غَفْلَتِـهِ ولانَ بِالعِلْمِ مِنْهُ قَلْبُـهُ القـاسي

22) وكَمْ يَتيـمٍ كَـفـاهُ فَـقْـدَ والِدِهِ وَراحَ مِنْ شَـأْنِهِ كَـالوالِدِ الآسي

23) لِمِثْلِ ذا فَـاسْعَ يا مَنْ كُنْتَ ذا أمَلٍ وانْهَضْ لِنَجْحِكَ مَشّاءً على الرّاسِ

24) واخْفِضْ جَناحَكَ، إجْلالاً وتَكْرِمَةً، وقَبِّلِ التُّرْبَ كَي[829] تَنْجو[830] مِنَ الْباسِ

25) يالَيْتَني كُنْتُ فيمَنْ كانَ جاوَرَهُ لِكَيْ أُفـارِقَ أدْراني وأنْجـاسي

26) أو لَيْـتَـهُ مَنَّ لي يَوْمًـا بِفـاتِحَـةٍ لِكَيْ أُطْرُدَ وَسْـواسي وخَنّاسي

27) مَنْ لي بِذاكَ الحِمى يَوْمًا فَألْثِمَهُ حَـتّى أفـوقَ بِهِ أهْلي وجُـلاّسي

28) هذا، ومـا زالَتِ الدُّنْيـا دوائِرُها تَـدورُ كَـالْفَلَكِ الدَّوّارِ بِالنّاسِ

29) صَبْراً، بَني شيخِنا، لازِلْتُمْ خَلَفًا عَنْ والِدٍ راحَ لِلْمَـوْلى بِإيناسِ

30) اللّهُ يُبْقي ضَريحًا ضَمَّ أعْظُمَـهُ سَحائِبَ العَفْـوِ لا وانٍ ولا باسِ[831]

31) وَصَلِّ رَبِّ على الهادي وشيعَتِهِ ما هَبَّ نَشْرُ الصَّبا إدْبارَ عَسْعاسِ

32) وَعُمَّ آلاً وصَحْباً هُمْ نُجومُ هُدى مـا حَنَّ وُرْقٌ على لَدْنٍ ومَيّـاسِ

هذا، ولكن كلّ من نظر في هذه القصيدة، فليُصَحِّح فهمه، ولا يعجل بالعَذْل، فقد قيل

[829]- في الأصل: لكي. ولا يستقيم به الوزن.

[830]- كذا يستقيم الوزن.

[831]- لعل الصواب: بآس. والشّطر غير واضح.

في البيت الشائع الذائع، وهو جدّ غير هَزْل:

[الوافر]

1) فَكَمْ مِنْ عائِبٍ قَولاً صحيحًا وآفَتُهُ مِنَ الفَهْمِ السَّقيمِ

نظمها عُبَيْد ربِّه، أحمد بن عبد الله الجَكْنِيّ، عفا الله عنه ورحم أبويه».

[زجلية محمد النّجار]

وقول الأديب البركة، الشيخ محمّد النجار، رحمه الله[832]:

1) رَحْمَتْ رَبِّي على الْفَقيهْ السّي حَمْدونْ والْبَركا فاخْليفْتُ عَزْ اوْلادُ

2) واجْبْ تْرتيهْ فاسْ وْقْراهْ وْمْدونْ واكْتيرْ الحُبْ يَقْوَى تَغْرادُ

3) غابْ الشّيخْ الشّهيرْ بِالطَّبْعْ الْمدودْ والْجَودْ مْعَ الْحْيا، وْعِلْمُ وْنْشادُ

4) وأكْتْبْ سْرارْ خافيا عَنْ ابْنِ خَلْدونْ مِنْ صَرْفْ عْتيقْ راحْ بالْحُكْمَ فادُ

5) وامْلْكْ سْطْوى وْعزّ ولْطافْ وْهْدون[833] فابْساطْ يْمام غرنبا[834] طالْ اسْهادُ

6) وْنْشا حُلاً لْشانْها تْنشّطْ لْبْدونْ واتْحَلاً بالْحْديثْ واسْما بِاسْنادُ

7) يَبْهَتْ، لَوْ راهْ في حْياتُ ابنُ عَبدونْ سْبْحان اللّي عْطاهْ ورْضاهْ وْزادُ

8) وارْقَى بِلْفاظْ رايْقا عَنْ ابنِ زيدونْ واعْلا منْ بادْ في الحَقيقا اجتِهادُ

9) وسْرَ السّبيلْ ماوْطا حافر بْرْدونْ وابْلَغْ الخيرْ لْمقامْ ارْشادُ

10) وانْقَرْ بابْ الرّياضْ، وافْتَحْ لو سَعْدونْ واجْنا مِنْ غْلتُ، وازْهَرْ بِمْرادُ

11) ساعا والبِيْنْ ما عْمْلْ مْنْ دونْ دونْ حَتّى رامْ الحْبيبْ كْفْنُ والْحادُ

12) يْجْعَلْ قَبْرُ رْياضْ وارْضاهْ وْسادُ

---

[832]- زجال مراكشي. انظر عنه: الزجل في المغرب: 616-619. وقد اعتزم الأستاذ محمد الفاسي نشر ديوانه. انظر: معلمة الملحون: 16/1. هذا وقد تركنا النص كما هو في الأصل. ولم نتصرف فيه بغير الشكل، بحسب اجتهادنا. وفيه تُلاحظ جمل مبهمة.

[833]- كذا بالأصل.

[834]- كذا بالأصل. ولعل الصّواب: غرْبنا.

13) خرْجَتْ هْلْ فاسْ باكْيَا هْلاً ويْدورْ وكْبارْها مْشورازي[835] الفُرسانْ

14) عالْمْ وشْريفْ شاعْ، بْرْهانُ مْشْهورْ صَلاً وعلى الكْرامْ شْيابْ وشُبّانْ

15) واضْحا لْطيبْهُمْ فِالرُّوْضا جيرانْ

16) شيخْ تْجْلاً عْلى البْدورْ بْنورْ شْمْسْ تْلميدْ لُه جارْ وارْفيقُ رامُ

17) ماتْ عْلى الحَمْدْ والشّْهادَة والتّْقديسْ حاشَ قاصْدُ يْخيبُ مْثْلْ بْرْحامُ

18) ما بالْكْ ضَيْفْ سِيّدْنا مولايْ ادْريسْ مَنْ كانْ مُقيمْ لِلْعْبادْ فْامْقامُ

19) بْحْضورْ القَلْبْ للثّْنا وْالطّْرْفْ رْجيسْ لْقْيامْ اللّيلْ واضْيا لْصْيامُ

20) يْجْعَلْ قبرُ رياضْ عاطْرْ بْنْسامُ

21) شوقْ لْكْنازَه وْجاها جْدّْ كْثيرْ يومْ وْداعو ولاقَوْ حَرّْ افْراقوا

22) ياقوتْ السّرْ والدّْخيرْ وْاليكْسيرْ في صْلاةْ الهاشْمي لْمَنْ بِها راقوا

23) وْدَليلْ الخيرْ كُلُّ حْكْمْ فاوْراقو

24) غابْ مَنْ ضَيْفْهُمْ ضيفْ نالْ اقْراهْ زرْعوا كاسْ الْهْنا، وْراموا مَنْ شْربوهْ

25) فْامْدونْ الغَرْبْ شاعْ وْخيامْ وْقْراهْ فْقْدْ المْرْحومْ ما سْمَعْنا مَنْ سْبَوهْ

26) واخْتْمْ نْجّارْ قولْها مْدْحُ وْقْراهْ اعْلا وْلْدْ الرّْضى حَسَنا مَنْ بوهْ

27) رَحْمْتْ ربي عْليهْ وعْلَ مَنْ حَبُّوهْ

28) إذا غابْ الفْقيهْ والبْرّْ المْذْكورْ مْحَضْ النِّسْبَا العَلْيا وْلْزْمْ لْكْفانْ

29) البْرَكا النّْجيبْ لِيمامْ المَنصورْ سُلطان شْفيقْ، ما ظْهَرْ عَوضُ فْزْمانْ

30) وَلْدْ الهادي شْفيعنا، نِعْمْ المْبْرور مَنْ لاتْحصى مْحاسْنُ، صادْقْ ليمانْ

[835]- كذا بالأصل.

[نونية عبد السلام بن محمد الزَّمّوريّ عند ختم المؤلف الألفية]

ولما ختم ولده الفقيه العلاّمة القاضي، سيّدي الطالب[836] ألفية ابن مالك بمسجد القرويين منتصف عام 1244 [1828م]، أنشده الفقيه الأديب البارع المشارك، أبو[837] محمد، عبد السلام بن محمّد الزموري[838] هذه القصيدة البديعة يذكر فيها محاسن والده، رحمه الله، وتعرّض في آخرها لذكر الختم، نصُّها:

[البسيط]

1) إلى متَى بِسهامِ البَيْنِ تَرْمِيني	يا مالِكي، وَوِصالُ مَنْكَ يَكْفِيني؟!
2) هَلاَّ رَثَيْتَ لِقَلْبٍ ذابَ فيكَ أسى	مُقَسَّمٍ بينَ أطرافِ السَّكاكِينِ
3) يَسْتَشْعِرُ اليأسَ مِنْكُمْ ثُمَّ يُطْمِعُهُ	ما عِنْدَكُمْ مِنْ كَريمِ الطَّبْعِ واللِّينِ
4) قَدْ كُنْتُ قَبْلُ، ولَيْسَ الوَصْلُ يُقنعني،	واليَوْمَ أدنَى خَيالٍ مِنْكَ يُرْضِيني
5) يا طولَ شَجْوي، ويا لَهْفي ويا حُزْني	على ارْتِجاعِ لَيالٍ، لَوْ تُوافيني
6) إذْ راحُنا مِنْ زُلالِ الثَّغْرِ نَمْزِجُهُ	وأنتَ يا غايَةَ الآمالِ تَسْقيني
7) والدَّهْرُ في غَفْلَةٍ عَنَّا، وَنَحْنُ كَما	شِئْنا، وداعي المُنى في الحالِ يَدْعوني
8) لا نَتَّقي نَظَراً مِنْ عَيْنِ حاسِدِنا	ولا نَخافُ أذى، إذ ذاكَ يُؤذيني
9) ولَمْ نَزَلْ بِصَفاءِ العَيْشِ مُغْتَبِطًا	حَتَّى فُجِعْتُ بِمَوْتِ الشَّيخِ حَمْدونِ
10) شَيْخي الَّذي هُوَ ذُخْري في العُلومِ وَمَنْ	أوصافُهُ لَمْ تَزَلْ بِالمَدْحِ[839] تُغْريني
11) العالِمُ العَلَمُ المَرْضِيُّ سيرَتُهُ	المُقْتَفي نَهْجَ أهلِ العِلْمِ والدِّينِ

[836]- ما بعده يظهر أن النّاسخ قد حوّره وأضاف إليه التحلية المعتادة.

[837]- في الأصل: أبا.

[838]- أديب عالم. (ت 1279هـ) ترجمته في: السلوة: 130/3. معجم المطبوعات: 145. رقم 339. الإعلام: 8/487-489. رقم 1290.

[839]- في الأصل: بالممدوح. ولا يستقيم به الوزن. ولعل الصواب ما أثبتنا.

12) المُبْتَغي الأجْرَ في «إلاَّ المَوَدَّةَ في الـ قُربى»[840]، وأعْظِمْ بأجْرٍ غيْرِ مَمْنونِ!!

13) السَّالِمُ الصَّدْرِ مِنْ غِلٍّ وَمِنْ حَسَدٍ الطَّاهِرُ الجَيْبِ في حِلْمِ ابنِ سيرينِ

14) قَدْ كانَ ما بينَ أعلامِ البيانِ لَهُ فَضْلٌ يُمَيِّزُهُ في كُلِّ ما حينِ

15) ما شِئْتَ مِن أدبٍ غَضٍّ وَمِنْ مُلَحٍ أزْرَتْ نَوافِحُها بِمِسْكِ دارينِ

16) ومِنْ غرائِبَ يُبْديها، ومِنْ نُكَتٍ بِمَجْلِسِ الدَّرْسِ تُسلي كُلَّ مَحزونِ

17) وَمِنْ مُذاكَرَةٍ تَحْلُو مَذاقَتُها نيطَتْ بِما راقَ مِنْ عِلْمِ الدَّواوينِ

18) وَمِنْ بُنَيَّاتِ أفكارٍ يَسومُ بِها سوءَ العَذابِ جَميلاً وَابنَ عَبْدونِ

19) مَنْ لِلبَراعَةِ، أو مَنْ لِليَراعَةِ، أو مَنْ لِلضَّراعَةِ، في لَيالي الجُونِ!

20) مَنْ للخَطابَةِ، أو مَنْ لِلكِتابَةِ، أو مَن لِلإنابَةِ، في كُلِّ الأحايينِ؟!

21) وقَدْ قَضى وَطَراً مِنْ كُلِّ شارِدَةٍ مِنَ العُلومِ بِتَحقيقٍ وَتَبْيينِ

22) حَتَّى مَضى لِسَبيلٍ لا مَحيدَ لَنا عَنْهُ، ولازالَ ذاكَ اليَومُ يُبكيني[841]

23) أفْنَيْتُ فيهِ مَصونَ الدَّمعِ مِنْ أسفٍ وقَلَّ في مَوْتِ أهلِ العِلْمِ تَأبيني

24) اِعْجَبْ لِمُسْكَةِ نَفْسٍ بَعْدَ ما رُمِيَتْ مِنَ النَّوائبِ بالأبْكارِ والعُونِ!!

25) وَمِنْ نَجاتيَ يومَ البَيْنِ حينَ هَوى رُكني، ولَمْ أخْلُ مِنْ خَرْمٍ يُنجيني!!

26) يا مَنْظَراً كانَ بِالسَّرَّاءِ يُضْحِكُني يا قُرْبَ ما عادَ بالضَّراءِ يُبكيني!!

27) وبَعْدَ ما كانَ ذاكَ الطَّودُ مُبتَسِمًا إليَّ أدعوهُ في البَلْوى فَيُدْنيني

28) لَكِنْ لَنا في بَنيهِ بَعْدهُ خَلَفٌ مَضَى على النَّهْجِ مُستوفي القوانين

29) مِثلُ الفَقيهِ النَّبيهِ الجَيِّدِ الفَهْمِ في عِلْمِ الحَديثِ، وَعَنْهُ اليومَ تَلْقيني

30) مُحَمَّدٌ أكرَمُ الفَرْعَيْنِ مَنْ فَخَرَتْ بِهِ مَجالِسُ إقْراءٍ وَتَدْوينِ

31) والطالِبُ الحَبْرُ مَنْ جَلَّتْ فَضائِلُهُ مِنْ أن تُحاطَ بِتَقْديرٍ وَتَخْمينِ

32) مُوَفَّقُ الرَّأيِ مَحْروسُ النَّجابَةِ في [842]

840- سورة الشورى: 23.

841- ورد بعده البيت السابع والعشرون في الأصل، وعليه علامات الإلغاء.

842- تكرر هنا ورود شطر البيت التاسع والعشرين، وعليه علامات الإلغاء.

33) وقَدْ نَشا[843] في عَفافٍ لا يَميلُ بِهِ — سِنُّ الحَداثَةِ نَحْوَ المَوْقِفِ الدّونِ

34) ولَمْ يَزَلْ في طِلابِ العِلْمِ مُجتَهِداً — حتّى تمكَّنَ مِنْهُ أيَّ تَمْكينِ

35) للّهِ يَوْمٌ لَهُ في الدَّرسِ قَدْ خُتِمَتْ — «وخُلاصَةُ» النَّحوِ في ضَبْطٍ وتَزْيينِ!

36) يُمْلي على حاضِريهِ مِنْ نتائجَ لا — يَفي بِها في مَديحي كُلُّ مَوْزونِ

37) وَقَدْ غَدا بَحْرُهُ الفَيَّاضُ مُرتَمِيًا — بِلُؤْلُؤٍ مِنْ نَفيسِ القَوْلِ مَكْنونِ

38) فَاللّهُ يَحْرُسُ ذاكَ الفَرْعَ مِنْ غِيَرِ — هذا الزمانَ، وإنْ كادَتْ لَتُرْديني

39) بِحَقِّ أشْرَفِ مَبْعوثٍ، وأكْرَمِ مَنْ — بِهِ يَلوذُ الورى في المَوْقِفِ الهونِ

40) صَلّى عَلَيْهِ إلاهُ العَرْشِ ما نَظَرَتْ — عينُ الكَمالِ لِتَطْفيفِ المَوازينِ

انتهى ما وُجِدَ من تكملة هذا الدّيوان

بحمد الله تعالى، وحُسنِ عونه.

انتهى الجزء الثاني بتجزئة المحقّق، ويليه الجزء الثالث.

والحمد لله أولا وآخرا.

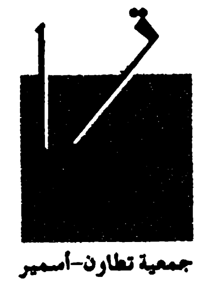
[843]- تُسَهَّل الهمزة ليستقيم الوزن.

فهرس الموضوعات

روضة النيلوفر في ثناء الناس عليه وبعض مناقبه الّتي هي أعطر من المسك الأذفر: 173


كلية الآداب والعلوم الإنسانية
تطوان
نادي الكتاب




جمعية تطاون-أسمير